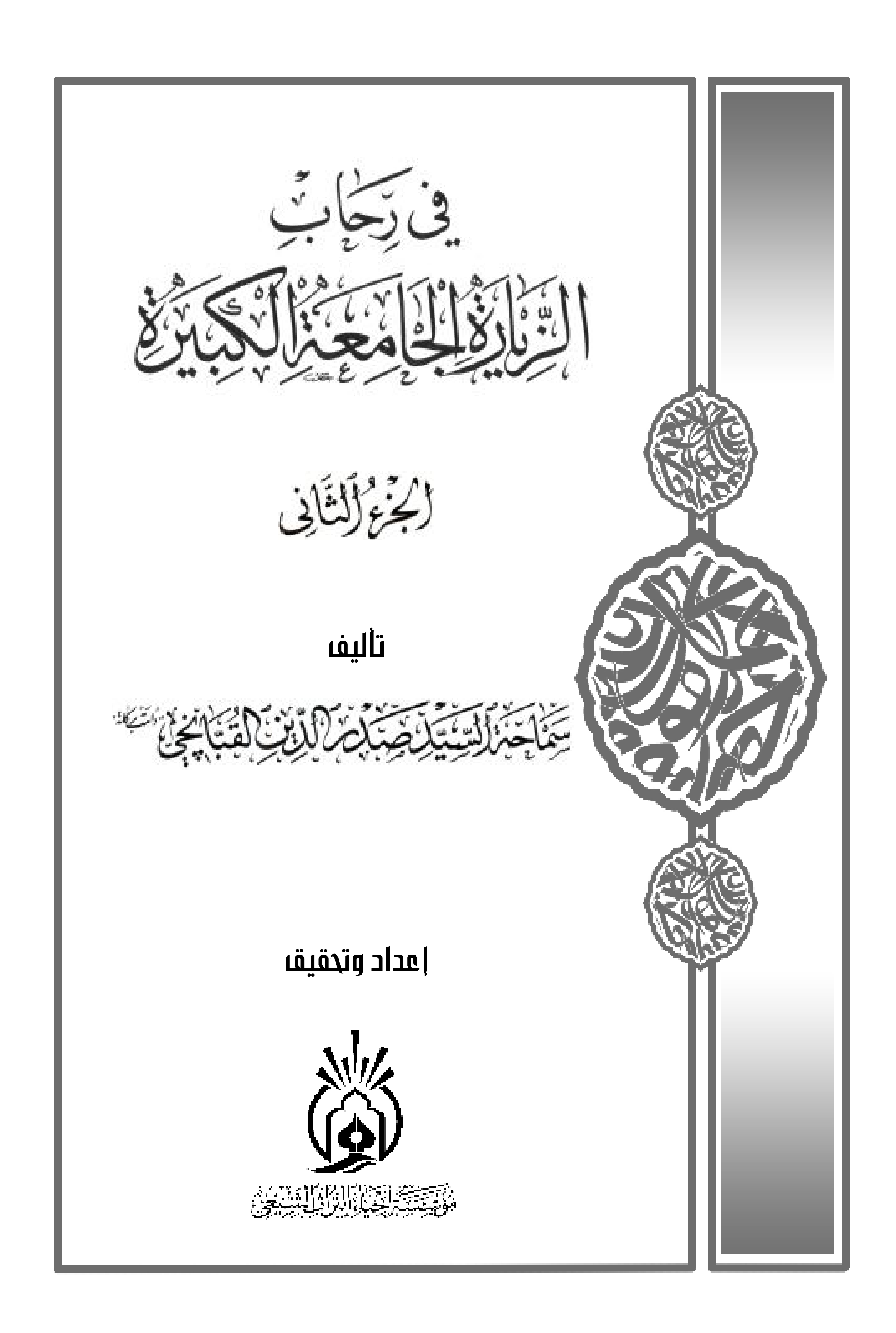

في رحاب
الزيارة الجامعة الكبيرة
الجزء الثاني
تأليف
سماحة السيد صدر الدين القبانچي
إعداد وتحقيق



www.turathshiai.com
E-mail:info@turathshiai.com
النجف الأشرف
شارع الرسول ﷺ، محلة الحويش، الزقاق: ٥٤، الدار: ٢
هاتف: ٣٣٢٨١١ و٣٣٢٨١٣
ص.ب ٥٨٨

في رحاب الزيارة الجامعة الكبيرة ج ٢

السيد صدر الدين القبانجي

إعداد وتحقيق

مؤسسة إحياء التراث الشيعي

الفصل الثاني من الزيارة:

أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ كَمَا شَهِدَ اللَّهُ لِنَفْسِهِ وَشَهِدَتْ لَهُ مَلائِكَتُهُ وَأُولُوا الْعِلْمِ مِنْ خَلْقِهِ لا إِلَهَ إِلا هُوَالْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدا عَبْدُهُ الْمُنْتَجَبُ وَرَسُولُهُ الْمُرْتَضَى أَرْسَلَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوكَرِهَ الْمُشْرِكُونَ.

وَأَشْهَدُ أَنَّكُمُ الأَئِمَّةُ الرَّاشِدُونَ الْمَهْدِيُّونَ الْمَعْصُومُونَ الْمُكَرَّمُونَ الْمُقَرَّبُونَ الْمُتَّقُونَ الصَّادِقُونَ الْمُصْطَفَوْنَ الْمُطِيعُونَ لِلَّهِ الْقَوَّامُونَ بِأَمْرِهِ الْعَامِلُونَ بِإِرَادَتِهِ الْفَائِزُونَ بِكَرَامَتِهِ اصْطَفَاكُمْ بِعِلْمِهِ وَارْتَضَاكُمْ لِغَيْبِهِ وَاخْتَارَكُمْ لِسِرِّهِ وَاجْتَبَاكُمْ بِقُدْرَتِهِ وَأَعَزَّكُمْ بِهُدَاهُ وَخَصَّكُمْ بِبُرْهَانِهِ وَانْتَجَبَكُمْ لِنُورِهِ [بِنُورِهِ] وَأَيَّدَكُمْ بِرُوحِهِ وَرَضِيَكُمْ خُلَفَاءَ فِي أَرْضِهِ وَحُجَجاً عَلَى بَرِيَّتِهِ وَأَنْصَاراً لِدِينِهِ وَحَفَظَةً لِسِرِّهِ وَخَزَنَةً لِعِلْمِهِ وَمُسْتَوْدَعاً لِحِكْمَتِهِ وَتَرَاجِمَةً لِوَحْيِهِ وَأَرْكَاناً لِتَوْحِيدِهِ وَشُهَدَاءَ عَلَى خَلْقِهِ وَأَعْلاماً لِعِبَادِهِ وَمَنَاراً فِي بِلادِهِ وَأَدِلاءَ عَلَى صِرَاطِهِ عَصَمَكُمُ اللَّهُ مِنَ الزَّلَلِ وَآمَنَكُمْ مِنَ الْفِتَنِ وَطَهَّرَكُمْ مِنَ الدَّنَسِ وَأَذْهَبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ وَطَهَّرَكُمْ تَطْهِيرا.

فَعَظَّمْتُمْ جَلالَهُ وَأَكْبَرْتُمْ شَأْنَهُ وَمَجَّدْتُمْ كَرَمَهُ وَأَدَمْتُمْ [أَدْمَنْتُمْ] ذِكْرَهُ وَوَكَّدْتُمْ [ذَكَّرْتُمْ] مِيثَاقَهُ وَأَحْكَمْتُمْ عَقْدَ طَاعَتِهِ وَنَصَحْتُمْ لَهُ فِي السِّرِّ وَالْعَلانِيَةِ وَدَعَوْتُمْ إِلَى سَبِيلِهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَبَذَلْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فِي مَرْضَاتِهِ وَصَبَرْتُمْ عَلَى مَا أَصَابَكُمْ فِي جَنْبِهِ [حُبِّهِ] وَأَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَأَمَرْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَيْتُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَجَاهَدْتُمْ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ حَتَّى أَعْلَنْتُمْ دَعْوَتَهُ

وَبَيَّنْتُمْ فَرَائِضَهُ وَأَقَمْتُمْ حُدُودَهُ وَنَشَرْتُمْ [وَفَسَّرْتُمْ] شَرَائِعَ أَحْكَامِهِ وَسَنَنْتُمْ سُنَّتَهُ وَصِرْتُمْ فِي ذَلِكَ مِنْهُ إِلَى الرِّضَا وَسَلَّمْتُمْ لَهُ الْقَضَاءَ وَصَدَّقْتُمْ مِنْ رُسُلِهِ مَنْ مَضَى.

فَالرَّاغِبُ عَنْكُمْ مَارِقٌ وَاللازِمُ لَكُمْ لاحِقٌ وَالْمُقَصِّرُ فِي حَقِّكُمْ زَاهِقٌ وَالْحَقُّ مَعَكُمْ وَفِيكُمْ وَمِنْكُمْ وَإِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ أَهْلُهُ وَمَعْدِنُهُ وَمِيرَاثُ النُّبُوَّةِ عِنْدَكُمْ وَإِيَابُ الْخَلْقِ إِلَيْكُمْ وَحِسَابُهُمْ عَلَيْكُمْ وَفَصْلُ الْخِطَابِ عِنْدَكُمْ وَآيَاتُ اللَّهِ لَدَيْكُمْ وَعَزَائِمُهُ فِيكُمْ وَنُورُهُ وَبُرْهَانُهُ عِنْدَكُمْ وَأَمْرُهُ إِلَيْكُمْ.

* * *

المحاضرة الحادية والعشرون:

التأييد بروح الله

«اصطفاكم بعلمه، وارتضاكم لغيبه، واختاركم لسرّه، واجتباكم بقدرته، وأعزكم بهداه، وخصكم ببرهانه، وانتجبكم بنوره، وأيَّدكم بروحه».

الحديث عن هذا المقطع من الزيارة «وأيّدكم بروحه» الذي يعني أن أهل البيت عليهم السلام مؤيّدون بروح الله تبارك وتعالى وهذا الأمر يستحق أن نقف عنده للحديث في معنى روح الله أوّلاً، ما هو؟

ثانياً: التأييد من الله، كيف يكون التأييد، أسباب التأييد، أنواع التأييد من الله تبارك وتعالى.

المبحث الأوّل: معنى روح الله:

أمّا الروح في قوله عليه السلام: «وأيّدكم بروحه»، فإنه ما تزال الروح لغز عند أرباب العلم الحديث والعلم القديم، عند الفلاسفة المحدثين، والفلاسفة المتقدّمين.

ما تزال الروح سراً مجهولاً، معروفة بواقعها مجهولة بتفاصيلها، يعني كلّ الناس يعرفون أنّ هناك شيء اسمه الروح هي التي تحرّك هذا الإنسان وهذا الحيوان وتجعله يحس بالألم ويفرح ويغضب ويحزن ويبكي، لكن ما هي الروح؟ لا أحد يدري.

العلم الحديث أيضاً تقدّم في تحليل الأمور واكتشاف الجزئيّات الماديّة لكن هل استطاع أن يتقدّم في معرفة ما هي الروح؟ ما يزال العلم يجهل هذا الأمر، وما يزال الإنسان هو ذلك المجهول.

الروح لغوياً:

أهل اللغة يقولون: الروح عبارة عن مصدر الحياة هذه الوردة فيها حياة، وهكذا أيّ نبات من النباتات حينما يمد جذوره في بطن الأرض ويبحث عن الماء يميناً وشمالاً، الحيوانات عندها روح ونسبة عالية من الإدراك، الإنسان عنده روح أعلى،

يقولون في اللغة الروح التي لا نعرف ما هي وما هو تكوينها لكن هي عبارة عن مصدر الحياة، الفرق بين الخشبة والحيوان والوردة والإنسان أنّ الخشبة ليس عندها مصدر حياة، ولهذا تبقى هذه الخشبة لو وضعتها مثلاً على منضدة تبقى على حالها سنين أما النبات يتحرّك، الإنسان يتحرّك، الحيوان يتحرّك، مصدر الحياة هو الذي يطلق عليه اسم الروح، توجد طاقة معيّنة في هذه الكائنات الحيّة هذه الطاقة تسمّى الروح، لا أحد يستطيع في العلم الحديث أن يعطينا أوصافاً لهذه الروح، كيف تكون حمراء بيضاء صغيرة كبيرة؟ نعرف آثارها ليس أكثر، هذا المريض في المستشفى الأطباء ينظرون إلى الآثار والعوارض الجسميّة عليه، أنه إذا كانت دقّات القلب مستمرّة يقولون ما تزال عنده روح، وفي الحقيقة هم لم يلمسوا الروح، وإنما شاهدوا آثارها.

الروح في القرآن:

أمّا القرآن ماذا يقول؟

القرآن سلّط الضوء على الروح في أكثر من آية وأعطاها أهميّة واحتراماً خاصاً، واعتبر الروح كياناً مهماً عميقاً عظيماً وأفرده بالحديث في كثير من المواقع لكننا نلاحظ في القرآن الكريم أنحاءاً من التعبير، مرّة تأتي كلمة الروح مجرّدة ليست منسوبة إلى شيء كما في قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾،[1] ملائكة وروح يتنزّلون من السماء، ومرة يعرجون إلى السماء كما في قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾،[2] إذن لاحظوا: الروح شيء والملائكة شيء آخر والقرآن يعطي لكل عنوان استقلاليّته ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ﴾ إذن الملائكة يصعدون إلى السماء، وشيء آخر يمشي مع الملائكة اسمه الروح يعرج إلى السماء.

---

(١) القدر: ٤.

(٢) المعارج: ٤.

العجيب أنّ القرآن الكريم حين يتحدث عن الملائكة مرّة يجمعهم ومرّة يجعلهم مفرداً، مرّة يقول مَلَك، ومرّة يقول ملائكة، لكن الروح واحدة مفردة، كل الآيات القرآنية التي تحدّثت عن الروح تقول: الروح، أو روحي، أو روحنا، لا يوجد أرواح، القرآن الكريم فيه أسرار يكتشفها الإنسان من خلال التدبّر. جيّد إذن أحياناً القرآن يطرح الروح كمفردة في مقابل الملائكة ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ في نفس الوقت فإن الروح أيضاً تنزل من السماء... ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾.(١) هذا نمط من أنماط التعبير في القرآن.

ومرّة أخرى القرآن الكريم يحدّثنا عن روح موصوفة بوصف يقول: ﴿وَأَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾،(٢) تبيّن أنه يوجد شيء جديد اسمه روح القدس، وعندنا تعبير ثالث في القرآن الكريم اسمه الروح الأمين ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾.(٣)

ورابعاً القرآن يتحدّث عن الروح وينسبها إليه بقول روحي، وروحنا ﴿فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا﴾،(٤) إذن هذه روح خاصّة هي روح الله.

وأحياناً نقرأ في قوله تعالى: ﴿إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ * فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾(٥) إذاً هذا الموجود عند الإنسان وعند آدم وعند عيسى عليه السلام هو نفخة من روح الله، لنرى إذن ما هي هذه الروح هل هي نفس الروح الأمين ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلى قَلْبِكَ﴾(٦) يعني القرآن نزل به الروح الأمين على قلب رسول الله صلى الله عليه وآله.

---

(١) القدر: ٤ و٥.
(2) البقرة: ٨٧.
(٣) الشعراء: ١٩٣ و١٩٤.
(٤) الأنبياء: ٩١.
(٥) ص: ٧١ و٧٢.
(٦) الشعراء: ١٩٣ و١٩٤.

حينئـذٍ حينمـا تقـول الزيـارة الجامعـة «وأيّـدكم بروحـه» حـديثنا هنـا طبعـاً أيّ روح مـــن الأرواح؟ روح الله، الـــروح الأمـــين، روح القـــدس، أم هـــي شـــيءٌ آخـر؟ عجبـا هـل هـي أرواح متعـدّدة؟! إذا كانـت متعـدّدة لمـاذا القـرآن يفردهـا ويقول الملائكة والروح.. روحي، روحنا، لا يوجد أرواح لماذا؟

القـرآن إذاً قـدّم استعمالات متعـدّدة للـروح فـي آيـات متعـدّدة والآن يجـب أن نعطي تفاسير للمفردات، ثمّ نصل إلى الجمع والنظريّة التي يؤمن بها مفسّرونا.

أنواع الروح:

الروح الأمين هو جبرئيل عليه السلام، يقول المفسّرون إنّ الروح الأمين اسم يطلق على جبرئيل، لكن هناك تعبير ثاني اسمه (روح القدس) هذا غير جبرئيل ما هو؟ الروايات تقول إنّ روح القدس هو روح خاص يؤيّد به الله تعالى الأنبياء والأوصياء، هو روح عظيم جدّاً مقدّس جدّاً يرافق الأنبياء والأوصياء.

الروايـة فـي هـذا الشـأن تقـول عـن الإمـام البـاقر عليه السلام: «إنّ فـي الأنبيـاء والأوصـياء خمسـة أرواح»،[1] أوّلاً لأشـرح لكـم المعنـى ثـمّ نرجـع إلـى الروايـة، أنظـروا هـذه النباتـات عنـدها روح نباتيـة، ونصـعد مـن النبـات إلـى الحيـوان نجـد عنـده روحـاً أكثـر تطـوراً مـن روح الشـجرة والنخلـة والـوردة نسـمّيها روحـاً حيوانيـة، هـذه النملـة أصـغر مـن الشـجرة العملاقـة لكـن هـذه النملـة عنـدها نمـط مـن الحيـاة والـروح أكثـر تطـوّراً مـن الشـجرة والنخلـة، النملـة تبنـي بيتـاً ويكـون عنـدها ذريّـة وعنـدها احسـاس بـالخطر وهـروب، وتجمـع مـواد غذائيّـة، وتـدافع عـن نفسـها، وعنـدها لجان تخطيطيّـة فـي عملهـا وأحيانـاً تجمـع تبرّعـات فيمـا بيـنهم لكـي يحشـدّوا مـواداً غذائيّـة، خاصّـة هـذه النملـة العجيبـة فـي خلقهـا ليسـت موجـودة فـي أعظـم النباتـات، إذاً عنـدها روح حيوانيـة، وننتقـل لمخلـوق أكثـر

(١) الكافي ١: ٢٧٢/ ٢.

تطوّراً من الحيوانات هو الإنسان حيث نقول الإنسان عنده روح اسمها الروح الإنسانية، هي أكثر تطوراً ممّا هو عند سائر الحيوانات، ليس أكثر على مستوى الكميّة، بل على مستوى النوعيّة، لو بقى العلم الحديث يدرّس الكلب والقرد آلاف السنين لا يتحوّل هذا القرد إلى إنسان في إدراكاته بل يبقى قرداً ربّما يتعلّم بعض الأمور، الآن في الغرب أحياناً ونتيجة البذخ والرفاه ولسبب من الأسباب يتّخذون مثلاً من القرد خادماً يضعون في رقبته كيساً ويكتبون فيه كذا وكذا ويذهب إلى السوق لكن يبقى القرد قرداً ليس قادراً على أن يتصرّف تصرّف الإنسان الحر، بينما أنظر إلى الطفل الصغير الذي عمره خمسة أشهر، هو حرٌّ من الصعب أن تسيطر عليه في إرادته وحركاته وفي إدراكاته، فهذه الحيوانات مهما تطوّرت لكن تبقى فاقدة لروح اسمها الروح الإنسانية بينما الإنسان يحمل روحاً أخرى غير الروح الموجودة عند الحيوانات اسمها (الروح الإنسانية).

وهناك روح رابعة اسمها روح الإيمان، الفرق بين المؤمن والكافر، أنّ المؤمن لديه روح خاصّة، نسمّيه إحساساً خاصاً، لديه مشاعر خاصّة، لديه رؤية خاصّة، لديه عين خاصّة يبصر بها اسمها روح الإيمان، يعني الكافر مهما تتجمع عنده الأدّلة أو العبر الدنيوية لكن يبقى قلبه لا يؤمن، والفرق بينهما كالفرق بين الأعمى والبصير، الأعمى مهما تعطيه من طاقة وتحليل لكن هو أعمى لا يرى أبداً، هو فاقد القدرة على الادراك، الكافر فاقد القدرة على الإدراك المعنوي لسبب من الأسباب، القرآن الكريم يسمّيه أعمى ومرّة يسمّيه ميّتاً، يعني الإنسان بدون إيمان ميّت ﴿أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ﴾[1] إذاً القرآن يحدّثنا عن نمط آخر من الروح، هو روح الإيمان. الإسلام يقول هذه

---

(١) الأنعام: ١٢٢.

طاقة أخرى عند الإنسان المؤمن مرّة يُسمّيها روحاً، ومرّة يسمّيها نوراً، مرّة يسمّيها حياة، عبارات كثيرة ولهذا سوف يختلف الكافر عن المؤمن بروح جديدة اسمها (روح الإيمان).

ثمّ نصل إلى الأنبياء والأوصياء حيث نجد لديهم قدرة عجيبة ما دون العرش إلى الثرى كل هذا يرونه ويعلمون به بطاقة جديدة فوق الأشعة فوق البنفسجيّة اسمها (روح القُدُس) ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾[1] هذه ليست موجودة عندي وعندك بل هي موجودة عند الأنبياء والأوصياء.

إذاً أصبح لدينا في التحليل الإسلامي خمسة أرواح: روح نباتيّة، روح حيوانية، روح إنسانية، روح إيمانية، روح نبويّة (روح القُدُس) والقرآن الكريم يشير إلى كلّ واحدة من هذه بنمط من أنماط الإشارة، والروايات طبعاً تذكر هذا المعنى لكن بمصطلحات أخرى.

الإمام الباقر عليه السلام يقول: «إنّ في الأنبياء والأوصياء خمسة أرواح: روح القدس، وروح الإيمان، وروح الحياة، وروح القوّة، وروح الشهوة».[2]

الله تبارك وتعالى يؤيّد الأنبياء بروح اسمها روح القدس أحياناً هذه الروح التي هي ملازمة للنبي لا تفارقه وقد يؤيّد بها المؤمنين أيضاً لكن ليس دائماً، مثلاً هذا الكميت شاعر أهل البيت حينما وقف عند الإمام الباقر عليه السلام وأنشده: ما لقلبٍ متيّمٍ مستهام... هذا الشاعر الذي يقول: ما زلت أحمل خشبتي على كتفي أربعين عاماً أطلب من يصلبني عليها، هذا الكميت لمّا قرأ القصيدة عند الإمام الباقر عليه السلام الإمام قال له: «لا تزال مؤيّداً بروح القُدُس ما دمت تقول فينا»[3] أنظروا يا أخوتي أحياناً يقول الإمام

(١) البقرة: ٨٧.

(٢) الكافي ١: ٢٧٢/ ٢.

(٣) وسائل الشيعة ١٤: ٥٩٨/ ١٩٨٩٤ - ٥.

للمتحدّث «نفث الشيطان على لسانك».[1] وأحياناً «روح القدس ينطق على لسانك» فرق كبير بينهما، الإمام علي عليه السلام في قصة همّام المعروفة الذي قال للإمام علي عليه السلام صف لي المتقين: الإمام عليه السلام اعتذر منه أوّلاً وثانياً ولمّا ألّح عليه همّام استجاب له الإمام وقال: «فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ، مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ، وَمَلْبَسُهُمُ الاقْتِصَادُ، وَمَشْيُهُمُ التَّوَاضُعُ... أَمَّا اللَّيْلَ فَصَافُّونَ أَقْدَامَهُمْ تَالِينَ لأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرَتِّلُونَهَا تَرْتِيلاً...»[2] **إلى آخر الخطبة الرائعة إلى أن وصل الإمام عليه السلام إلى نهاية الخطبة خرّ همّام صعقاً فحرّكوه وإذا هو ميّت حيث لم يطق هذا الوصف العظيم.**

الإمام يصف المتقين ويصوّر الجنّة والنار وكيف ان المؤمن المتقي يتفاعل مع هذا العرض القرآني، همّام حينما سمع هذا الوصف من الإمام صعقته صعقة فمات، يعني مرّة الإنسان يتأثّر بكلام الإمام ويبدأ يبكي، مرّة يكون حزيناً ويتباكى ومرّة يغمى عليه ومرّة وصل الأمر بدرجة من التأثير إلى حدِّ الفناء، فحرّكوه وإذا هو ميّت، فقال قائل للإمام علي عليه السلام: فما بالك أنت يا أمير المؤمنين؟ هنا يأتي كلام الإمام يقول له: «ويحك إن لكل أجل وقتاً لن يعدوه وسبباً لا يتجاوزه فمهلاً لا تعد لمثلها فإنما نفث الشيطان على لسانك»، هنا في الحقيقة ليس الذنب ذنب المقرىء للقرآن الكريم، أنا وصفت له المتقين ونتيجة تفتّح قلبه وتوهّج نوره أصابته صعقةٌ ومات.

لاحظوا أحياناً روح القدس ينطق على لسانك مثل قصيدة الكميت حينما يقرأها للإمام الباقر عليه السلام الإمام يقول: لا تزال مؤيّداً بروح القدس، أو لقد نطق روح القدس على لسانك.

إذاً هناك روح اسمها روح القُدُس، اليوم نقف عندها لنرى ما هي روح القدس.

---

(١) نهج البلاغة: خ ١٩٣.

(٢) نهج البلاغة: خ ١٩٣، وفيه (يرتلونه) ووردت (يرتلونها) في روضة الواعظين ومكارم الأخلاق.

هناك رواية[١] جميلة أيضاً عن المعصوم عليه السلام من قال فينا بيتاً من الشعر بنى الله له بيتاً في الجنّة، وفي رواية أخرى حتّى يؤيّد بروح القدس، يعني هذا الشاعر الذي ينظم شعراً في أهل البيت ويؤثّر على الجمهور يقول الإمام فيه: أوّلاً بنى الله له بيتاً في الجنّة ثانياً: يؤيّد بروح القدس.

إذاً ما هي روح القدس التي أيّد الله بها عيسى عليه السلام، وأيّد الله بها الأنبياء والأوصياء، وأحياناً يكون المؤمن مؤيداً بها.

القرآن الكريم يشير إلى هذه القضية في قوله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾[٢] **لم يقل أيدهم بملائكة، ولم يقل بالرعب أو الأمطار أو الرياح ولا قال أيّدهم بأنصار ولا قال أيّدهم بأسلحة وإنّما أيّدهم بروح منه، عجبا ما هي هذه الروح؟!**

المفسّرون وصلوا إلى هذه النتيجة أن القرآن مرّة يقول: ﴿نَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾.[٣]

ومرّة يقول: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾،[٤] **ومرّة يقول:** ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾، **ومرّة يقول:** ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾،[٥] **ومرة يقول:** ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ﴾.[٦]

أروع ما وصل إليه المفسّرون هذا المعنى: أنّ الروح هي عبارة عن مصدر عظيم للطاقة والإدراك والمعرفة، لكن هذا المصدر العظيم للطاقة والذي هو مخلوق من مخلوقات الله تعالى ينزل بمقدار الجذب الذي عند

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٥/ح ٢.
(٢) المجادلة: ٢٢.
(٣) الأنبياء: ٩١.
(٤) الحجر: ٢٩.
(٥) البقرة: ٨٧.
(٦) الشعراء: ١٩٣.

الطرف الجاذب، مثلاً أشّعة الشمس هي أشعة واحدة نسمّيها أشعة الشمس لكن هذه الأشعة الأرض تأخذ منها مقداراً، الماء يأخذ منها مقداراً، الإنسان يأخذ منها مقداراً، الهواء يأخذ منها مقداراً معيّناً، إذاً هناك أشعة شمس مختزنة في الأرض، وهناك أشعة شمس مختزنة في البدن، وهناك أشعة شمس مختزنة في الماء وهناك أشعة شمس مختزنة في الكريات التي تدور حول الشمس، كلّها شيء واحد اسمها أشعة الشمس، والكل يستفيد من هذا النور وهذا النور هو الذي يقتل البكتريا، ويطهّر الأبدان، ويعمل آلاف الأعمال، هو شيء واحد لكن على كل شيء يوزّع حسب استحقاقه.

الآن مثلاً الإنسان من خلال التقنيات الحديثة أصبح لديه قدرة على أن يختزن الطاقة الشمسيّة ويسيّر بها السيارات والمركبات الفضائية بلا حاجة إلى وقود، هناك صفائح معدنية ضخمة هذه تخزن أشعة الشمس وتحولها إلى طاقة محركة.

العلماء هكذا يقولون: إنّ الرُوح هو خلق عظيم أعظم من الملائكة، أعظم من جبرئيل وميكائيل وإسرافيل، هذه الروح في الحقيقة هي بالنسبة للملائكة وللإنسان وللأنبياء بمثابة ذي الظل إلى الظل يعني هي مصدر توليد روح الملائكة ومصدر توليد روح القدس ومصدر توليد روح الإنسان وروح الحيوان لكن الحيوان يأخذ منها مثلاً درجة واحد بالعشر ملايين لكن الإنسان يأخذ منها نسبة أكبر من الحيوان مثلاً مئة إلى عشرة ملايين وبهذه النسبة أصبح عنده ادراكاً وعقلاً، الأنبياء يأخذون شيئاً أكبر، إذاً هي أم الطاقات الحيّة، ولهذا القرآن الكريم يقول: ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ...﴾[1] وهكذا ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ﴾[2] الملائكة تعرج وتنزّل والروح أيضاً يعرج وينزل كما ان الشمس تشرق ونورها يشرق، والشمس تغيب ونورها يغيب معها، لكن الروح هذه

---

(١) المعارج: ٤.

(٢) القدر: ٤.

شيء مقدّس رغم أننا نعبّر عنه لتوضيح الفكرة بالطاقة، القرآن يرى أنّ الروح مثل روح الإنسان هو شيء جدّاً عظيم، هناك روحٌ عظيمة، هي خلق عظيم من خلق الله تبارك وتعالى، ومقدّس بحيث إذا مسّ شيئاً بَثّ فيه الحياة وانتشرت فيه الروح.

على كلّ حال الروح خلق عظيم كما تقول الروايات أعظم من جبرئيل وميكائيل.. ولعلّه من المفيد أن أذكر نصوص هذه الروايات «خلق من خلق الله أعظم من جبرئيل وميكائيل».[1]

في ضوء هذا التفسير والفهم للروح يتضح معنى قوله عليه السلام في الزيارة: «وأيّدكم بروح منه» فإذا كان المؤمن مؤيّداً بروح من الله كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾[2] فإن الأئمّة عليهم السلام والأوصياء وأهل بيت النبوة بشكل عام هم أولى بالتأييد بالروح الإلهية من المؤمن العادي.

هذا هو تمام الكلام في البحث الأوّل عن معنى روح الله.

التأييد الإلهي:

البحث الثاني في قوله: «وأيدكم بروحه» هو البحث عن معنى وكيفية التأييد الإلهي.

التأييد الإلهي له عدّة مستويات:

١ ـ التأييد بالعقل:

التأييد الإلهي بالعقل فإن الله تبارك وتعالى أعطى الإنسان عقلاً، هذا تأييد من الله تعالى للمؤمن والكافر بدرجة من الدرجات، والعقل أيضاً هو خَلقٌ عظيم، وأوّل ما خلق الله العقل فقال له: أقبل فأقبل فقال له: أدبر فأدبر.[3]

---

(١) الكافي ١: ٢٧٣/ ١.

(٢) المجادلة: ٢٢.

(٣) شرح أصول الكافي ١٢: ١١.

العقل هو شيء واحد مبثوث في الناس نقول هذا الإنسان عنده عقل، وهذا ليس عنده عقل، ولا نقول هذا الإنسان عنده عقول، يعني ان العقل شيء واحد، نحن الآن مليارات البشر كلّ واحد عنده قليل من العقل، إذاً هذا العقل هو مثل شعاع الشمس، شيء واحد لكنّه موزّع على كلّ البشريّة كلّ بنسبته، هناك عقل إفلاطون وأرسطو مثلاً، وآخر قليل في إدراكاته العقلية.

هناك رواية لطيفة تقول: هبط جبرئيل على آدم عليه السلام قال له: يا آدم أمرت أن أخيّرك بين ثلاثة، فإختر واحدة ودع إثنتين: فقال آدم: وما الثلاثة؟ فقال: العقل والدين والحياء.

فقال آدم عليه السلام: فإني قد اخترت العقل.

فقال جبرئيل للحياء والدين: انصرفا ودعاه.

فقالا: يا جبرائيل إنّا أمرنا أن نكون مع العقل حيث كان.(١)

الله كلّفنا أين ما يوجد العقل لا بدّ أن يوجد معه دين وأين ما يوجد عقل لا بدّ أن يوجد معه حياء، ولهذا فإن الإنسان العاقل الحقيقي هو ذلك الإنسان المتديّن، العاقل لا يبيع الجنّة ويشتري النار، هذا ليس بعاقل، لا يمكن للعاقل أن لا يشكر الله تعالى وأن لا يصلي، هذا ليس عاقلاً لماذا؟ لأنّ العقل يقتضي أن يكون عنده حياء من الله، من خالقه، فالصلاة عبارة عن شكر لله تعالى، وترك المعاصي هو عبارة عن حياء من الله، فكيف يكون الإنسان عاقلاً لكنه يجسر على خالقه ويكون عاصياً متمرّداً على الله تبارك وتعالى.

آدم عليه السلام اختار العقل فجبرئيل قال للحياء والدين انصرفا فأبيا وقالا إنا أُمرنا أن نكون مع العقل حيث كان.

من الروايات اللطيفة والرائعة أنّ أقل ما قسّمه الله على العباد إثنان لأنّهما ثمينان

(١) المحاسن ١: ١٩١/ ٢.

أحدهما العقل، والثاني الإنصاف، قليل من الناس عندهم عقل، انظروا إلى هذه المآسي والمصائب والمشاكل والإخفاقات في حياة البشر والإزعاجات والخلافات العائليّة كلّها أو أكثرها ناشئ من قلّة العقل، والإنصاف كذلك أيضاً فهو أقل ما قُسّم على الناس فإن أكثر الناس ليس عندهم إنصاف، لو كان الناس عندهم إنصاف لا يبقى الفقير فقيراً والغني متخماً بغناه، أو قصرٌ إلى جانبه كوخ، وهكذا...وما تمرّد ابن على أبيه أو زوجة على زوجها ولا ظَلَم زوجٌ زوجته أو أبٌ يظلم ابنه إلا نتيجة قلّة عقل وقلّة الإنصاف.

الإنسان مؤيّد بالعقل، ولكن القرآن في تعبيراته الرائعة يقول ان الله تعالى أعطى العقل للإنسان لكن سَلَبه من الكافرين ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها﴾[1] يعني الله تعالى منحمهم هذه الطاقة العظيمة المولّدة لكن هم لا يستعملونها، لهم قلوب لا يعقلون بها، وبالنتيجة ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾[2] يعني فاقدين للعقل مثل الحيوانات.

٢ _ التأييد بالملائكة:

وأحياناً يكون التأييد الإلهي بالملائكة حيث ان الله تعالى يؤيّد عباده لمؤمنين بالملائكة كما في معركة بدر، وحنين، أو كما في قصة السكينة التي أنزلها الله تعالى على نبيّه ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها﴾[3] تأييد بالجنود لكن جنود إلهيين.

وأنا الليلة أريد أن أشرح لكم أو أقف معكم وقفة سريعة مع آية من الآيات التي كثر فيها الصراع بين الشيعة والسنّة وهي آية ﴿ثانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُما فِي

---

(١) الأعراف: ١٧٩.

(٢) الفرقان: ٤٤.

(٣) التوبة: ٤٠.

الْغَـارِ إِذْ يَقُـولُ لِصَـاحِبِهِ لا تَحْـزَنْ إِنَّ اللَّـهَ مَعَنَـا فَـأَنْزَلَ اللَّـهُ سَـكِينَتَهُ عَلَيْـهِ وَأَيَّـدَهُ بِجُنُـودٍ لَـمْ تَرَوْهَـا وَجَعَـلَ كَلِمَـةَ الَّـذِينَ كَفَـرُوا السُّـفْلَى وَكَلِمَـةُ اللَّـهِ هِـيَ الْعُلْيَـا ﴾.[١] **هـذه الآيـة مـن الآيـات الخلافيـة علـى المسـتوى العقائـدي حيـث أهـل السـنّة يقولـون هـذه الآيـة رصـيدنا الكبيـر الـذي جـاء فـي القـرآن الكبيـر فـي المـدح والثنـاء لأبـي بكـر، والشيعة تقدّم عشرات الآيات في الثناء والمدح لأمير المؤمنين عليه السلام.**

قـالوا: نحـن أيضـاً عنـدنا آيـة قرآنيـة نـزلت فـي حـقّ أبـي بكـر وهـي هـذه الآيـة: ﴿إِلاَّ تَنْصُـرُوهُ ...﴾ **ـ يعنـي إن لـم تنصـروا رسـول الله صلى الله عليه وآله ـ فـاعرفوا أن الله قـد نصـره يـوم كـان وحيـداً، الآن أنـتم فـي حـين خـذلتم النبـي ولكـن لـيس ثمـة مشـكلة** ﴿فَقَـدْ نَصَـرَهُ اللَّـهُ إِذْ أَخْرَجَـهُ الَّـذِينَ كَفَـرُوا ثَـانِيَ اثْنَـيْنِ إِذْ هُمَـا فِـي الْغَـارِ إِذْ يَقُـولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾.[٢]

إخواننـا أبنـاء العامّـة قـالوا الحمـد لله الآن قـد وضـح الحـق صـاحب رسـول الله هـو الخليفـة الصـديق أبـو بكـر والقـرآن صـريح يقـول: ﴿إِذْ يَقُـولُ لِصَـاحِبِهِ﴾**، فمـن كان صاحبه في الغار؟**

قصة ثاني اثنين:

القصّة هكذا تقول باتفاق المؤرّخين أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا أوحى الله تعالى إليه أن يخرج من مكّة وانه ليس لك في مكّة ناصر، طلب من أمير المؤمنين المبيت على الفراش وصحبه أبو بكر، رواياتنا[٣] تقول ان النبي صلى الله عليه وآله لم يصطحب أبا بكر، لكن أبا بكر التحق به عنوة، وقد كان رسول الله يحاول التخلّص منه وعلى كل حال فقد اصطحبه رسول الله، الإمام أحمد بن حنبل يذكر هذه الرواية أن أبا بكر كان يضغط

(١) التوبة: ٤٠.

(٢) التوبة: ٤٠.

(٣) أنظر: بحار الأنوار ١٩: ٢٨ وما بعدها.

على النبي[١]... ليس ثمة مشكلة لنفترض أنّ رسول الله اصطحبه وصلوا إلى الغار في داخل جبل اسمه جبل الثور يبعد عدّة فراسخ عن مكّة المكرّمة وهو أثر تاريخي بالنسبة لنا، لكن هذا الأثر فإن المملكة العربيّة لا تهتم به، هناك عدم عناية وإهمال لهذه الآثار بحجة أنّها بدعة.

لمّا أصبح الصباح واكتشفوا أنّ رسول الله ﷺ قد هاجر هجموا على بيت النبي ﷺ نهض لهم علي فسألوه عن محمّد، قال: اجعلتموني عليه رقيبا،[٢] فهيّئوا فرقة طوارئ سريعة للحاق برسول الله ﷺ معهم طلائع يدلّوهم على الطريق فأصبح الدليل يمشي مع الأثر حتّى وصل إلى غار في جبل الثور، وإذا هذا الغار، قد نسج عليه العنكبوت بيتاً ثمّ ان الفاختة جاءت وبيّضت هناك، بحيث أنّهم عندما وصلوا إلى هذا المكان لم يفكّروا أن يمزّقوا النسيج وينظروا داخل الغار الرواية تقول: لو أنّ أحدهم مدّ رأسه لرأى النبي وأبا بكر داخل الغار، لكن الله تعالى أخذ على عيونهم بهذه المعجزة وهذه الكرامة الإلهيّة، لمّا وصل الدليل إلى الغار قال لهم: إلى هنا انتهى الأثر إمّا محمّد ﷺ قد عرج إلى السماء، وإمّا قد غاص إلى الأرض لأنّ آثاره انتهت.

الروايات تقول أنّ أبا بكر أوجس خيفة واضطراب وأوشك أن يقفز ويخرج فقال رسول الله له: ويحك لن يصلوا إلينا إنّ الله معنا، هنا يقول أهل السنّة: أنتم تقولون إنّ عليّ بن أبي طالب أخو النبي، نحن أيضاً نقول أبو بكر صاحب النبي ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾[٣] طبعاً وباتّفاق المفسرين فإن السكينة قد نزلت على رسول الله ﷺ والجنود قد أيد الله بهم رسوله ولا يقول أحد أنّ الجنود نزلوا لتأييد

(١) أنظر: بحار الأنوار ١٩: ٩٣ وما بعدها.

(٢) البحار ١٩: ٥١.

(٣) التوبة: ٤٠.

أبـا بكـر، ولكـن أهـل السـنة يسـتفيدون مـن هـذه الكلمـة أن أبـا بكـر هـو صـاحب رسـول الله ﷺ وهـذه منقبـة وفضـيلة لأبـي بكـر نـزل بهـا القـرآن الكـريم فمـاذا تقولون يا علماء الشيعة؟

الصحبة و مداليلها:

علمـاء الشـيعة يقولـون: صـحيح إن أبـا بكـر هـو صـاحب رسـول الله ﷺ لكـن الصـحبة ليسـت دائمـاً ذات قيمـة إيجابيـة انظـروا يـا شـباب لنكـون منصـفين ونتعامـل مـع القضـايا علميّـاً نحـن نقـول الإمـام علـي عليه السلام أخـو رسـول الله ﷺ قـد تسـألون إذاً مـا هـي هـذه المنقبـة للإمـام علـي عليه السلام؟ لاحظـوا الإمـام علـي لـيس أخـا رسـول الله بالنَسَـب لكـن هـو جعلـه أخـاه للتوحّـد فـي اللّياقـة، رسـول الله اختـار مـن المسـلمين مـن يليـق بـأن يكـون أخـاه، فهـذه أصـبحت قيمـة أخلاقيّـة عاليـة، وإلاّ لـو كـان مجـرّد أخيـه فـي النَسَـب فقـد نقـول هـذه ليسـت فضـيلة، لأنّ عـمّ النبـي فـي النسـب وقـد كـان مشـركاً، الأنبيـاء عنـدهم أبنـاء فـي النَسَـب كـانوا كفـرة مثـل ابـن نـوح، إذن العلاقـة النسـبية لـيس لهـا شـأن بنحـو مطلـق وإنمـا الشـأن فـي العلاقـة حينمـا تكـون علاقـة إيمانيـة، هنـا رسـول الله هـو اختـار الإمـام علـيّ عليه السلام أن يكـون أخـاه، أمّـا الصـحبة فـي قولـه: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ﴾[1] علماؤنـا يقولـون الصـحبة ليسـت فيهـا أيّـة دلالـة علـى منزلـة خاصـة، النـاس عنـدهم صـحبة فـي المعمـل وفـي المدرسـة والتلاميـذ عنـدهم صـحبة فيمـا بيـنهم، النـاس فـي السـجون أصـحاب لكـن أحـدهم مـؤمن والآخـر كـافر، لكـن هـل الصـحبة تعنـي أنهـم فـي مسـتوى واحـد؟ علماؤنـا يقولـون راجعـوا اللغـة، راجعـوا التـاريخ، راجعـوا القـرآن الكـريم فسـتجدون أن الصـحبة بمجردهـا لا تعنـي التماثـل والتجـانس والتقـارب فـي

(١) التوبة: ٤٠.

المستوى، القرآن في قصة يوسف مثلاً يقول: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ﴾[١] **لقد كان هؤلاء مسجونين مع يوسف فهم أصحاب يوسف لكن هل يعني ذلك أنه يوجد تشابه بينهم وبين يوسف، القرآن يشير إلى أنّ الصحبة بعض الأحيان قد تكون بين كافر وبين نبي من الأنبياء مثلاً يقول تعالى:** ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾[٢] **في قصّة أخرى القرآن الكريم يستعرضها قصة اثنين كان لكلٍّ واحد منهم بستان** ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ﴾[٣] **أحدهم غني عنده بستان عظيم والآخر فقير فالغني قال:** ﴿مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً﴾[٤] **الفقير قال له:** ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ﴾[٥] **والشاهد في الأمر هو قوله:** ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ﴾[٦] **إذاً هذا مؤمن وهذا كافر فالآية القرآنية حينما تقول:** ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ...﴾[٧] **تدل على أن الصحبة لا تعني حالة مقدّسة، ممكن أن يكون عبداً من العبيد مشى مع النبي فكان صاحبه، ممكن دليل يدلّه على الطريق يكون صاحبه فلا تجعلوا هذه الآية في سجل امتيازات الخليفة الأوّل هذا كلام علمائنا وهناك كلام مفصّل.**

هذا كلّه في اطار الحديث عن التأييد الإلهي.

نحن نعتقد أنّ الله أيّد الأنبياء بروح القُدُس وهناك أنماط للتأييد الإلهي بالعقل وبالملائكة وبالجنود وبالأنصار وبالناس.

---

(١) يوسف: ٣٩.
(٢) الأعراف: ١٨٤.
(٣) الكهف: ٣٧.
(٤) الكهف: ٣٥.
(٥) الكهف: ٣٧.
(٦) السابق.
(٧) التوبة: ٤٠.

وهنـاك أسـباب لاستنـزال هـذا التأييـد الإلهـي يعنـي كيـف نكسـب التأييـد الإلهـي؟ كيـف تكـون مؤيّـداً بـروح الله تبـارك وتعـالى؟ كيـف تنـزل السـكينة عليـك؟ لـذلك أسـباب طبعـاً وهـذا الحـديث نطويـه لضـيق الوقـت ونؤجلـه لمحاضرة أخرى.

والحمد لله رب العالمين

* * *

المحاضرة الثانية والعشرون:

خلافة أهل البيت عليهم السلام

«ورضيكم خلفاء في أرضه وحججاً على بريّته وأنصاراً لدينه وحفظة لسرّه».

يعنـي ان الأنبيـاء والأئمّـة عليهم السلام هـم خلفـاء الله فـي أرضـه، وهـذا المقطـع يدعونا الى الحديث عن الخلافة في الأرض.

الأرض:

الأرض هـي هـذه الكـرة الأرضـية، ولحـد الآن لـم يثبـت علميـاً، ولـم يثبـت أيضـاً فـي الـنص الـديني وجـود كـرة أرضـية أخـرى يوجـد عليهـا بشـر، ولهـذا فـإن الأنبيـاء هـم رسـل الله إلـى أهـل هـذه الأرض، وأهـل بيـت النبـوة هـم خلفـاء الله فـي هذه الأرض.

علمـاء الفضـاء اليـوم يبحثـون هـل يوجـد بشـر فـي الكواكـب الأخـرى؟ لـم يكتشـفوا وجـود حيـاة فيهـا لأنـه إلـى الآن لـم يجـدوا فيهـا مـاء، والانسـان والنبـات والحيـوان بـدون مـاء لا يمكـن أن يعـيش، ومـا يـزال البـاحثون يتأكـدون مـن وجـود علامات في المريخ على وجود الماء.

الخلافة:

هناك خلافتان:

خلافـة عامـة لكـل البشـر أنـا وأنـت خليفـة فـي هـذه الأرض ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[1] فـنحن خلفـاء الله تبـارك وتعـالى فـي إعمـار هـذه الأرض وزراعتهـا، وهـذه خلافة عامة للإنسان الصالح وغير الصالح.

في الأرض خليفة ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾[2] الله تعالى قال

(١) هود: ٦١.

(٢) البقرة: ٣٠.

للملائكة: سوف أجعل خليفة في الأرض، لكن خليفة بالمعنى العام الذي يشمل حتّى الإنسان القاتل مثل قابيل، فتعجب الملائكة من ذلك، وقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، طبعاً هم لا يتحدّثون عن آدم ونوح وإبراهيم وإنما يتحدّثون عن البشر الذين يفسدون في الأرض ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[1] هنا المقصود هو الخلافة العامة، ولهذا فقد اعترضوا، لو كانوا يعلمون ان آدم هو الخليفة وان رسول الله هو الخليفة لم يعترضوا، لكن حينما تصل المسألة في الأرض إلى أمثال يزيد وهارون ومروان وصدام فإن الملائكة قد تعجبوا وقالوا: إلهنا هؤلاء خلفاؤك في الأرض!؟

الفكرة هي أن هذه الخلافة هي خلافة أمّة تشمل كل البشر، ولكن حينما تقول الزيارة: «ورضيكم خلفاء في أرضه» فليس المقصود هو الخلافة العامة.

تفسير سؤال الملائكة:

قد يرد سؤال أن الملائكة من أين عرفوا أن الإنسان الذي لم يخلق بعد سوف يُفسد في الأرض وسوف تحدث معارك دمويّة، وتسفك فيها دماء بريّة.

هناك نظريتان في الجواب على هذا السؤال:

النظرية الأولى: أنهم عرفوا ذلك من وجود جيل بشري سابق، قبل آدم بل وجود أجيال بشرية قد أفسدت في الأرض وسفكت الدماء. وهذا ما تؤكده بعض الروايات التي تقول: «ان قبل آدمكم هذا ألف ألف آدم».[2]

النظرية الثانية: أنهم عرفوا أن هذا الإنسان سوف يدخل في معارك استناداً إلى طبيعة الخلقة، فالملائكة يعرفون أن هذا الإنسان مخلوق من ماديات ومعنويات، الملائكة عرفوا أن الإنسان مخلوق ضعيف وهناك شيطان مخلوق مسلّط عليه وسوف

---

(١) السابق.
(2) بحار الأنوار ٢٥: ٢٥.

يحدث الانحراف والصراع كنتيجة طبيعية، كما إذا بعثت جندياً إلى معركة فإن طبيعة المعركة فيها قتال وجروح وما شاكل ذلك ولهذا فأنت تعرف مسبقاً أن بها هكذا نتائج، الملائكة عرفوا أن هذا الإنسان مخلوق من طين وعنده شهوات وهناك شيطان مسلط عليه، إذن عرفوا ذلك من طبيعة الخلقة وليس من جيل بشري قد سبق ولكن الله تعالى قال لهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ﴾.[١]

لماذا هبط آدم إلى الدنيا؟

السؤال ان هذه الدنيا التي أُهبط إليها أبونا آدم ما هي في النظر الديني هل هي دار عقاب أو دار تكامل؟

هل هبط إلى الدنيا حتّى يعاقبه الله إذن فهذه الدنيا دار عقاب، أو أن الدنيا هي مدرسة تكامل فمثلاً الأب عندما يرسل ابنه إلى المدرسة ويبتلى بالامتحانات وربما يعقابه المعلم فالمدرسة هي امتحان صعب لكن هي دار تكامل وليس دار عقوبة.

فهذه النظرية تقول إن الله تعالى أهبط آدم إلى الأرض باعتبارها دار تكامل وليس دار عقوبة ولهذا فقد جاء التعبير بالنسبة لآدم بالهبوط: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً﴾[٢] لكن بالنسبة للشيطان جاء التعبير هكذا: ﴿فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلى يَوْمِ الدِّينِ﴾[٣] الطرد والعقوبة هي للشيطان، أما للإنسان فهذه الدنيا هي دار تكامل.

قيمة الدنيا:

أمير المؤمنين عليه السلام ذات مرّة سمع رجل يذم الدنيا، قال له: أيها الذام للدنيا المغتر بغرورها... أنت المتجرم عليها أم هي المتجرمة عليك؟ ثمّ

(١) البقرة: ٣٠.

(٢) البقرة: ٣٨.

(٣) البقرة: ٣٤ و٣٥.

قــال عليه السلام: «ان الــدنيا دار صــدق لمــن صــدّقها، ودار عافيــة لمــن فهــم عنهــا، ودار غنــى لمــن تــزود منهــا ودار موعظــة لمــن اتعــظ بهــا، مســجد أحبــاء الله، ومصــلى ملائكــة الله، ومهــبط وحــي الله، ومتجــر أوليــاء الله»[1] الــدنيا دار تكامــل وليســت دار عقاب، فالإنسان هو الذي يجعل الدنيا داراً للعقوبة نتيجة سوء تصرفه.

نادي الضحك:

كنت اقرأ في الصحافة قبل أيام افتتاح أوّل نادي للضحك في تايوان، نتيجة أن الناس يعيشون عُقداً نفسية والأطباء للأمراض النفسية ينافسون الأطباء للأمراض البدنية. وهو نادي رقم ١٣٠١ للضحك في العالم، ضحك بلا هدف، اقرأ لكم هذا الخبر:

مجموعة من مواطني تايوان أسسوا أوّل نادي للضحك في البلاد لمساعدة الآخرين على الضحك من أجل الصحة والسعادة اشترك في هذا النادي أربعون لاعباً، يقول: كان الامر صعباً في البداية لأن أعضاء النادي كانوا يشعرون بالحرج ثمّ تبدأ جلسات الضحك بترديد أعضاء النادي (هو هو ها ها) والناس على هذه الطريقة يضحكون وهذا هو النادي رقم ١٣٠١ بهدف تحقيق السعادة للانسان.

قبــل مــدة افتتحــوا نــادي للبكــاء فــي بكــين فالإنســان أحيانــاً يحتــاج إلــى الماديات وأحياناً إلى المعنويات فمرة يريد الضحك ومرة يريد البكاء.

الخلافة الخاصة:

الخلافــة الخاصــة بمعنــى أن بعــض النــاس يجعلهــم الله تعــالى حكامــاً فــي الأرض مثــل مــا جعــل الأنبيــاء أوليــاء الأمــور علــى الآخــرين، والســؤال هــو: لمــاذا هذه الخلافة الخاصة؟ ولماذا يبعث الله أنبياء؟

الجواب: إن ذلك ضرورة لنجاح المسيرة الإنسانية.

---

(١) نهج البلاغة: خ ١٣١.

إن طلاب المدرسة _ مثلاً _ يحتاجون إلى مدير مهما كانوا جيدين حتّى لو شجعنا الطلاب على حالة الرقابة الذاتية، الحياة الدنيا هكذا.

حاجات الإنسان:

الإنسان علمياً يحتاج إلى ثلاثة أمور:

الأمر الأوّل: الماديات.

الأمر الثاني: المعنويات.

الأمر الثالث: التشريعات.

١ _ الماديات:

أي إن الإنسان بدون طعام ومنام وسكن وزواج لا يستطيع أن يعيش، فالحياة البشرية بدون الامكانات المادية تموت وهنا يقول القرآن الكريم اعترافاً بهذه الحاجات: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾[1] «العقل السليم في الجسم السليم»، ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾[2] وكل من يقول إن الإسلام يمنع التمتع بالماديات فهو كلام غير صحيح، الله تعالى خلق الإنسان من طين فهو يحتاج إلى ماء.

٢ _ المعنويات:

يوجد مثل شعبي عراقي يقول: (الجنَّة اللي ما بيهه بَشَر مَتنراد) يعني لا يكفي أن تضع الإنسان في قصر وتعطيه كل ما يحتاجه من الماديات لأن الإنسان ابن مجتمع يريد محبة وحنان وأُسرة وزواج ويريد: ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ * مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾[3] ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ

---

(١) الأعراف: ٣٢.

(٢) القصص: ٧٧.

(٣) الواقعة: ١٥ - ١٧.

عِينٍ﴾[1] الإنسان ابن معنويات وليس فقط ماديات، فالرأفة والمحبة والشجاعة والمعايشة مع الناس هي أشياء معنوية، فالإنسان اجتماعي بالطبع، وكما يحتاج الإنسان إلى الماديات كذلك يحتاج إلى المعنويات، وهنا يأتي دور الأنبياء، دورهم ترسيخ هذه المعنويات في الإنسان وتوجيهها توجيهاً صحيحاً لأن هناك معركة بين الاستحقاقات المادية والاستحقاقات المعنوية دور الأنبياء هو ما شرحه الرسول الأكرم ﷺ قائلاً: «إنما بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق»[2] أي ترسيخ المعنويات.

الدعاء للغنى:

أحد أصحاب النبي ﷺ انقطع عن الحضور في المسجد النبوي لعدة أيام، رسول الله ﷺ افتقده ولما جاء بعد عدة أيام سأله رسول الله ﷺ قائلاً: ما أبطأك عنا؟

فقال: يا رسول الله السُقم والفقر.

قال ﷺ: ألا أعلّمك دعاءاً يذهب الله عنك السقم والفقر؟

قال: بلى يا رسول الله.

فقال رسول الله ﷺ: «قل لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، توكلت على الحي الذي لا يموت، والحمد لله الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبّره تكبيرا».

فما لبث أن عاد إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله قد أذهب الله عني السُقم والفقر.[3]

(١) الدخان: ٥٤.

(٢) مكارم الأخلاق: ٨؛ بحار الأنوار ١٦: ٢١٠.

(٣) الكافي ٢: ٥٥١/ ٣.

الارتباط بالله هو قضية معنوية ولكنها مهمة في الحياة الإنسان.

الإمام الباقر عليه السلام يعلمنا دعاءاً في السجدة الأخيرة من الصلاة وهو دعاء للرزق «يا خير المسؤولين ويا خير المعطين ارزقني وارزق عيالي من فضلك إنك ذو الفضل العظيم».(١)

نرجع إلى حديثنا أن الإنسان كما يحتاج إلى ماديات كذلك يحتاج إلى معنويات، والدين جاء لتأكيد المعنويات وهذه المعنويات هي أيضاً فطرية، فالدين لا يفرض علينا معنويات غير التي فطر الله الناس عليها، فالدين هو دين الفطرة فكل العالم لا يقبل الخيانة والسرقة والاعتداء وسوء الأدب ورفض هذه القضايا واستنكارها هي مسألة فطرية جاء ليؤكدها الإسلام حتّى لا تكون مغلوبة بضغط الماديات ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَا ذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾(٢) الله تعالى يأمر النبي قل لهم أن ينفقوا بالحالة المتوسطة التي هي مقبولة عرفاً ووجداناً ﴿لا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ﴾(٣) فالإسلام يدعو إلى قضايا فطرية وليس قضايا تفرض على الفطرة، هذا هو دور الأنبياء.

نستطيع أن نمثّل لذلك مثالاً: كما أن الإنسان يحتاج إلى نور في الماديات كذلك يحتاج إلى نور في المعنويات، ولهذا يقول القرآن:

﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَداعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِراجاً مُنِيراً﴾(٤) أي انك أيها النبي نور معنوي، فكما ان الإنسان يحتاج إلى نور في وضعه المادي كذلك يحتاج إلى نور في وضعه المعنوي، وذاك النور هو القرآن، والأنبياء، والإسلام.

---

(١) مصباح المتهجد: ١٩٩/ ٢٨٦ - ٢٤.

(٢) البقرة: ٢١٩.

(٣) الإسراء: ٢٩.

(٤) الأحزاب: ٤٥ و٤٦.

كعب بن زهير:

ولهذا فإن الشاعر كعب بن زهير عنده قصيدة رائعة في مدح النبي يقول في أواخرها:

إن الرسول لنور يستضاء به   مُهَّندٌ من سيوف الله مسلول

هي قصيدة رائعة جداً وأصحاب الذوق الأدبي يقومون ويقعدون لهذه القصيدة المعروفة بقصيدة البردة والتي يقول في مطلعها:

بأنت سعاد فقلبي اليوم متبول   متيم عندها لم يفد مكبول[1]

هذه من القصائد في الصدر الأوّل من الإسلام وحيث لم يكن كعب مسلماً، يقولون إن رسول الله عندما سمع هذه القصيدة أعطى له بردته هديةً له.

كعب له أخ اسمه بُجير، بجير أسلم بعد عشرين سنة من البعثة، وبقى كعب على الكفر، وقد هددوه انك إذا ذهبت للنبي فسوف تقتل، لكن كعب كان شجاعاً فنظم قصيدة وجاء إلى النبي متخفياً متسللاً في الليل إلى المدينة المنورة وفي الصباح جاء إلى النبي وهو ملثّم.

قال: يا رسول الله رجل يبايعك على الإسلام؟

النبي قال له: أسلم تَسلم.

فتح النقاب وقال: أنا كعب بن زهير مُد يَدَك يا رسول الله فقد أسلمت ثمّ أنشد يقول:

نُبئت أن رسول الله أوعدني   والعفو عند رسول الله مأمول

إن الرسول لنورٌ يُستضاء به   مُهنَّد من سيوف الله مسلول

رسول الله قَبِلَ منه الإسلام وقصيدته وأهداه بردته، مثلما الإمام الرضا عليه السلام أهدى جبته إلى دعبل الخزاعي حين أنشد قصيدة جميلة جداً يقول فيها:

---

(١) البداية والنهاية ٤: ٤٢٤.

ألم تر أني مذ ثلاثين حجة أروح وأغدو دائم الحسرات
أرى فيئَهم في غيرهم مُتقَسِماً وأيديهم من فيئهم صفرات(١)

٣ _ التشريعات:

وهناك حاجة ثالثة لدى الإنسان هي التشريعات، حيث أن الإنسان يحتاج إلى تشريع وقانون ينظم به حياته وعلاقاته الاجتماعيّة. وحينما نتحدث اليوم عن مجالس تشريعيّة فإن ذلك لا يتنافى مع الإسلام والقرآن، لأن القرآن يعطي خطوطاً عامة وأحكاماً ثابتة ﴿السَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾(٢) و﴿أَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا﴾(٣) لكن التطبيقات المتحركة على الأرض، مثل ميزانية الدولة، وفتح فرص عمل، وتوزيع خدمات، فهذا يحتاج إلى مجالس تشريعية تتناول الأحكام المتحركة والمتفرقة.

امتداد الخلافة:

ولنُعد للحديث عن الخلافة الخاصة التي تهدف لملأ الحاجات المعنوية والتشريعيّة الكبرى لدى الإنسان.

هذه الخلافة الخاصة هي من حق الأنبياء ومن بعدهم الأئمّة الأطهار حيث قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من يؤازرني على هذا الأمر فيكون وزيري ووصيي وخليفتي» فقام عليّ عليه السلام وقال: يا رسول الله أنا أبايعك، _ هذا الحديث يسمى (حديث الدار) _ فقال: أُجلس يا عليّ، ثمّ أعاد الكلام فقام عليّ، قال الرسول صلى الله عليه وآله: أُجلس يا عليّ وفي المرة الثالثة أخذ بيده وقال: «هذا وصيي ووزيري وخليفتي عليكم فاسمعوا له وأطيعوا»(٤) هذه هي الخلافة الخاصة.

---

(١) بحار الأنوار ٤٩: ٢٤٥/ ١٣.
(٢) البقرة: ٢٧٥.
(٣) المائدة: ٣٨.
(٤) أنظر: مناقب آل أبي طالب ١: ٣٠٥.

الإمامة بعد النبي ﷺ:

نحن نعتقد بإمامة أهل البيت عليهم السلام، ان كل المسلمين يعتقدون أن الأمّة الإسلاميّة تحتاج إلى خليفة، إن نظرية الخلافة نظرية مجمع عليها، نحن نعتقد أن الانتخاب بعد رسول الله ﷺ لم يكن انتخاباً صحيحاً، نحن نعتقد أن الانتخابات في الخليفة الأوّل كانت مزوّرة لأن من شروط الانتخابات النزيهة:

أوّلاً: أن تكون علنية وانتخابات السقيفة لم تكن علنية، بدليل انه لم يكن يعلم بها إلا مجموعة خاصة، وحتّى أبا بكر كان خارج المدينة فأرسل عليه عمر بن الخطاب، ولعل ذلك يفسر لنا قوله: (إن بيعة أبي بكر فلتة وقى الله المسلمين شرها).[1]

وثانياً: أن تكون عامة، وقد كان الحضور في السقيفة هم مجموعة خاصة جداً لم يحضر معهم وجوه المهاجرين والأنصار.

وثالثاً: أن تكون انتخابات حرّة، أما انتخابات السقيفة فقد كانت انتخابات إرهابية، بدليل انه حدث تهديد بالقتل، هذا هو سعد بن عبادة كان مرشح الأنصار للخلافة ولم يبايع أبا بكر بعثوا له أحداً بسهم فقتله وبثوا شائعة تقول إن سَعداً قتله الجن.

ورابعاً: أن لا تكون مخالفة لله ورسوله ﷺ، أما انتخابات السقيفة فقد كانت على خلاف توجيه رسول الله ﷺ ووصيته وعلى خلاف ما جاء به الوحي حين يقول: ﴿وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾.

نحن نعتقد أن الخلافة الخاصة بعد رسول الله ﷺ يجب أن تتم عبر انتخابات شرعية صحيحة غير مزوَّرة وليس فيها ارهاب ووفقاً لتوجيهات النبي ﷺ. وقد حقق رسول الله ﷺ هذه الانتخابات حين دعا المسلمين لبيعة الإمام عليّ عليه السلام في حجة الوداع في غدير خُم.

---

(١) الإيضاح: ١٣٤؛ المسترشد: ٢١٣؛ السقيفة وفدك: ٤٦؛ شرح الأخبار ٢: ٢٣٤؛ التعجب: ١٣.

الإمامة بعد المعصوم:

نحن نعتقد أن دور المؤسسة الدينية هو دور ترشيد الحكومة، وهذا هو بحث معاصر.

اليوم يوجد مشكلة وأتباع الحداثة والعصرنة يتهمون المؤسسة الدينية بأنها تريد أن تحكم العباد والبلاد بالدكتاتورية كما كانت تصنع الكنيسة.

إننا نعتقد أن المؤسسة الدينية ونعني بها الحوزة العلمية والمرجعية الدينية لا تريد أن تَحكم وإنما دور المؤسسة الدينية هو ترشيد الحكومة.

الآن _ مثلاً _ العالم العربي يحتاج إلى ٨٠ مليون فرصة عمل، وهذا ليس شأن المؤسسة الدينية بل هو شأن الدولة، الحوزة الدينية والمراجع والمساجد عملهم ترشيد مؤسسات الدولة المدنية لادارة البلاد.

الشهيد الصدر قدس سره يصطلح على هذا الأمر بـ (خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء) يعني الإنسان هو الخليفة والحاكم على الأرض أما دور الأنبياء فهو دور الترشيد.

المؤسسة الدينية تهدف في نظريتنا إلى ترشيد الدولة وترشيد المؤسسات المدنية.

* * *

أنا أختم المحاضرة بذكر الإمام الحسين عليه السلام.

هناك حديث شريف مخطوط على ستائر القبر الحسيني الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «بورك لولدي الحسين في ثلاث: في ولده وفي قبره وفي مشهده».

الإمام الحسين لم يبقَ له من أولاده في كربلاء إلاّ زين العابدين، لكن ذرية الحسين عليه السلام منتشرة اليوم في كل بقاع الأرض.

الإمام زين العابدين في أكثر من مرة تعرض للقتل، في يوم عاشوراء عندما أحرقوا الخيام، وفي قصر ابن زياد، وفي رواية مجلس يزيد حينما أمر يزيد بقتل الإمام زين العابدين، هنا زينب عليها السلام القت بنفسها عليه وقالت: لا والله لا أفارقه فإن قتلته فاقتلني معه.

هذا مشهد وهناك مشهد ثان في مجلس يزيد بن معاوية وهو مشهد تلك الطفلة الصغيرة لما قام شخص من الشام وقال: يا أمير هب لي هذه الجارية وهو لا يعرف من هؤلاء! الطفلة تعلقت بعمتها زينب قائلة: عمّة يريدون أن يستخدموني.

فقالت العقيلة زينب عليها السلام: ليس ذلك له ولا لأميره.

فلما سمع بذلك يزيد استشاط غضباً وقال: بلى لو شئت لفعلت.

قالت: كلا والله، ما جعل الله لك ذلك إلاّ أن تخرج من ملتنا وتدين بغيرها.[1]

إنا لله وإنّا إليه راجعون

* * *

---

(١) الإرشاد ٢: ١٢١.

المحاضرة الثالثة والعشرون:

الشهادة على الخلق

«وحفظة لسرّه، وخزنة لعلمه، ومستودعاً لحكمته، وتراجمة لوحيه، وأركاناً لتوحيده، وشهداء على خلقه، وأعلاماً لعباده».

الحديث في هذه الليلة عن هذا المقطع من الزيارة: «وشهداء على خلقه»، وهو الذي سيتكرّر مرة أخرى في هذه الزيارة بقوله: «وشهداء دار الفناء وشفعاء دار البقاء».

الشهادة بمعنى الاشراف والتوجيه والمسؤولية والمراقبة، هذا الاشراف هو الذي يسمّى شهادة كما في قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾[1] **ليس المقصود أنّ النبي شاهد بمعنى ينظر إلى الناس ـ وهو المعنى الأوّل للشهادة لغوياً ـ وهذا ليس وصفاً فيه تكريم للنبي أو منزلة للنبي فأنا وأنت أيضاً ننظر للناس القرآن يعطي معنى آخر يقول** ﴿إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً﴾[2] **ولا المقصود أنّ النبي يشهد على الناس يوم القيامة بمعنى يكون شغل النبي أن يدلي بالشهادة على الناس، ـ وهو المعنى الثاني للشهادة ـ بل الآية تتحدث عن موقع في الدنيا شاهداً ومبشّراً ونذيرا، بمعنى الاشراف على الناس وتحمّل مسؤولية هداية الناس.**

ومنه قوله تعالى ﴿وَإِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قالَ سُبْحانَكَ ما يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ ما لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾[3] **يوم القيامة القرآن الكريم يقول لعيسى يا عيسى هؤلاء أمّتك اتّخذوك ربّاً**

---

(١) الأحزاب: ٤٥.

(٢) الأحزاب: ٤٥.

(٣) المائدة: ١١٦.

لأنهم يعتبرون أن عيسى هو الله أو أحد أركان الله، يعتقدون بالثالوث الابن والأب والرب على كل حال الله تعالى لاقامة الحجة على الناس يوم القيامة يأتي بعيسى يقول يا عيسى هؤلاء أمّتك موجودون في المحشر أنت قلت لهم اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟ عيسى هناك يقول: إلهي أنا لم أقل لهم إلاّ ما أمرتني به، وكان دوري في الدنيا هو دور الاشراف عليهم ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾.[1]

لاحظوا هنا القرآن لا يقول فلما متّ لأن عيسى لم يمت وإنما رفعه الله إليه لذا قال فلما توفيتني، يعني أخذتني، هنا الشهيد بمعنى المشرف على الناس والأمة، هذا هو المعنى الثالث.

مستويات الاشراف:

يأتي الاشراف على مستوى الفكر فيكون إشرافاً فكرياً.

ويأتي على مستوى السياسة فيكون إشرافاً سياسياً.

ويأتي على مستوى الادارة فيكون إشرافاً إدارياً.

المهم ان عملية الاشراف ترتبط بطبيعة المجال الذي تتحرك فيه فالقائد الأعلى في أي أمّة من الأمم له إشراف سياسي على الناس والمفكّر له إشراف فكري والواعظ المرشد للناس له إشراف تربوي، أصل الفكرة هي الاشراف هذا هو المعنى الثالث للشهادة والشهيد والشاهد.

وهناك معنى رابع هو المعنى المتداول عند الناس، شهيد بمعنى قتيل في سبيل الله والقتل في سبيل الله يسمّى شهادة وهذا غير مسألة الشاهد بمعنى الناظر أو بمعنى المشرف وإنما قتيل في سبيل الله يسمّونه شهيداً وهذا معنى آخر، ربّما يكون منه قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ

---

(١) المائدة: ١١٧.

وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾[١] هنا الشهداء في أحد التفاسير بمعنى الذين قتلوا في سبيل الله، وهذا معنى رابع للشهادة.

هذه أربعة معاني للشهادة.

ما هو المقصود بقوله عليه السلام في الزيارة: «وشهداء على خلقه» أنّ الأئمّة شهداء على الخلق.

أصبح واضحاً لكم أنّ المقصود بموقع الشهادة على الخلق يعني موقع الاشراف والتوجيه والهداية للخلق وليس المقصود الناظر بمعنى المشاهد، هذا المعنى أيضاً يعني موقع القائد الذي يشرف على كل العمل، حتى المهندس في عمليّة البناء حينما يشرف يوجّه العمليّة يعني له حق التوجيه وله حق الهداية وتعديل المسار.

هذا هو موقع الشهادة وهذا طبعاً من الأبحاث السياسية والاجتماعية المهمّة نحن نتداوله بشكل مختصر وبما يتناسب مع هذا الاجتماع وهذا المجلس طبعاً.

الشهادة في الآخرة:

القرآن الكريم يشير إلى الشهادة في الآخرة يقول: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[٢] وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد يعني كل إنسان يوم القيامة يوجد سائق يقوده ويوجد شهيد يشهد عليه وهذا من الآيات العجيبة أو من الكشوفات العجيبة التي قد نغفل عنها، أنّه في محشر القيامة كل إنسان يوجد من يسوقه، من هو السائق؟ ومن هو الشهيد؟

بعض الروايات تفسّر ذلك تقول الشهيد هو رسول الله صلى الله عليه وآله يشهد على كلّ نفس وأمير المؤمنين عليه السلام هو السائق الذي يسوق كلّ نفس إمّا إلى الجنّة

---

(١) النساء: ٦٩.

(٢) ق: ٢١ و٢٢.

وإمّا إلى النار،[١] طبعاً هذا معنى عظيم يقرّبنا من فكرة أنّ عليّاً عليه السلام قسيم الجنّة والنار.

قد يقول قائل: هل رسول الله ليس له عمل أو أمير المؤمنين ليس له عمل يوم القيامة حتّى أن أي أحد يأتي رسول الله يزفّه وعلي يسوقه؟ طبعاً هذا حينما نفهمه بمعناه العميق نجد أنّه معنى صحيح يمثل كرامة ومنزلة للنبي والوصي. أنّ الهادي إلى الجنّة هو الإمام علي عليه السلام والشاهد على الأمم هو رسول الله صلى الله عليه وآله والذي يوجّه عمليّة الفوز إمّا إلى الجنّة وإمّا إلى النار هو الإمام عليّ عليه السلام وهذا هو ما ثبت بأجماع الرواة عند السنّة والشيعة أنّ عليّاً قسيم الجنّة والنار، وهو بمعنى أن هناك مثلاً طريق واسع[٢] وأبواب ذاك الطريق بيد الإمام عليّ عليه السلام، يفتح الأبواب ويقول لأهل الجنّة، ادخلوا الجنّة فيصبح هو الذي يسوق الناس إلى الجنّة.

وهكذا حينما تجمع الروايات على أنّ الإمام عليّ عليه السلام هو ساقي الكوثر أيضاً قد يقول قائل إنّ الإمام عليّ عليه السلام هل هذا شغله؟

هذا في الحقيقة إشارات ورموز إلى كرامات ومنازل عظمى في القيامة، أنّ عمليّة الأرتواء وعمليّة النجاة كلّها بيد الإمام عليّ عليه السلام أمّا كيف تصويرها هل بمعنى يسقيهم إناء ماء واحداً بعد الآخر؟ أو هناك تصوير آخر للقضيّة؟ لا نعلم لكن هي ثابتة باجماع المحدّثين السنّة والشيعة ان عليّاً عليه السلام قسيم الجنة والنار وعلي ساقي الكوثر أمّا تطبيقاتها يوم القيامة فنحن لا نعلمها.

ولهذا في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾[٣] فأن

(١) أنظر: البحار ٢٣: ٣٥٢.

(٢) بصائر الدرجات: ٢١٩.

(٣) ق: ٢١.

تصوير القضية الميداني المادي أن كل إنسان يوجد معه اثنان أحدهما يجرّه وأحدهما يدلّه على الطريق. هل بهذا الشكل أو بشكل آخر؟ لا نعلم ذلك لكن الثابت أنّ رسول الله ﷺ هو الشاهد على الأمم والإمام عليّ عليه السلام هو الدال إلى الجنّة أو إلى النار.

محمّد وعليّ يوم القيامة:

أنا أقرأ لكم هذه الرواية الجميلة على أنّها رواية مطوّلة وبعدئذٍ ننتقل إلى آفاق البحث النظري في زماننا المعاصر وهو الشهادة على الأمّة.

الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام يقول:

كان رسول الله يقول إذا سألتم الله لي فسألوه الوسيلة.

هناك مقام في الجنة عالي جداً اسمه الوسيلة رسول الله كان يقول سلوا الله لي الوسيلة، أنت تريد أن تدعو إلى رسول الله ماذا تدعو لا تقل: اللهم ارزقه الجنّة بل تقول اللهم اعطه الوسيلة وهي أعلى مقام في الآخرة.

قالوا: يا رسول الله ما هي الوسيلة؟

قال ﷺ: هي درجتي في الجنّة وهي ألف مرقاة _ يعني ألف درجة ليس المقصود هذا الدرج الذي نصعد عليه بل المقصود ألف مرتبة وربما بين مرتبة ومرتبة آلاف السنين من المسافات العريضة هذه مراتب _، يؤتى بهذه الدرجة يوم القيامة... فلا يبقى نبي ولا شهيد ولا صدّيق إلاّ قال طوبى لمن كانت هذه درجته فينادي المنادي هذه درجة محمّد ﷺ.

ثمّ قال رسول الله ﷺ: فأُقبل يومئذٍ متزراً بريطة من نور وعلى رأسي تاج الملك وعليّ أمامي وبيده لوائي وهو لواء الحمد، مكتوب عليه: (لا إله إلاّ الله، محمّد رسول الله، المفلحون هم الفائزون بالله) فلا يبقى يومئذٍ نبيّ ولا مؤمن إلاّ رفعوا رؤوسهم إليّ يقولون طوبى لهذين العبدين ما أكرمهما على

الله، فينادي المنادي هذا حبيبي محمّد ﷺ وهذا وليي عليّ بن أبي طالب عليه السلام طوبى لمن أحبّه وويلٌ لمن أبغضه وكذب عليه.

ثمّ قال ﷺ: يا علي فلا يبقى في مشهد القيامة أحدٌ يحبّك إلاّ استراح الى هذا الكلام وابيَضٌ وجهه وفرح قلبه ولا يبقى أحدٌ ممّن عاداك ونصب لك حرباً إلاّ اسوّد وجهه واضطربت قدماه فبينا أنا كذلك إذا ملكان قد أقبلا إليّ أما أحدهما فرضوان خازن الجنان وأما الآخر مالك خازن النيران فيدنوا رضوان ويسلّم عليّ فيقول: السلام عليك يا رسول الله فأرد عليه السلام وأقول: أيها الملك الطيب الروع الحسن الوجه الكريم على ربه من أنت؟ فيقول: أنا رضوان خازن الجنّة أمرني ربّي أن آتيك بمفاتيح الجنّة فخذها يا محمّد، فأقول: قبلت ذلك من ربّي فله الحمد على ما أنعم به عليّ إدفعها إلى أخي عليّ بن أبي طالب فيدفعها إلى عليّ ويرجع رضوان.

ثمّ يدنو مالك خازن النار فيسلّم عليّ ويقول: السلام عليك يا حبيب الله فأقول له: وعليك السلام أيها الملك ما أنكر رؤيتك، وأقبح وجهك من أنت؟ فيقول: أنا مالك خازن النيران قد أمرني ربّي أن آتيك بمفاتيح النار فأقول: قد قبلت ذلك من ربّي فله الحمد على ما أنعم به عليّ وفضلني به إدفعها إلى أخي عليّ بن أبي طالب فيدفعها إليه ثمّ يرجع، فيقبل عليّ ومعه مفاتيح الجنّة ومقاليد النار حتّى يقعد على عجزة جهنّم ويأخذ زمامها بيده وقد علا زفيرها واشتد حرّها.

طبعاً هذه المعاني لا يستوحش ويستغرب أحدٌ منها، في القرآن موجود مثلها مثلاً قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ مجموعة من المؤمنين لهم موقع الاشراف على جهنم، ومثلها موجودة لمؤمنين يشهدون جهنّم فيجدون أحد أصدقاءهم في الدنيا كان يريد أن يغريهم ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ * قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ﴾.[1]

(١) الصافات: ٥٥ و٥٦.

لاحظوا إذن هذه المعاني موجودة في القرآن.

الإمام عليّ عليه السلام بعدما يكون بيده مفاتيح الجنّة والنار يشرف على شفير جهنّم وقد علا زفيرها واشتد حرّها فتنادي جهنّم يا علي جُزني فقد أطفأ نورك لهبي، طبعاً هذا أيضاً موجود عندنا عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّ كلّ الناس يوم القيامة يردون النار ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها﴾[1] يعني يرد جهنّم.

قالوا: كيف ذلك يا رسول الله؟

قال: أنا أيضاً وردتها لكن جُزتها وهي خامدة يعني بنور رسول الله تخمد نار جهنّم فيعبرها رسول الله صلى الله عليه وآله.

النار تقول: يا عليّ جُزني فقد أطفأ نورك لهبي فيقول لها عليّ: ذري هذا وليّ ـ يعني أتركيه ـ وخذي هذا عدوّي.

ثمّ قال رسول الله صلى الله عليه وآله فَلَجهنّم يومئذٍ أشدّ مطاوعة لعلي من غلام أحدكم لصاحبه فإن شاء يذهب بها يمنةً وإن شاء يذهب بها يسرة ولَجهنّم يومئذٍ أشدّ مطاوعة لعلي فيما يأمرها من جميع الخلائق وذلك أنّ علياً يومئذٍ قسيم الجنّة والنار».[2]

جيّد هذا كل الحديث في المعاني اللغويّة والقرآنية لكلمة شاهد وشهيد والشهادة.

موقع الأئمّة السياسي:

الآن نتحدّث عن المعنى الذي هو موقع الأنبياء والأئمّة على الخلق وهو الشهادة بالمعنى الثالث الذي هو الأصل حتى في اللغة أيضاً فإن شاهد بمعنى مشرف وقائد.

---

(١) مريم: ٧١.

(٢) بحار الأنوار ٧: ٣٢٦/ ٢.

نحـن نعتقـد نظريّـاً أنّ الأنبيـاء والأئمّـة عليهم السلام لهـم موقـع الشـهادة علـى الخلـق «وشهداء على خلقه».

هذا البحث في الحقيقة مطروح عالميّاً اليوم وسياسيّاً بلغة حديثة.

فـي علـم السياسـة أنّ المجتمـع البشـري هـل يحتـاج إلـى شـاهد ومشـرف وموجّه أو لا يحتاج؟

وإذا كان يحتاج من هو هذا الشاهد على الناس؟

ثلاث نظريّات:

النظريّـة الإسـلامية والنظريـة الغربيـة الديمقراطيّـة والنظريـة الشـيوعية الماركسية:

ثلاث نظريّات في موقع الشهادة.

النظرية الإسلاميّة تقول: الأمّة تحتاج إلى شاهد.

النظريـة الغربيـة الديمقراطيـة تقـول الأمّـة لا تحتـاج إلـى شـاهد بـل هـي شاهدة على نفسها ولا تحتاج إلى قيادة وشهادة.

النظريـة الماركسـية الشـيوعية تقـول الأمّـة فـي هـذه المرحلـة وقبـل أن تصـل إلـى المجتمـع الأممـي العـالمي العمّـالي تحتـاج إلـى شـاهد والشـاهد هـو عبـارة عـن الطبقـة العماليـة التـي بـدورها تفـرز الحـزب العمـالي الـذي يفـرز بـدوره القيـادة المركزيـة للحـزب العمـالي الـذي يفـرز بـدوره القائـد الأعلـى للحـزب الشـيوعي العمـالي الـذي يمثّـل قيـادة الأمـة وهـو الـذي لـه الحـق بالشـهادة بـأعمق مسـتواها وأشـد إمسـاكاً بـالأمور حتّـى يصـل إلـى مسـتوى الدكتاتوريـة، والشـيوعية تفتخـر أيضـاً وتقـول أنـا أعتقـد بالدكتاتوريـة العماليـة يعنـي العمـال يجـب أن يكونـوا مسـتبدين ويقصـدون بالعمـال الحـزب الـذي هـو حـزب العمـال ويقصـدون بحـزب العمّـال الحـزب الشـيوعي فقـط ويقصـدون بـالحزب الشـيوعي القيـادة

المركزيــة التــي يتفــرد بهــا القائــد ويمــارس دكتاتوريــة بمســتوى ســحق ملايــين النـاس كلّهـم إلـى القبـور، (سـتالين) وحـده قتـل سـتة ملايـين مـن النـاس، لينـين قتـل أربع ملايين من الناس.

الماركسـية تقـول هـذه دكتاتوريّـة العمّـال وأنّ الحـزب العمـالي لـه الشـهادة على الناس إذن البقية إذا خالفوا ذلك يجب أن يُسحقوا.

نظريّاً يبرّرون هذا الأمر.

طبعاً هم لا يقولون نحن مستبدّون يقولون هذا الأمر له فلسفة، ما هي فلسفته؟

الطلائع الحزبية لحزب العمال هم أكثر تقدّماً وتحضّراً من الآخرين فيجب أن يكون لهم حق السيادة على الآخرين والبقية يجب أن يساقوا ويقتلوا إذا خالفوا.

النظريــة الشــيوعية تقــول الأمّــة تحتــاج إلــى شــاهد والشــاهد هــو الحــزب العمّالي الشيوعي.

الديمقراطيّة تقول الأمّة لا تحتاج إلى شاهد.

النظرية الإسلاميّة:

الإسلام يقول الأمّة تحتاج إلى شاهد وليس هذا الشاهد من مستوى البشر بل شاهد إلهي وتتم العمليّة بشكل متبادل بينه وبين الأمّة، هذا هو الذي سمّاه آية الله العظمى الشهيد السيد محمّد باقر الصدر ﭬ في كتابه (خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء)، الأنبياء هم الشهود على الأمّة والأمة تحتاج إلى شاهد وقائد ومربّي؟

لكـن مـن هـو هـذا المربّـي لـيس مـن مسـتوى هـؤلاء النـاس ذاك هـو الـذي ربّـاه الله «أدبنـي ربـي فأحسـن تـأديبي»[1] مثـل هـذا الإنسـان الإلهـي لـه موقـع الشـهادة ولـيس ذاك الإنسـان القـوي أو الـدكتاتور لـه حـق ذبـح النـاس أو افتـراض القيمومة على الناس.

---

(1) البحار ١٦: ٢١٠.

أكثر الناس طهراً وزكاة ونقاءً ورحمة بالناس هو الذي يكون شاهداً على الناس.

وليس أكثرهم قسوةً وغلظة وشدّة على الناس.

الأمّة تحتاج إلى شاهد ولكن الشاهد يجب أن يكون شاهداً إلهيّاً ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾.(١)

النظريّة الإسلامية تعتقد بموقع الشهادة للأنبياء وبعد الأنبياء الأوصياء وبعد الأوصياء الفقهاء.

الأمّة في كل زمان تحتاج إلى مدير، كما المدرسة تحتاج إلى إدراة وبدون مدير مدرسة لا يمكن أن تنجح المدرسة مهما كانت المدرسة والكليّة والجامعة متطوّرة ومهما كان المعمل متطوّراً ومتقدّماً ومتحضراً لكن لا بدّ من إدارة وقيادة.

الله بمحبته ولطفه أرسل لنا هؤلاء الأنبياء ولهذا فإن القرآن يسمّي عملية بعث الأنبياء بالمن ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.(٢)

هذا هو من منطلق اللّطف والمحبّة وإلاّ فان الله تبارك وتعالى كان يمكن أن لا يبعث أنبياء، وكان ممكن أن يترك البشر كالبهائم، وكان ممكن أن يترك البشر بلا عقول لكن الله بلطفه منّ علينا بالعقل وبالأنبياء وهكذا.

الأئمّة عليهم السلام أيضاً لهم بعد النبي موقع الشهادة.

قصة هشام بن الحكم:

ولهذا في قصّة معروفة ونحن في ذكرى شهادة الإمام الصادق عليه السلام، الإمام الصادق عليه السلام إلتقى به رجلٌ شامي _ والشام يومئذٍ معروفة بعداءها

---

(١) الجمعة: ٢.

(٢) آل عمران: ١٦٤.

لأهـل البيـت وولاءهـا الأمـوي _ هـذا الشـامي دخـل علـى الإمـام قـال أنـا جئـت لأنـاظر أصـحابك _ يومئـذ توجـد مجـالس حـوار وسـجال فكـري يومئـذ كـان هـذا السجال موجوداً بحريّة كبيرة _.

الإمـام التفـت إلـى أحـد تلاميـذه وكـان أصـغرهم غـلام قـد خـط عارضـاه إسمه هشام قال عليه السلام: «ناظر هذا الغلام».

فأقبل إليه الشامي وقال: سلني في إمامة هذا.

هشام بدأ بالسؤال قال له: يا هذا أربك أنظر لخلقه أم خلقه لأنفسهم؟

قال الله: بل ربي أنظر لخلقه.

قال: ففعل لهم بنظره ماذا؟

قـال: أقـام لهـم حجـة ودلـيلاً كـي لا يتشـتتوا أو يختلفـوا، يتـألفهم ويقـيم أودهم ويخبرهم بغرض ربهم.

قال: فمن هو؟

قال: رسول الله صلى الله عليه وآله.

قال هشام: فبعد رسول الله صلى الله عليه وآله؟

قال: الكتاب والسنة.

قال هشام: فهل نفعنا اليوم الكتاب والسنة في رفع الاختلاف عنا؟

قال الشامي: نعم.

قال: فلم اختلفنا أنا وأنت وصرت إلينا من الشام في من لفتنا إياك؟

قال: فسكت الشامي.

فقال أبو عبد الله عليه السلام للشامي: ما لك لا تتكلم؟

قال الشامي: إن قلت: لم نختلف كذبت، وإن قلت: إن الكتاب والسنة يرفعان عنا الاختلاف أبطلت، لأنهما يحتملان الوجوه، وأن قلت: قد اختلفنا وكل واحد منا يدعي الحق فلم ينفعنا إذن الكتاب والسنة إلا أن لي عليه هذه الحجة.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: سله تجده ملياً.

فقال الشامي: يا هذا من أنظر للخلق أربهم أم أنفسهم؟

فقال هشام: ربهم أنظر لهم منهم لأنفسهم.

فقال الشامي: فهل أقام من يجمع لهم كلمتهم ويقيم أودهم ويخبرهم بحقهم من بطالهم؟

قال هشام: في وقت رسول الله صلى الله عليه وآله أو الساعة؟

قال الشامي: في وقت رسول الله صلى الله عليه وآله والساعة من؟

فقال هشام: هذا القاعد الذي تشد إليه الرحال، ويخبرنا بأخبار السماء والأرض، ووراثة أب عن جد.

قال الشامي: فكيف لي أن أعلم ذلك؟

قال هشام: سله عما بدا لك.

قال الشامي: قطعت عذري فعليّ السؤال.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: «يا شامي أخبرك كيف كان سفرك؟ وكيف كان طريقك؟ كان كذا وكذا».

فأقبل الشامي يقول: صدقت، أسلمت لله الساعة.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: «بل آمنت بالله الساعة، ان الإسلام قبل الإيمان وعليه يتوارثون ويتناكحون، والإيمان عليه يثابون».

فقال الشامي: صدقت فأنا الساعة أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً وأنك وصي الأوصياء.[1]

«وشهداء على خلقه» شهداء على خلقه ليس مجرّد موقع سياسي أو موقع فكري.

---

(١) الكافي ١: ١٧٠/ ٤.

الأئمّة يعلمون سرائر الناس:

نحن نعتقد بأنّ الأئمّة الأطهار والأنبياء يعلمون أعمال العباد وسرائر العباد، يعني لديهم علم فوق معلوماتنا العاديّة.

وأنا بهذا الصدد اقرأ لكم روايتين.

رواية تقول عن الإمام الصادق عليه السلام: ما لكم تسوؤون رسول الله؟!

قال رجل: يا بن رسول الله كيف نسوؤه؟

قال: أما تعلمون أنّ أعمالكم تعرض عليه فإذا رأى فيها معصية ساءه ذلك فلا تسوؤا رسول الله وسرّوه.(١)

لاحظوا الأئمّة الأطهار ورسول الله صلى الله عليه وآله كما عندنا في الروايات تعرض عليهم أعمال الخلق وأعمال الشيعة بالخصوص فإن رأوا حسنة فرحوا بذلك.

قصة داود الرقي:

ولهذا هذا شخص اسمه (داود الرقّي) يقول كنت جالساً عند أبي عبد الله فقال لي الإمام مباشرة مبتدأ من عند نفسه يا داود قد عرضت عليّ أعمالكم يوم الخميس فرأيت فيما عرض عليّ من عملك صلتك لابن عمّك فلان فسرّني ذلك أنّ صلتك له _ وذاك كان من المعاندين _ أسرع لفناء عمره وقطع أجله.

قال داود: وكان لي ابن عم معاند ناصبياً خبيثاً بلغني عنه وعن عياله سوء حاله فصككت له نفقة قبل خروجي إلى مكّة للحج فلمّا صرت في المدينة أخبرني الإمام الصادق عليه السلام بذلك.(٢)

---

(١) الكافي ١: ٢١٩/ ٣.

(٢) وسائل الشيعة ١٦: ١١٢/ ٢١١١٦ - ١٥.

الأئمّة يعلمون ويبلغهم عملنا.

في رواية عن إبراهيم يقول: خرجت من عند أبي عبد الله ليلة ممسياً فأتيت منزلي بالمدينة وكانت أمّي معي فوقع بيني وبينها كلام فأغلظت لها، فلمّا ان كان من الغد صليت الغداة وأتيت أبا عبد الله _ الصادق _ عليه السلام فلمّا دخلت عليه قال لي مبتدأ: «يا أبا مهزّم مالك وللوالدة أغلظت في كلامها البارحة أمّا علمت أن بطنها منزل قد سكنته وأنّ حجرها مهدٌ قد غمزته وثديها وعاءٌ قد شربته!؟» قلت: بلى.

قال: «فلا تغلظ لها».(١)

إذن شهادة الأئمّة الأطهار ليس هو مجرّد موقع انتخابي فإن لهم من الله تبارك وتعالى كفاءة عالية، لهم من الله تعالى أهليّة بأعلى مستوى بحيث هم بمستوى العلم بأعمالنا بسرائرنا بأسرارنا ولهذا كانوا يتمتّعون بمثل هذا الموقع.

على كل حال إسلاميّاً نعتقد أنّ الأمّة تحتاج إلى شاهد وهذا الشاهد هو عبارة عن الأنبياء ثمّ الأوصياء ثمّ الفقهاء.

الفقهاء نواب الأئمّة:

الإمام المنتظر عليه السلام يكتب في جواب رسالة عمرو بن حنظلة وهو أحد أصحاب أهل البيت عليهم السلام كتب رسالة للإمام المنتظر يقول سألته عن الحوادث الواقعة ما هو الموقف فيها؟

قال عليه السلام: مكتوباً «أمّا الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا» يعني الفقهاء «فأنهم حجّتي عليكم وأنا حجّة الله».(٢)

هذا امتداد موقع الشهادة يعني الفقيه بالنيابة عن الإمام المعصوم والإمام المعصوم بالنيابة عن الله.

---

(١) بصائر الدرجات: ٢٦٣/ ٣.

(٢) غيبة الطوسي: ٢٩١/ ضمن ح ٢٤٧.

النظرية الديمقراطية:

الديمقراطية تقول عجباً الناس هل هم جهلة أو قصّر لا يعرفون حتّى يكون أحد مشرفاً عليهم وموجّهاً لهم؟

هذه في الحقيقة شبهة لكنها مغالطة لأنّ رجال الديمقراطية الحديثة نفسها التي تقول إنّ الأمم والشعوب لا تحتاج إلى شاهد هم الآن يجعلون أنفسهم شهوداً على العالم.

الآن الغرب يقول إن كل مجتمعات آسيا وأفريقا يجب أن يقلّدوني في الأعمال في الثقافة وهم يفترضون أنفسهم قادة على العالم في الوقت الذي يقولون على مستوى النظرية إن العالم لا يحتاج إلى شاهد لكن الغرب الآن يضع نفسه وبالذات الولايات المتّحدة الأمريكية تضع نفسها بموقع الشاهد على العالم الشاهد ليس فقط ثقافيّاً بل سياسيّاً.

الآن هم يصدّرون للعالم النداء الذي وجّهه رئيس الولايات المتّحدة الأمريكية للشعوب العربية ويطالبهم بالاقتراب من الديمقراطية، هكذا كلام جيّد لكن خلفيته ما هي؟

خلفيته أنّه هناك إنسان يضع نفسه بموضع الشهادة على العالم والاشراف على العالم ويعطيهم التوجيه، فهم يفترضون أنفسهم قيادة العالم.

الغرب يدرك أنّه لابد من شهادة على العالم وهناك صراع الآن بين الشهادة الإسلامية على العالم وبين الشهادة الغربية على العالم يعني نحن ندّعي أنّ الإسلام يجب أن يكون هو الشاهد والغرب يقول الفكر الغربي يجب أن يكون هو الشاهد.

الآن العالم يمارس الشهادة ميدانيّاً يمارس الشهادة الدكتاتوريّة على كل العالم من خلال توزيع العقوبات الاقتصاديّة على كل العالم بما في ذلك أوربا.

فواقع الأمر أنّ أمريكا تمارس عمليّة الشهادة على العالم.

الأمم المتّحدة ما هي؟ هي عبارة عن مراقب جعلته أمريكا في الصف قالت أيّها العالم أنتم صف ابتدائي أنا أجعل عليكم مراقب اسمه الأمم المتّحدة، واقع الأمر إن الأمم المتحدة مؤسّسة خاضعة لتوجيه الولايات المتّحدة الأمريكية.

إذن هناك ممارسة لقانون الشهادة على العالم.

الآن في العالم يوجد شيء اسمه الشرطة الدولية (انترپول) في كل العالم هناك شرطة ليس مرتبطة بالعاصمة وبجهاز الشرطة لتلك الدولة بل مرتبطة عالميّاً بالأمم المتّحدة يعني بأجهزة المخابرات الأمريكية مباشرة، يعتقل من يشاء في كل مكان، ليس فقط في العراق، ممكن العراق الآن تحت الاحتلال، بل في كل العالم يوجد شرطة (انترپول) يدخلون على ذاك الشخص بعنوان عنده جريمة دوليّة أو ما شاكل ذلك ثمّ يأخذونه إلى محاكمهم أيضاً.

هناك محكمة اسمها محكمة (لاهاي) الدولية، يعني محكمة دولية وضعت نفسها بموقع القاضي الأكبر على كل العالم.

هذا ممارسة شهادة على العالم.

الآن العالم يُقاد وفق نظرية الشهادة على العالم غاية الأمر بأغلفة الديمقراطية وبأغلفة الأمم المتّحدة.

هذه نظريات ثلاث في مسألة الشهادة على العالم وهذا كلّه في إطار الحديث عن قوله (وشهداء على خلقه).

وهناك مقطع ثانٍ للبحث نؤجّله إلى أسبوع آخر وهو أن الأمّة الإسلاميّة لها شهادة على العالم أو ليس لها شهادة؟

القـرآن الكـريم يقـول: ﴿وَكَـذلكَ جَعَلْنـاكُمْ أُمَّـةً وَسَـطاً لِتَكُونُـوا شُـهَداءَ عَلَـى النَّاسِ﴾(١) **يعني الأمّة الإسلاميّة شاهدة على الناس نظريّاً.**

شروط ذلك ما هي؟

هـل هـذا الأمـر ممكـن؟ نؤجّـل هـذا الحـديث إلـى أسـبوع لاحـق إن شـاء الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين

* * *

(١) البقرة: ١٤٣.

المحاضرة الرابعة والعشرون:

الصراط

مدلوله وحقيقته

«ومناراً في بلاده، وأدلاّء على صراطه».

حديثنا عن هذا المقطع من الزيارة «وأدلأء على صراطه».

أدلأء: جمع دليل ومعناه العلامة.

الصراط: ومعناه الطريق.

الله تعالى له طريق يوصل إليه، وأهل البيت هم علامات على هذا الطريق.

هذه الزيارة تقول إن الأنبياء بشكل عام وأهل بيت النبي عليهم السلام بشكل خاص هم علامات على طريق الله تعالى. وهذا معنى «وأدلاء على صراطه».

والطريق الذي يسير عليه الإنسان إذا كان في المجال المادي نسميه شارع أو جادة.

لكن قد يكون في قضايا سياسية فنقول عنه منهج سياسي وقد يكون في قضايا تربوية فنقول عنه منهج تربوي وقد يكون في القضايا التعليمية فنقول عنه منهج تعليمي، لاحظوا إذن الطريق هو بمعنى الجادة السلوكية كل سلوك بحسبه مرة سلوك بدني ومرة روحي ومرة علمي ومرة رياضي وهكذا.

الطريق إلى الله:

الطريق إلى الله ليس المقصود به الجادة المادية إلى الله تعالى وإنما جادة السلوك الروحي والسير المعنوي إلى الله تعالى، وهنا فإن الأنبياء عملهم أن يدلوا الناس على الطريق الصحيح، فهناك صراطان:

١ _ صراط مستقيم.

٢ _ صراط منحرف.

﴿إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هذا الصراط المستقيم يؤدي الى الجنة، وهناك

صراط منحرف أي ينزل من الجادة الصحيحة الى الجادة الانحرافية ونتيجته أن يهوي إلى جهنم فالصراط المستقيم هو صراط الله الذي يؤدي إلى الجنّة.

والصراط المنحرف هو صراط الشيطان الذي يؤدي إلى النار.

قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلى وَجْهِهِ أَهْدى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.[1]

فطريق الدين مستقيم وطريق الجنة مستقيم وكل انحراف عن هذا الطريق يعني اعوجاجاً، فلا تتصوروا أن الانحراف هو عبارة عن جادة صحيحة، الطريق الصحيح هو طريق الدين وهو الطريق الذي يريده الله تعالى، أما ما عدا ذلك فهو انحراف واعوجاج. قال تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً﴾.[2]

صراط الدنيا وصراط الآخرة:

عندنا تقسيم آخر للصراط.

التقسيم الأوّل: صراط مستقيم وصراط منحرف.

والتقسيم الثاني: صراط في الدنيا وصراط في الآخرة.

فنحن الآن في الدنيا أيضاً نمشي على صراط وفي الآخرة فإن هذا الصراط الذي نمشي عليه في الدنيا هو نفسه ينكشف لنا بصورة صراط يؤدي إلى الجنة أو يؤدي إلى النار.

يقول الحديث الشريف:

سألت أبا عبد الله الصادق عليه السلام عن الصراط فقال: «هو الطريق إلى معرفة الله عزّ وجلّ وهما صراطان صراط في الدنيا وصراط في الآخرة، أما الصراط

(١) الملك: ٢٢.
(٢) إبراهيم: ٣.

في الدنيا فهو الإمام المفترض الطاعة من عرفه في الدنيا واقتدى بهداه مَرَّ على الصراط الذي هو جسر على جهنم في الآخرة ومن لم يعرفه في الدنيا زلّت قدمه عن الصراط في الآخرة فتردّى في جهنم».[١]

اليوم من يمشي في الدنيا على صراط مستقيم فإنه في الآخرة أيضاً يمشي على صراطٍ مستقيم، ومن ينزلق في الدنيا عن صراط الدين وأئمّة الهدى فإنه أيضاً يوم القيامة ينزلق عن الصراط فيقع في جهنم.

وفي الحقيقة فإن العلماء يقولون إن الآخرة هي عبارة عن باطن الدنيا. أي أن هذه الدنيا لو تنفتح على عمقها وحقيقتها لرأيتَ في داخلها الآخرة وصراط الهدى الذي نسير عليه في الدنيا فإن الوجه الآخر والحقيقي له هو صراط النجاة يوم القيامة. ولهذا فإن الروايات تقول إن الصراط المستقيم في الدنيا هم أهل البيت عليهم السلام[٢] فعموم الأنبياء هم الصراط وعموم الأوصياء هم الصراط، وعموم حملة الحق هم الدليل على الصراط ولهذا فإن الرواية تقول عن الإمام عليه السلام «نحن الصراط المستقيم».[٣]

هناك آية في القرآن جميلة لكن حاول البعض أن يفسّرها تفسيراً غير مقبول وهي قوله تعالى: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾[٤] لا حظوا هذه الجملة ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾[٥] ورغم أن معناه واضح وهو أن هذا الطريق هو صراط يؤدي

---

(١) معاني الأخبار: ٣٢/ ١.

(٢) عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إنك على ولاية عليّ عليه السلام وهو الصراط المستقيم» البحار ٥٣: ٣٦٦/ ضمن ح ٦.

(٣) التفسير الصافي ١: ٨٥.

(٤) الحجر: ٤١ و٤٢.

(٥) الحجر: ٤١.

إلـيّ بنحـو مسـتقيم. إلا أن بعـض المتصـوفة وبعـض الروايـات غيـر المقبولـة عنـد الشـيعة، رغـم انهـا موجـودة فـي التـراث الشـيعي حاولـت أن تقـرأ الآيـة القرآنيـة بهـذا الشـكل: (هـذا صـراطُ عَلـيٍّ مسـتقيم)، لكـن علماءنـا لا يقبلـون هـذه القـراءة، الآية القرآنية تقول: ﴿هذا صراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقيمٌ﴾.

هـذه الآيـة نزلـت فـي الجـدل بـين الله تعـالى وبـين إبلـيس، إبلـيس قـال: ﴿رَبِّ بِما أَغْوَيْتَني لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ في الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعينَ * إِلاّ عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصينَ﴾[1] الله تعـالى أجابـه قـال: ﴿هـذا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقيمٌ * إِنَّ عِبادي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلاّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوينَ﴾،[2] فالآيـة جـاءت فـي الجـدل بـين الله وبـين ابلـيس قبـل أن يهـبط آدم وإبلـيس إلـى الأرض، وقبـل أن يكـون هنـاك جـدل فـي موضوع إمامة الإمام عليّ عليه السلام ولا كانت واقعاً مطروحاً.

عصمة القرآن:

فـي الحقيقـة هـذا الموضـع يجعلنـا ننتقـل الـى مناقشـة موضـوع عصـمة القرآن من التحريف.

نحـن شـيعة أهـل البيـت نعتقـد بـأن القـرآن معصـوم مـن التحريـف بالزيـادة والنقصـان وأيّ تغييـر فـي الـنص، فهـذا القـرآن الـذي بـين أيـدينا لا فيـه نقيصـة ولا زيادة ولا تقديم آية ولا تأخير آية.

علماؤنـا مـن الجيـل الأوّل مـن أيـام الغيبـة الصـغرى والكبـرى كالشـيخ المفيـد والطوسـي والصـدوق الـى العلامـة الحلـي وإلـى مراجعنـا فـي هـذا الزمـان، يقولـون بعصـمة القـرآن مـن التحريـف، بـدليل قولـه تعـالى: ﴿إِنّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنّا لَهُ لَحافِظُونَ﴾[3] وحينئـذ فـإن أي روايـة نجـدها فـي تراثنـا الشـيعي أو السـني تنسـب

(١) الحجر: ٣٩ و٤٠.
(٢) الحجر: ٤١ و٤٢.
(٣) الحجر: ٩.

التحريف للقرآن، فإننا نعتبرها مردودة وغير مقبولة، وهذا مذهب أهل البيت عليهم السلام، ولهذا فإن قراءة (هذا صراطُ عليّ مستقيم) نعتبرها قراءة غير صحيحة فهي لم تأتِ عن أهل البيت عليهم السلام ولا جاءت عن طريق روايات صحيحة معتبرة، القراءات الصحيحة هي ﴿هذا صراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾[1] رغم أن الصراط في قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[2] معناه صراط الأئمّة كما جاء في الروايات لكن هذا من باب المَصداق والتطبيق.

روايات جميلة عن الصراط:

١ _ «الصراط هو جسر ممدود على جهنم»[3] قد يكون هذا من باب الاشارة إلى معنى المعبَر فليس بالضرورة أن يكون جسراً من خشب أو ما شاكل ذلك، قد يكون عبارة عن ممر مادي، أو يكون عبارة عن امتحانات وأسئلة ثمّ تقول الرواية: «أدق من الشعرة وأحد من السيف».[4]

٢ _ رواية ثانية عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «أثبتكم قَدَماً على الصراط أشدُّكم حباً لأهل بيتي».[5]

٣ _ رواية ثالثة تقول عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا عليّ ما ثبَتَ حبُّك في قلب امرءٍ مؤمنٍ فزلّت به قدمٌ على الصراط إلا ثَبَتت له قدمٌ حتّى يدخله الله بحبك الجنّة».[6]

٤ _ ورواية رابعة عن ابن عبّاس وهو ابن عم النبي وهو محترم عند

---

(١) الحجر: ٤١.

(٢) الفاتحة: ٦.

(٣) الميزان في تفسير القرآن ٨: ١٢٧.

(٤) البحار ٨: ٦٥.

(٥) البحار ٨: ٦٩/ ١٦.

(٦) أمالي الصدوق: ٦٧٩.

الشيعة والسنة يقول: «إن على جسر جهنم سبع محابس _ أي سبع نقاط سيطرة _ يُسئل العبد عند أوّلها عن شهادة أن لا إله إلاّ الله فإن جاء بها تامة جاز إلى الثاني فيسأل عن الصلاة فإن جاء بها تامة جاز إلى الثالث فيسأل عن الزكاة فإن جاء بها تامة جاز إلى الرابع فيسأل عن الصوم، فإن جاء بها تاماً جاز إلى الخامس فيسأل عن الحج فإن جاء بها تاماً جاز إلى السادس فيسأل عن العمرة فإن جاء بها تامة جاز إلى السابع فيسأل عن المظالم _ أي حقوق الناس _ فإن خرج منها وإلاّ يقال: انظروا فإن كان له تطوّع _ أي أعمال مستحبة _ أكمل به أعماله فإذا فرغ انتقل إلى الجنّة».[1]

٥ _ رواية خامسة سئل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾[2] قال: «أخبرني الروح الأمين جبرئيل أن الله لا إله غيره إذا برز الخلائق وجمع الأولين والآخرين أتى بجهنّم تقاد بألف زمام بكل زمام مائة ألف يقوده من الغلاظ الشداد، ولها هدة وغضب وزفير وشهيق وانها لترفر زفرة لولا ان الله أخرهم للحساب لأهلكت الجميع ثمّ يخرج منها عنق يحيط بالخلائق يوم القيامة البر منهم والفاجر فما خلق الله ﷻ عبداً من عباده ملكاً ولا نبياً الا وينادي ربي نفسي نفسي وأنت يا نبي الله تنادي أمتي أمتي، ثمّ يوضع عليها الصراط الذي هو أدق من الشعرة وأحد من السيف عليه ثلاث قناطر. فأما واحدة فعليها الأمانة والرحم والثانية فعليها الصلاة والثالثة فعليها رب العالمين لا إله غيره، فيكلفون الممر عليها فيحبسهم الرحم والأمانة، فإن نجو منها حبستهم الصلاة، فإن نجو منها كان المنتهى إلى رب العالمين وهو قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[3] والناس على الصراط فمتعلق بيدٍ

(١) البحار ٨: ٦٤.
(٢) الفجر: ٢٣.
(٣) الفجر: ١٤.

وتزول له قدم ويستمسك بقدم والملائكة حولها ينادون يا حليم اعف واصفح وَعُد بفضلك وسلّم سلّم والناس يتهافتون في النار كالفراش فإذا نجى ناج منها التفت فقال: الحمد لله وبنعمته تقم الصالحات وتزكو الحسنات والحمد لله الذي نجاني منك بعد إياس بمنه وفضله إن ربنا لغفور شكور».[1]

الناس يوم القيامة يعبرون على الصراط على أشكال، أقرأ لكم هذه الرواية.

٦ ـ الرواية السادسة عن الصادق عليه السلام: «الناس يمرون على الصراط على طبقات فمنهم كالبرق من يمر مثل عدو الفرس ومنهم من يمر حبواً ومنهم من يَمُر مشياً ومنهم من يَمُر متعلقاً قد تأخذ النار منه شيئاً وتترك شيئاً»[2] هذه صور الناس عندما تمر على الصراط.

٧ ـ الرواية السابعة عن رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «يا عليّ إذا كان يوم القيامة اقعد أنا وأنت وجبرائيل على الصراط فلا يجوز على الصراط إلا من كانت معه براءة بولايتك».[3]

الشيعة على الصراط:

أما رسول الله وأهل البيت وشيعة أهل البيت فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله أتاني جبرائيل فقال: أبشّرك يا محمّد بما تجوزعلى الصراط؟

قلت: بلى.

قال: تجوز بنور الله، ويجوز عليّ بنورك ونورك من نور الله وتجوز أمتك بنور عليّ ونور عليّ من نورك ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور.[4]

---

(١) التفسير الاصفى ٢: ١٤٤٢.

(٢) أمالي الصدوق: ٢٤٢/ ٢٥٧ - ٥.

(٣) اعتقادات المفيد: ٧٠.

(٤) بحار الأنوار ٧: ٣٣٢/ ١٥.

وعـن الإمـام علـي عليه السلام يقـول: «فـلا أزال واقفـاً علـى الصـراط أقـول رب سلّم شيعتي ومحبي وأنصاري ومن تولاني في دار الدنيا».(١)

الرحم والأمانة:

روايـة أخيـرة ذات دلالـة عظيمـة تقـول: إن صـراط جهـنم لـه حافتـان همـا عبـارة عـن الـرحم والأمانـة، ومعنـى ذلـك ان مـن لا يصـل رحمـه ولا يحـافظ علـى الأمانـة فإنـه سـيقع فـي جهـنم. الإسـلام كـم هـو عظـيم؟ الإسـلام يعنـي الأخـلاق وصـلة الـرحم وأداء الأمانـة والمحبـة، هـذا هـو الإسـلام وهـذه هـي ثقافـة أهـل البيت، وهذه هي أخلاق شيعتهم.

قـال أبـو ذر رضي الله عنه: سـمعت رسـول الله يقـول: «حافتـا الصـراط يـوم القيامـة الـرحم والأمانـة فـإذا مـر الوصـول المـؤدي للأمانـة نفـذ إلـى الجنـة، وإذا مـر الخـائن للأمانة القطوع للرحم لم ينفعه معهما ما عمل وتكفأ به الصراط في النار».(٢)

نظرية ابن عربي:

النبـي هـود علـى نبينـا وآلـه وعليـه الصـلاة والسـلام، لـه كلمـة خلّـدها القـرآن الكـريم وهـو الابـن الثالـث لنـوح أو الابـن السـابع أي انـه قريـب مـن نـوح علـى نبينـا وآله وعليه الصلاة والسلام.

القرآن الكريم يستعرض قوله: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ما مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(٣) ما من دابة: أي كل مخلوق من الإنسان وحتّى النملة فإن الله تعالى آخذ بمقدم شعر رأسه وهو كناية عن التصرف التام به.

---

(١) الخصال: ٤٠٨.
(٢) الكافي ٢: ١٥٢/ ١١.
(٣) هود: ٥٦.

وهنا جاء ابن عربي وهو فيلسوف متصوف وله تعمق خاص في القرآن الكريم وله ادعاءات عريضة وبعض ادعاءاته صحيحة وبعضها غير صحيحة. ونحن الآن لا نريد أن نقيّمه، ابن عربي يقول في هذه الآية التفاتة نادرة وهي أن كل الخلق على صراط مستقيم بدليل هذه الآية وهذا ما كشفه هود، حين قال: ﴿ما مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها﴾[1] فالله تعالى آخذ بناصيتنا كلنا، وحيث ان الله تعالى على صراط مستقيم إذن كلنا على صراط مستقيم لأننا نمشي معه، والنتيجة أن كل الخلق على صراط مستقيم، إذن المؤمن على صراط مستقيم والكافر أيضاً على صراط مستقيم، وإذا كان كلاهما على صراط مستقيم، وكل من يمشي على صراط مستقيم فهو مرضي عند الله تعالى فالذي يمشي على صراط مستقيم فإن الله تعالى لا يغضب عليه ولا يُضلّه بدليل قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾[2] وإذا كان الله تعالى راضياً عن كل الخلق إذن فإن من يرزقه الله الرضا يكون سعيداً بدليل قوله: ﴿يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[3] إذن يكون كل الخلق سعداء ومرضيين وفي جنة الخلد يوم القيامة.

هذه التفاتة ابن عربي التي يحاول أن يكتشف فيها شيئاً من عمق الآية القرآنية، لكن القرآن مليء بالدلالة على انحراف الكافرين عن الصراط مثل قوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّراطِ لَناكِبُونَ﴾[4] إذن لا يمكن القول ان كل الخلق يمشون على صراط مستقيم فلا الايات القرآنية تقبل هذا المعنى ولا الروايات الثابتة الصحيحة تقبل هذا المعنى.

---

(١) هود: ٥٦.
(٢) الفاتحة: ٦ و٧.
(٣) الفجر: ٢٧ - ٣٠.
(٤) المؤمنون: ٧٤.

على كل حال فإن هود الذي هو الابن الثالث أو السابع لنوح بُعث لقوم عاد، وعاد كانوا في الأحقاف، والآن منطقة الأحقاف هي عبارة عن أطراف الربع الخالي من الجزيرة العربية.

قصة هود:

يقول القرآن الكريم لما بعث الله تعالى هوداً إلى قوم عاد، ويبدو انهم كانوا أصحاب حضارة ومدنية حيث أن القرآن يصفهم قائلاً: ﴿وَأَتْرَفْناهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا﴾[1] **قال لهم نبيهم:** ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾[2] **فهم يبنون البناء الرائع وبنفس الوقت عندهم سطوة وبطش، وكذلك يصفهم القرآن** ﴿وَزادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾،[3] **البعض يفسره انهم كانوا طوالاً، لكن لا يوجد دليل على هذا المعنى على كل حال فإن القرآن الكريم يشرح لنا قصة هؤلاء، وكيف أن الله أنزل عليهم العذاب.**

اسمعوا الجدل بينهم وبين نبيهم هود ﴿وَإِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَ فَلا تَتَّقُونَ﴾.[4]

﴿قالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَراكَ فِي سَفاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكاذِبِينَ﴾.[5]

﴿قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفاهَةٌ وَلكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ ناصِحٌ أَمِينٌ * أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا

---

(١) المؤمنون: ٣٣.

(٢) الشعراء: ١٢٨ - ١٣٠.

(٣) الأعراف: ٦٩.

(٤) الأعراف: ٦٥.

(٥) الأعراف: ٦٦.

آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * قالُوا أَجِئْتَنا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ ما كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجادِلُونَنِي فِي أَسْماءٍ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما نَزَّلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ * فَأَنْجَيْناهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنا دابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا﴾.(١)

كان عذاب هؤلاء أن الله تعالى قطع عنهم المطر مدة ثم جاءتهم سحب ففرحوا بها ﴿قالُوا هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا﴾(٢) **قال نبيهم:** ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ﴾(٣) **هذه إذا مرت على إنسان من داخله يذوب ويتجوف** ﴿تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾(٤) **أي الجذع الأجوف** ﴿وَأَمَّا عادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ * سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرى لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ﴾.(٥)

هذا الحديث كان عن هذا المقطع ﴿إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(٦) **والصراط المستقيم هم أهل بيت النبوة، ولهذا نقرأ في الزيارة الجامعة «وأدلاء على صراطه» أهل البيت هم الأدلاء على صراطه، وهكذا نقرأ في دعاء الندبة في مدح أمير المؤمنين بأنه «صراطه المستقيم».**

«وكان بعده هدى من الضلال، ونوراً من العمى، وصراطه المستقيم، لا يسبق بقرابة في رحم ولا بسابقة في دين يحذو حذوا الرسول ويقاتل على التأويل ولا تأخذه في الله لومة لائم».

والحمد لله رب العالمين

---

(١) الأعراف: ٦٧ - ٧٢.
(٢) الأحقاف: ٢٤.
(٣) السابق.
(٤) القمر: ٢٠.
(٥) الحاقة: ٦ - ٨.
(٦) هود: ٥٦.

المحاضرة الخامسة والعشرون:

العصمة

معناها، دليلها، مساحاتها، مناقشات قرآنية

«عصمكم الله من الزلل وآمنكم من الفتن وطهَّركم من الدَّنَس وأذهب عنكم الرجس».

حديثنا هذه الليلة عن هذا المقطع من الزيارة «عصمكم الله من الزلل وآمنكم من الفتن وطهَّركم من الدَنَس وأذهب عنكم الرجس» وفي هذا المقطع لدينا مجموعة بحوث:

البحث الأوّل: معنى العصمة:

ما معنى عصمكم الله من الزلل؟

إن المعنى الاجمالي للعبارة أن أهل البيت معصومون من الزلل.

الزلل: بمعنى الانحراف والخطأ.

والعصمة ما تعني؟

العصمة: هي اصطلاح ديني مهم يشير اليه القرآن الكريم.

ونحن نعتقد بعصمة الأنبياء جميعاً وأهل بيت النبوة عليهم السلام.

العصمة لغوياً: بمعنى المنع والامتناع.

﴿قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾[1] **هذا ابن نوح عندما حدث الطوفان قال لأبيه:** ﴿سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ **أي يمنعني من الماء.**

قال له نوح: ﴿لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلا مَنْ رَحِمَ﴾.

القرآن الكريم يستخدم هذا المفهوم بهذا المعنى الواضح البسيط في كثير من الآيات مثلاً ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا﴾[2] **يعني امتنعوا من الغرق والزلل والتزموا بحبل الله.**

---

(١) هود: ٤٣.

(٢) آل عمران: ١٠٣.

وفـي موضـع آخـر يقـول: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[١] أي ذاك الإنسـان الـذي يريـد أن يمشـي علـى الصـراط المسـتقيم فـي الدنيا أو في الآخرة فإن المطلوب منه أن يعتصم بحبل الله.

وفـي قصـة يوسـف وزليخـا جـاء هـذا المعنـى أيضـاً حينمـا راودت زليخـا يوسـف عـن نفسـه ولا حقتـه ﴿وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾[٢] هـي تقـول عنـه: ﴿فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ﴾[٣] فهـو يـدري أن نتيجتـه السـجن لكنـه استعصـم وامتنـع، إذن فـالمعنى اللغـوي والقرآنـي للعصـمة هـو التمسـك بشـيء يعصمه من الزلل والغرق.

إذن المصطلح القرآني عن العصمة هو نفس المصطلح اللغوي.

العصمة في المفهوم العقائدي:

ننتقـل إلـى المصـطلح العقائـدي. فـنحن الآن فـي عقيـدتنا أن الأنبيـاء والأئمّة عليهم السلام معصومون وهذا النص في الزيارة الجامعة يؤكد هذا الأمر.

العصـمة بـالمفهوم العقائـدي هـي نفـس العصـمة بـالمفهوم اللغـوي بمعنـى الامتناع، لكن امتناع عن أي شيء؟ هذا ما سنبحثه في البحث الثاني.

البحث الثاني: مساحات العصمة:

إن عصمة الأنبياء وعصمة الأئمّة تمتد إلى أربع مساحات:

المساحة الأولى: هي مساحة أداء الشريعة.

والعصمة في هذه المساحة تعني إعطاء المفاهيم والتشريعات الواردة عن الله تعالى بدون أي خَلَل. فالأنبياء والأئمّة معصومون لا يخطئون في هذه المهمة الرساليّة.

---

(١) آل عمران: ١١١.

(٢) يوسف: ٢٣.

(٣) يوسف: ٣٢.

يعني أن الأنبياء والأئمّة لا يقدمون الرسالة الدينية خطأ أو يشتبهون في بعض المفاهيم التي يطرحونها. وكل ما يصدر من النبي ومن الأئمّة في هذا المجال هو صحيح.

المساحة الثانية: هي مساحة السلوك الديني.

يعني أن الأنبياء والأئمّة عليهم السلام في سلوكهم لا يعصون الله تعالى لا عمداً ولا سهواً فهم معصومون في دائرة السلوك الديني يعني في المعاملات الدينية من الحلال والحرام حيث لا يقعون في خطأ.

المساحة الثالثة: هي مساحة السلوك الشخصي.

هذا الموضوع لا يتصل بالحرام أو الحلال لأن الإمام إذا سها أو غير ذلك لا يعتبر قد ارتكب حراماً لكن يعتبر هذا غفلة كما تكون هذه الغفلة في باقي البشر يقول تعالى: ﴿وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾.[1] فالغفلة والنسيان هي من فعل الشيطان فهل يجوز ذلك في حق الأنبياء والأئمّة؟

المساحة الرابعة: هي مساحة الاجتهادات السياسية والاجتماعية.

هل يمكن أن يخطأ النبي أو الإمام في تحديد الموقف الصحيح اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً، أو لا يمكن أن يخطأ؟ هذا نسميه دائرة الاجتهادات، الامام الحسن عليه السلام صالح، أمّا الإمام الحسين فقد ثار، الإمام عليّ عليه السلام أوّل ما استلم الحكم عزل معاوية في الوقت الذي كانت عدة اجتهادات أخرى، مثلاً ابن عباس كان يقول للإمام علي لو تدع معاوية حتّى يقوى حكمُك ثمّ تعزله، بينما الإمام كانت نظريته أن يعزل معاوية فوراً، هذا موقف سياسي.

فهل الأئمّة والأنبياء في الموقف السياسي أيضاً معصومون أولاً؟

---

(١) الكهف: ٦٣.

فمثلاً إن النبي ﷺ هاجر الى الطائف لكن تجربته في الطائف لم تنجح، هل يمكن أن يقول قائل إن موقف النبي وتخطيطه للهجرة كان خطأ؟

هذا يقع ضمن دائرة المواقف والاجتهادات السياسية.

نظرية الشيعة في العصمة:

شيعة أهل البيت يعتقدون أن العصمة في المساحة الأولى والثانية ضرورية لابد منها، والعصمة في المساحة الثالثة والرابعة هي حالة كمالية قد لا يرى بعض العلماء ضرورتها في النبي أو الإمام.

العصمة في المساحة الأولى وهي دائرة إبلاغ الرسالة والعصمة في المساحة الثانية وهي دائرة السلوك الديني، هنا النبي والامام معصوم ولا يمكن أن يخطأ، وهذا معناه أن النبي لا يمكن أن يخطأ في نقل القرآن لنا، فنحن نقول إنه أوصل هذه الرسالة كما هي عند الله مئة بالمئة وأي نقص لا يوجد بها، والأئمة أيضاً شرحوا القرآن الكريم وأوصلوا لنا الحلال والحرام بدون أي خطأ.

أما في المساحة الثالثة والرابعة فالمسألة هي مسألة كمالية، وعلماؤنا يعتقدون بأن النبي والأئمّة معصومون أيضاً في السلوك السياسي والشخصي، هذا رأي كثير من علمائنا، لكن سوف نذكر بعض المناقشات التي عادةً تُذكر في الأبحاث، كيف نفسّر الآيات القرآنية التي تشير إلى وقوع الخطأ من النبي؟

البحث الثالث: الدليل على العصمة:

ما هو الدليل على أن الأئمّة والأنبياء معصومون في مساحة إبلاغ الرسالة وفي مساحة السلوك الديني؟

الجواب: هناك مجموعة أدلة.

الدليل الأوّل: الدليل العقلي:

علماؤنا يقولون عقلياً إذا أردنا أن نحسب المسألة يقال هذا نبي من الله تعالى مبعوث حتى يوصل اليكم رسالته وكلماته، فإذا كان هذا النبي من المحتمل أن يخطأ في إيصال الرسالة، فحينئذ لا يمكن أن نعتمده ونثق بما جاء به.

لا توجد شخصيّة أكبر من النبي حتّى نراجعه فالنبي هو القمة، فإذا كان النبي محتملاً أن يوصل إلينا الرسالة خطأ إذن لا يمكن اعتماد هذا النبي، ومن ناحية أخرى فإن الله تبارك وتعالى قدّم الأنبياء والأئمّة كنموذج للإنسان الكامل. فالقرآن الكريم عندما يقول: ﴿لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[1] **نظرية الأسوة تعني أن هذا هو النموذج الإلهي وفرضية النموذج والأسوة تتنافى مع صدور الخطأ. فهل يمكن أن يكون به خطأ؟**

الدليل الثاني: الدليل القرآني:

من أهم الآيات التي يستدل بها العلماء على العصمة هي قوله تعالى في قصة إبراهيم: ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ **فالقصة تقول: إن الله تعالى امتحن إبراهيم فلما نجح في الامتحان قال الله تعالى:** ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾[2] **إبراهيم عندما فرح بهذا النجاح قال:** ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ **قال:** ﴿لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾**. فالنبوة والإمامة هي عهد من الله تعالى.**

هذه هي المقدمة الأولى في الاستدلال، والمقدمة الثانية نحن نعتقد أن كل من يصدر منه معصية فهو ظالم لنفسه مثلاً إنسان ترك الصلاة عمداً فهو بالمعنى الشرعي ظالم والذي عصى ربه فقد ظلم نفسه. ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾[3] **كل**

---

(١) الأحزاب: ٢١.

(٢) البقرة: ١٢٤.

(٣) الطلاق: ١.

مذنب هو ظالم والقرآن يقول ﴿لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ ولما كانت النبوة والإمامة عهد الله تعالى إذن لا ينالها إلا المعصوم الذي لا يظلم نفسه.

والآية الثانية التي يستدل بها على العصمة قوله تعالى: ﴿وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحى﴾[1] فهذه الآية صريحة في أن النبي ﷺ لا ينطق عن أهواءه الشخصية فكل ما يجري على لسان النبي هو وحي من الله تبارك وتعالى أي أن إرادة النبي متطابقة مع إرادة الله تعالى، وفي هذا السياق أيضاً في الدلالة على العصمة النصوص القرآنية التي تؤكد التقارن بين طاعة الله تعالى وطاعة الرسول، فهذا معناه أنه لا يمكن في يوم من الأيام أن يفترق النبي عن الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ﴾[2] ثم يقول: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾[3] هذا التقارن في الطاعة والمعصية بين النبي وبين الله تبارك وتعالى يعني أن هناك توافق دائمي في الأداء.

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[4] حيث يستدل بها علماء الشيعة على عصمة الأئمّة.

الدليل الثالث: دليل السنّة:

هناك الكثير من الروايات تدل على عصمة أهل البيت عليهم السلام والأنبياء.

مثلاً ما ثبت عن رسول الله ﷺ قوله: «عليّ مع الحقّ والحقّ مع عليّ يدور معه حيثما دار»[5] فهذه العبارة لا تحتاج إلى استدلال فلسفي، بل هي

---

(١) النجم: ٣ و٤.
(٢) النساء: ١٣.
(٣) النساء: ١٤.
(٤) الأحزاب: ٢٢.
(٥) مناقب الكوفي ٢: ٥٣٠.

واضحة في أن كل ما يصدر من الإمام عليّ هو حقّ، وهذه الرواية إجماعية متفق عليها.

وهكذا حديث الثقلين وهو قول رسول الله ﷺ: «إني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض»(١) وهو واضح في أن أهل البيت عليهم السلام لا يفترقون عن القرآن الكريم وهذا دليل على ترابط وتلازم ومماشاة طول العمر بين أهل البيت والقرآن الكريم.

وكذلك حديث السفينة وهو قوله ﷺ: «مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلّف عنها غرق»(٢) فاذا كان هناك خلل وعطل في هذه السفينة فسوف لا تتحقق النجاة، فلو كان أهل البيت عندهم معاصي وأخطاء تصدر منهم في إبلاغ الرسالة، إذن لا يصح قول النبي ﷺ: «من ركبها نجا» فلا بدّ أن يكون الأئمّة معصومين حتّى يكونوا مثل سفينة نوح.

البحث الرابع: مناقشات قرآنية:

قد يقول قائل إن عدداً من الآيات القرآنية تشير إلى صدور عدة مخالفات من الأنبياء فكيف يجتمع ذلك مع العصمة؟

من جملة تلك الآيات قوله تعالى في قصة آدم: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى﴾(٣) وفي آية أخرى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾(٤) فهذه مخالفة يشهد لها ظاهر القرآن الكريم لأمر الله تعالى فإن الله تعالى قد نهى آدم وحواء عن الأكل من الشجرة فوسوس لهما الشيطان ﴿فَلَمَّا ذاقَا

---

(١) أمالي الصدوق: ٦١٦/ ٨٤٣ - ١.

(٢) خاتمة المستدرك ١: ٣٥٦.

(٣) طه: ١٢١.

(٤) طه: ١١٥.

الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَطَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾[1] **فالقصة تقول إن الله تعالى عندما خلق آدم وحواء في الجنة أوحى لهما أن لا تأكلا من هذه الشجرة، وهنا جاء الشيطان ووسوس لهما** ﴿وَقاسَمَهُما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النّاصِحِينَ﴾[2] و﴿قالَ يا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلى﴾[3] **وبمجرد أن أكلا منها انكشفت لهما الحقيقة في واقع الإنسان وتركّبه من أمور مادية ومعنوية** ﴿فَبَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما﴾[4] **أي رأوا بَدنهم عارياً ولهذا أسرع آدم وحواء يجمعون من ورق الشجر يستترون به.**

لاحظوا قبل هذا لم يكونوا يرون كل الحقيقة، إذن هنا يوجد لغز لا بدّ من حلّه فليست القضية أنهم ارتكبوا معصية، فكيف تحولت هذه المعصية إلى خير وبركة بحيث أصبح عندهم نور وإدراك بصري يرون به واقعهم على حقيقته، هذا الأمر يجعلنا نصل إلى نظرية جديدة لم يطرحها العلماء.

دفاعات عن آدم:

فالعلماء حاولوا أن يفسروا هذا الأمر ويدافعوا عن آدم بعدة دفاعات:

الدفاع الأوّل: إن هذه القصة لا تتحدث عن آدم حينما كان نبياً بل تتحدث عنه قبل أن يكون نبياً، كان في الجنة ولم تكن توجد هناك نبوّة أو رسالة وحينئذ فمن الممكن أن يرتكب معصيةً.

الدفاع الثاني: إن آدم لم يرتكب معصية شرعيةً وإنما ارتكب مخالفة للنهي الارشادي، فالله تعالى قال لآدم وحواء: لا تأكلا من هذه الشجرة فإذا

(١) الأعراف: ٢٢.
(٢) الأعراف: ٢١.
(٣) طه: ١٢٠.
(٤) طه: ١٢١.

أكلتما فنتيجتكم أن تنزلوا إلى الدنيا ولم يكن ذلك نهياً تحريمياً وإنما كان نهياً تحذيرياً ومن باب النصح.

الدفاع الثالث: لكن يوجد تفسير آخر نقدمه لكم وهو يحتاج إلى تقريب وجهة النظر وظرافة في البيان والتعبير.

يوجد شيء يُسمى مصلٌ وقائي أي لقاح مناعة يحتاج إليه كل أحد حتّى لا يصيبه مرض، فآدم كان في الجنة بنوع آخر من الحياة، مثل الجنين في بطن الأم. لا توجد فيها هذه الأوبئة الموجودة في الدنيا والانحرافات الماديّة الشيطانيّة.

الله تعالى خلق آدم لينزله إلى الأرض فهو بالأصل مخلوق للدنيا وليس للسماء، الله تعالى يريد أن ينزل آدم إلى الأرض ولذا فهو يحتاج إلى لقاح، وهذا اللقاح سوف يمرّضه عدة أيام لكنه فيما بعد ذلك سوف يعطيه مناعة، وهذا اللقاح هو عبارة عن الأكل من هذه الشجرة الذي كان ضرورياً للهبوط إلى الدنيا، ولذا بمجرد أن أكلا تولدت عندهم حالة المناعة ورغم أنهم في الحقيقة تمرضوا بهذا العمل، وبدت لهما السوآت والعورات. ولهذا فإن القرآن يعتبرها مرضاً ومعصيةً وغوىً، ولكن هذا المرض هو سبب العافية فيما بعد ولذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾[1] فيما بعد عندما أصبحت عنده هذه المناعة تقبله الله تعالى وجعله نبياً وخليفةً في الأرض.

فآدم قبل أن يجتبيه الله تعالى هو غير آدم بعد أن اجتباه، ولذا فهو عندما نزل إلى الدنيا لم يغلط ولم يقم بمعصية.

مناسبة دحو الأرض:

في هذه الليلة[2] توجد مناسبة كونية عظيمة تسمى دحو الأرض، أي

---

(١) طه: ١٢٢.

(2) وهي ليلة ٢٥ ذو القعدة.

في مثل يوم غدٍ ٢٥ ذي القعدة حيث أن الله تبارك وتعالى _ على ما تقول الروايات _ دحى الكرة الأرضية وجعلها بهذا الشكل الذي عليه الآن.

أهم النظريات في تكوين الكرة الأرضية نظريتان:

النظرية الأولى: الانفصال الشمسي.

النظرية الثانية: التكتل الغباري.

نظرية الانفصال الشمسي تعني أن هذه الكرة الأرضية كانت جزءاً من الشمس ونتيجة حركة الشمس ودورانها على نفسها السريع تطاير من الشمس مجموعة كتل صخرية عملاقة كان من جملتها الأرض ومن جملتها الكواكب السيارة التي تدور حول الشمس.

أمّا نظرية التكتل الغباري فهي أن الكرة الأرضية كما هي الكواكب السيارة الأخرى هي عبارة عن غبار هيدروجيني ضخم، هذا الغبار وفي ظروف معينة مناخية تكوّن وتكتَّل وأصبح عبارة عن تراب وحجر وما شاكل ذلك.

أحاديث أهل البيت عليهم السلام تقول: إن قبل آدم كان ألف ألف آدم،[1] الفاصل بين آدم وبيننا في أقصى حالاتها لا تصل إلى عشرة آلاف سنة،[2] بينما وصل العلماء في تاريخ تكوّن الأرض سواءاً بالنظرية الأولى أو النظرية الثانية يمتد إلى مئة وخمسين مليون سنة، ولهذا فإن روايات أهل البيت عليهم السلام تقول: إن قبل آدمكم هذا يوجد ألف ألف آدم على هذه الأرض.

وبعض علماء الجيولوجيا يرجع بتاريخ نشوء الأرض إلى خمسين مليون سنة.

---

(1) البحار ٢٥: ٢٥.

(2) علماؤنا يقدرون الفاصلة الزمنية بـ ستة إلى سبعة آلاف سنة، أنظر الميزان للعلامة الطباطبائي وكذلك المراقبات للميرزا جواد الطباطبائي.

نشوء الحياة:

كيف نزلت الحياة إلى الأرض؟ يوجد عدة نظريات بعضها تقول: إن الحياة انبثقت من نفس الأرض ونظريات أخرى تقول: إنها نزلت من عالم السماء فهي تشابه نزول آدم من الجنة، الآن توجد نظرية مفترضة لدى العلماء وهي أن الحياة لم تكن وليدة هذه الأرض وإنما أتت من الفضاء ولهذا فهم يبحثون عن بعض النيازك والشهب ليروا فيها آثار حياة.

أود أن أذكر لكم أشياء عجيبة ومذهلة حيث أن القرآن الكريم يقول: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[1] **يعني هذه السماء والفضاء الكوني يمتد ويتوسع هذه نظرية يشير إليها القرآن قبل ألف وأربعمائة عام، ثمّ ان القرآن يذكر نظرية ثانية وهي نظرية** ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾[2] **فالسماء فُرشت وما تزال في اتساع ثمّ يقول القرآن:** ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ...﴾ **أي أنها تطوى مثل طي السجل، هذا الشيء الذي يذكره القرآن بقوله في نظرية العود إلى الله** ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾[3] **يسميه الفلاسفة قوس النزول وقوس الصعود، أي ان البشر جاء عبر ملايين السنين من الله تبارك وتعالى عبر قوس النزول، وسوف يرجع إلى الله تعالى** ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[4] **عبر قوس الصعود، هذا الأمر علماء الفلك يحاولون أن يؤكدوه.**

نظرية الامتداد والانكماش:

فالعلماء الآن يقولون إن هذا الكون يتمدد ويتّسع خلال ٦٦ ألف مليون

---

(١) الذاريات: ٤٧.

(٢) الأنبياء: ١٠٤.

(٣) الأعراف: ٢٩.

(٤) البقرة: ١٥٦.

سنة ضوئية في عملية (الامتداد) ثمّ يبدأ ينكمش بعد هذا الامتداد في ١٣٢ ألف سنة ضوئية، هذه هي نظرية (الامتداد والانكماش) وهي شبيهة بما يذكره القرآن الكريم بقوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾.(١)

والسنة الضوئية هي عبارة عن عشرة مليون مليون كيلومتر. وامتداد الكون وتوسعه في ٦٦ ألف مليون سنة ضوئية، هذا هو الذي يسمى الفضاء الكوني المرصود، لكن هذا لا قيمة له بالحسابات العلمية، لأنه إذا تطور العلم وتجاوز الإنسان حالة الرصد المادي بحيث يصل إلى حالة رصد الأنبياء حيث يكتشف أن هذا الكون لا نهاية له، إننا نحتاج إلى وحدات قياس فوق السنوات الضوئية، إن حدود الكون المرصود فعلاً هو ٢٠ ألف مليون سنة ضوئية.

إن الكون المرصود يشتمل من المجرات التي نشاهدها عبر التلسكوبات، هو مليون مليون مجرة في الفضاء.

الحياة لم تكن موجودة في هذا الكون حيث وجدت الحياة الحيوانية على الأرض في مثل الديناصورات وغيرها منذ خمسين مليون سنة أو أكثر، أما الحياة الآدمية فهي أكثر حداثة حيث أن آدمنا وهو آخر آدم على الأرض وهو لا يبعد بأكثر من عشرة آلاف سنة في أقصى التقادير.

معصية يونُس:

إن الآية التي تقول: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى﴾(٢) هناك أكثر من تفسير وتأويل للتخلص من فكرة ان آدم قام بمعصية. فنحن نؤمن بنظرية العصمة، لكن القرآن يشير إلى مخالفات عديدة قام بها الأنبياء من جملتها ما جاء في

---

(١) الأعراف: ٢٩.

(٢) طه: ١٢١.

قصة يونس عليه السلام **المعروفة** ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾(١) **إن خلاصة قصة يونس أنه دعا قومه فلم يستجيبوا له فدعا عليهم فلما أوشك العذاب انسحب يونس عن قومه فابتلعه الحوت، التفسير المعقول يقول إن الله تعالى عاقبه لماذا تركت قومك؟ ولماذا دعوتَ عليهم؟ كان المفروض أن لا تدعو عليهم؟ البقاء أولى من الفناء، والصبر عليهم أولى من الدعاء عليهم، حيث يوجد اثنان من الأنبياء دعوا على قومهما، أوّلهما نوح حيث دعا قائلاً:** ﴿رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً﴾(٢) **والنبي الآخر هو يونس.**

إن ظاهر الآية القرآنية ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾(٣) **يؤكد اعترافه بالخطأ، وهذه أليست مخالفة؟**

اعتراف الأئمّة:

قد يقول قائل: أئمّتنا عليهم السلام **كذلك، فالإمام عليّ يقول: «إلهي قلبي محجوب وعقلي مغلوب وهوائي غالب وطاعتي قليل ومعصيتي كثير».(٤) فكيف يقول الإمام معصيتي كثير ونحن نعتقد بعصمته؟ هذا هو ما يحتاج إلى تفسير وتأويل أيضاً.**

النظرية تقول في تفسير ذلك أنه كلما كان الإنسان صالحاً فإن الأخطاء الصغيرة بينه وبين الله تعالى يراها جداً كبيرة وأما ذاك الإنسان العادي فهو

---

(١) الأنبياء: ٨٧.
(٢) نوح: ٢٦ و٢٧.
(٣) الأنبياء: ٨٧.
(٤) بحار الأنوار ٨٤: ٣٤١/ الدعاء المعروف بدعاء كميل.

يـرى نفسـه رغـم كـل المعاصـي كـأن لـم يعمـل أي ذنـب، ولهـذا تـرى كلمـا ازداد الإنسـان فـي مـدارج الكمـال ازداد خوفـاً وبكـاءاً وسـهراً حتّـى يصـل إلـى مـا وصـل إليـه الأنبيـاء، لكـن كلمـا ابتعـد عـن مـدارج الكمـال يـرى نفسـه كـأن لـم يعمـل ذنبـاً، إن هـذا الابتعـاد عـن الله تعـالى هـو بمثابـة المعصـية لـدى الأنبيـاء والأوليـاء، ولهـذا فـإن الإمـام يقـول: «إلهـي قلبـي محجـوب... ومعصـيتي كثيـر ولسـاني مقـرٌّ بالذنوب».

والحمد لله رب العالمين

* * *

المحاضرة السادسة والعشرون:

الفتنة

أنواعها وطرق النجاة منها

«عصمكم الله من الزلل وآمنكم من الفتن وطهركم من الدنس واذهب عنكم الرجس وطهركم تطهيراً».

حديثنا الليلة حول هذا المقطع من الزيارة «وآمنكم من الفتن» حيث يوجد هنا بحثان:

البحث الأوّل: بحث قرآني، عن الفتنة، مدلولات الفتنة، واستعمالاتها، والمنجيات من الفتنة في القرآن الكريم، والموقف تجاه الفتنة حسب الدلالات القرآنية؟

البحث الثاني: بحث عقائدي. لماذا كان الله تعالى يفتتن الناس؟ الله العطوف الجليل الواسع المغفرة.

مدلول كلمة الفتنة:

ما هو مدلول كلمة الفتنة في القرآن الكريم؟

يمكن أن نقول: إن الفتنة في الاستعمال القرآني لها معنيان المعنى الأوّل إيجابي والمعنى الثاني سلبي، المعنى الأوّل للفتنة هو الامتحان الاختباري، مثل طالب مدرسة يدخل الامتحان في آخر السنة، هذا نسميه امتحاناً اختبارياً، وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان، هذا امتحان وليس ظلماً وإنه اختباري، حيث لا يمكن أن تكون الإدارة عادلة إذا كانت تعطي درجة النجاح لكل الطلاب بدون اختبار، ولا يمكن لكلية الطب أن تعطي لكل الطلاب شهادات تخرج من الطبية بدون أن يكونوا قد بذلوا جهداً علميّاً. هذا في الحقيقة خيانة للمجتمع يعني لا بدّ من امتحان اختباري لطلاب الكلية.

المعنى الأوّل:

الفتنة بالمعنى الأوّل تعني امتحاناً اختبارياً، الله يفتتن الناس أو يمتحن الناس الجيد منهم أو الرديء ولا بدّ أن يمروا في هذه الدنيا عبر عملية امتحان حيث لا يمكن

أن يدخل الجيد والسيئ في الجنة دون حساب، الظالم والمظلوم يدخلون الجنة بدون حساب فإن هذا ليس عدالة بل هو ظلم، فمن أجل تحقيق العدالة لا بدّ أن يدخل الظالم والمظلوم بحساب، هذا هو المعنى الأوّل الذي نسميه (الامتحان الاختباري).

القرآن الكريم يقول: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[١] إن الله يعطيك الأبناء ولكنهم فتنة وامتحان لك، صحيح أنه يعطيك الأولاد ولكن يريد أن يرى كيف تربي وتعلم هؤلاء الأبناء؟ وكذلك الأموال الذي يعطيكها هي رحمة ولكنها امتحان حيث كيف تتعامل معها من حيث الانفاق؟ هل ترفق بالفقير؟ أو تصل بها رحمك؟ أو تنفقها على والديك وأولادك؟ وتؤدي واجباتك الشرعية أو العكس؟ هذا كله امتحان ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[٢] لكن هذه فتنة إيجابيّة.

وبهذا المعنى الايجابي جاء قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾[٣] يعني هل يتصور الناس بمجرد أن يقولوا: (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمّداً رسول الله) أنهم يدخلون الجنة بدون اختبار النية ومدى صدقهم؟ القرآن يقول لا بدّ من اختبار وليس بالقول فقط وإلا فإن كل الناس يدّعون الإسلام والإيمان، القرآن يقول: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾[٤] الدنيا عبارة عن جامعة علميّة مثل ما عندكم بالجامعة امتحانات شهرية ويومية ونهائية، كذلك الدنيا كلها امتحانات فالدنيا جامعة إنسانية.

القرآن الكريم أيضاً يقول: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنا تُرْجَعُونَ﴾[٥] القرآن يقول حتّى الخير الذي نعطيه لك نريد أن نبتليك به مثل العافية والذكاء

(١) الأنفال: ٢٨.
(٢) العنكبوت: ٢.
(٣) السابق.
(٤) السابق.
(٥) الأنبياء: ٣٥.

والرزق هذا خير وفيه امتحان، والشر كذلك المرض والفقر والمشكلات السياسية، نمتحنكم حتى نرى من هو الصابر وغير الصابر.

إذن الفتنة بهذا المعنى لا تمثّل حالة سلبية بل حالة إيجابية وسنّةً إلهية، ﴿وَلِيُمَحِّصَ ما فِي قُلُوبِكُمْ﴾.[1]

الله تعالى يقول: لا بدّ أن أعرف ما في قلوبكم لأن بعض الناس إذا أعطاه الله شكر وإذا لم يعطه كفر. إذن هذا ليس إيماناً حقيقياً ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلى حَرْفٍ فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيا وَالْآخِرَةَ﴾[2] هذا هو المعنى الأوّل للفتنة وهو الامتحان الاختباري.

المعنى الثاني: بحسب الاستعمال القرآني للفتنة هو عبارة عن الامتحان التسقيطي، هذا الامتحان التسقيطي هو الفتنة بالمعنى السلبي وهو فتنة الشيطان. لاحظوا الله تعالى عنده فتنة والشيطان عنده فتنة، فتنة الله تعالى عبارة عن امتحان اختباري حتى ينجحوا ويتقدموا، الشيطان أيضاً عنده فتنة حتى يضل الناس ويسقطهم ويغويهم في نار جهنم هذه فتنة شيطانية ﴿إِنَّما يُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةَ وَالْبَغْضاءَ﴾[3] وهذه هي الفتنة التي يقف عنها القرآن ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾[4] القرآن مرة أخرى يقول: ﴿الْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾[5] الفتنة هنا يعني إضلال الناس وإيجاد العداء بين الناس وإيجاد الإرهاب وتسقيط المجتمع وسلب الأمان. الشيطان يفتتن الإنسان بهذا الهدف ولهذا فان القرآن يحذّر من الفتنة الشيطانية، لكن لا يحذّر من الفتنة الإلهية لأنها شيء جيد.

---

(١) آل عمران: ١٥٤.

(٢) الحج: ١١.

(٣) المائدة: ٩١.

(٤) البقرة: ١٩١.

(٥) البقرة: ٢١٧.

يوماً[1] ما في زمن عمر بن الخطاب سمع الخليفة رجلاً يقول: إني أكره الحقّ وأحب الفتنة، الناس صاحوا هذا كافر، اقطعوا رأسه، وصل الخبر إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام، قال: امهلوه حتّى نعرف ما قصده، فسأله أمير المؤمنين أنك تقول: إني أكره الحقّ وأحب الفتنة، فماذا تقصد؟ قال: صحيح يا أمير المؤمنين ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[2] وأنا أحب أموالي وأولادي، والموت حقّ، أنا أكره الموت.

لاحظوا يوجد ناس يتسرعون في تكفير الناس، لأنك تزور مراقد أهل البيت عليهم السلام قالوا هذا مشرك كافر ودمه حلال. أوّلاً اسمع ماذا نقول: «يا وجيهاً عند الله اشفع لنا عند الله» إذن الأمر كله لله والتوجه هو إلى الله تعالى.

الفتنة الشيطانية مثل إيقاع العداوة بين الناس والاقتتال الطائفي والضغينة بين الأخ وأخيه والجار وجاره والفتنة بهذا المعنى يجب الابتعاد عنها والحذر منها ﴿يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كَما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾.[3]

التشاور مع الزوجة الصالحة:

يُروى انه في زمن بني إسرائيل كان هناك رجل رأى في المنام رسولاً من عند الله يقول له: إن الله قدّر لك عشر سنوات من عمرك سعادة وعشر سنوات شقاء، والله تعالى يخيرك تريد النصف الأوّل شقاء والثاني رخاء أم تريد العكس؟ كان هذا الرجل فاهماً، قال: أنا عندي شريك في حياتي وهو زوجتي، اسمح لي أستشيرها، لأنه ليس من حقي أن أختار وحدي، استيقظ في الصباح وجاء إلى زوجته، وحكى لها ما رأى وسألها ماذا تقولين؟ ما

---

(1) أنظر: الغدير ٦: ١٠٥.

(٢) الأنفال: ٢٨.

(٣) الأعراف: ٢٧.

نختار؟ قالت له: ليكن النصف الأوّل رخاءاً والبقية على الله تعالى فهو كريم، هذا الأمر به دلالات كثيرة على أهمية مشورة المرأة الصالحة والعاقلة، وعلى العدالة في السلوك، إن الإنسان عنده شريك في الحياة وليس وحده.

مرة أخرى جاء إليه الرسول في المنام وقال: ماذا تقول؟

فقال له الرجل: أختار النصف الأوّل رخاءاً وسعادة، والنصف الثاني شدةً وشقاء.

في الصباح من اليوم التالي جاءه الخير والرزق والرحمة وكثر خيره لكن هذه الزوجة الصالحة كلما كانت الرحمة تأتيه تقول لزوجها: هذا جيرانك فقير أعطه، وعندك أرحام صلهم، وعندك بيت كبير ادعوهم إلى بيتك، أقربائك وجيرانك الفقراء وهكذا. وكلما تأتيه رحمة يوزعها ويأخذ حصته ولكن يكرم الآخرين.

انتهت العشر سنوات الأولى، قال الرجل: يا ساتر يا الله سوف نبدأ بعهد الشدة والشقاء، جاء اليوم الأول والثاني والشهر الأول والثاني والخير مستمر ولا يوجد شقاء، مضت ستة أشهر على هذا الحال، نام ذات ليلة من الليالي رأى ذلك الرسول من عند الله فقال له: يا فلان أنتَ قلتَ لي النصف الأوّل سوف يكون رخاءاً والنصف الثاني شدة، وأنا الآن منذ ستة أشهر في النصف الثاني والرخاء مستمر ولا توجد شدة، أين الوعد الإلهي؟

فقال الرسول: إن الله تبارك وتعالى جعل هذا النصف الثاني لك أيضاً خيراً ورخاءاً ببركة صلة الرحم وبرّك بالجيران وعطاءك الخيرات، الله تعالى جعل ذاك النصف الذي هو شر جعله خيراً أيضاً.

هذا معناه أن الله تعالى افتتن هذا الإنسان واختبره وهذا الإنسان نجح في الاختبار، وقد قلنا إن الفتنة الإلهية هي امتحان اختباري وهي شيء جيد وكل انسان يتعرض لهذا الامتحان لكن الإنسان إما ينجح أو يرسب.

قصة عن الفتنة الشيطانية:

أما الفتنة الشيطانية فهي فتنة تضليل، أذكر لكم رواية عن الإمام الصادق عليه السلام:

تقول الرواية والمعنى صحيح بقطع النظر عن سند هذه الرواية لأن الفكرة الواردة فيها هي فكرة مقبولة وفق القياسات الدينية: يؤتى يوم القيامة بامرأة حسناء جميلة، لكن في الدنيا قد افتتنت وضلّت وانحرفت، تقول: إلهي أنا في الدنيا انحرفت، أنت ابتليتني بالجمال فذهبت وراء المعاصي، فيؤتى بمريم بنت عمران يقال: أيها أجمل أنتِ أم مريم بنت عمران؟ تقول: مريم بنت عمران.

الله تعالى يقول: إذن هي افتتنتها بالجمال ولكن لم تَضل لماذا أنتِ ضَللتي؟

ويؤتى بشاب جميل يوم القيامة وقد انحرف في الدنيا يقول: إلهي أنت امتحنتني بالجمال والعافية والدنيا غرّتني، ولولا الأموال والجمال ربما كنت أنساناً صالحاً، فيؤتى بيوسف عليه السلام يقال لهذا الشاب: أنت أجمل أو يوسف أجمل؟

يقول: يوسف أجمل.

فيقال له: إذن الله تعالى امتحن يوسف بالجمال ولم ينحرف فلماذا انحرفت؟

ثمّ يؤتى برجل من أهل البلاء والشدة وقد انحرف في الدنيا يقول: إلهي أنت ابتليتني وأنا لم أصبر، فيؤتى بأيّوب ويقال: أنت أشد بلاءاً أو أيوب أشد بلاءاً؟

يقول: أيوب أشد بلاءاً.

يقال: أيوب ابتليناه وافتتناه ولم ينحرف فلماذا انحرفت أنت؟[(١)]

هذه أفكار تأتي على شكل روايات هي صحيحة من حيث الفكرة والمحتوى، لأن الله تعالى يوم القيامة له حجة على جميع الناس ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾[(٢)] لا يوجد شخص يقول أنا عندي دليل وحجة على الله فلا يستطيع أن يحاسبني، هذه القصص والروايات هي ذات دلالات صحيحة.

---

(١) أنظر: الكافي ٨: ٢٨٨/ ٢٩١.

(٢) الأنعام: ١٤٩.

الفتنة العامة و الفتنة الخاصة:

هـذه الفتنـة بـالمعنى الأوّل والثـاني التـي تحـدثنا عنهـا هـي فتنـة عامـة، كـل النـاس الله يفتتـنهم والشـيطان أيضـاً يفتتـنهم، كـل البشـر فـي هـذه الجامعـة الدنيويـة هـم فـي طريـق الامتحـان أمـا امتحـان اختبـاري إلهـي أو امتحـان تسـقيطي تضـليلي من قبل الشيطان، هذه فتنة عامة.

توجـد هنـاك فتنـة أخـرى هـي الفتنـة الخاصـة حسـب الاسـتعمال والدلالـة القرآنيـة، توجـد امتحانـات خاصـة، حيـث يُمـتحن إنسـانٌ امتحانـاً خصوصـياً لـيس له مثيل مثل امتحان أيّوب، هذه امتحانات شدة.

فتنة ناقة صالح:

أذكـر لكـم واقعـة تاريخيـة وهـي قصـة ناقـة صـالح، صـالح نبـي مـن الأنبيـاء، قبـره فـي وادي السـلام. وهـو أحـد الأنبيـاء العـرب وهـم خمسـة، ولعـل مـن الأسـرار أن الأنبيـاء هـم إمـا عـرب أو عبـريين والأنبيـاء العـرب هـم خمسـة فقـط إسـماعيل وشعيب وهود وصالح ومحمّد صلى الله عليه وآله.

بعــث نبــي الله صــالح إلــى قومــه ثمــود، كــانوا موجــودين فــي الجزيــرة العربيـة، وآثـارهم مـا تـزال موجـودة شـمال حضـرموت، وكـان لهـم مدينـة وقـرى ومزارع كثيرة، القرآن يصف تمدنهم في بعض الآيات بقوله:

﴿تَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾[1] قـالوا: يـا صـالح تـدعي أنـك نبـي، ادعُ الله أن يخـرج لنـا مـن هـذه الصـخرة اليابسة ناقةً، دعا الله تبارك وتعالى حسب بعض الروايات وليس حسب النص القرآني، فخرجت ناقة من هذه الصخرة وكانت هي معجزة وفتنة لقوم صالح، اقرأ لكم هذه الآيات حتّى تروا هذه الناقة وما كان اعجازها.

---

(١) الشعراء: ١٢٨ - ١٣٠.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ * وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ * فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾.[1]

القصة هكذا تقول: إن الله تبارك وتعالى أعطاهم هذه المعجزة لكن لم يؤمنوا بل بقوا على كفرهم، هذا النبي أنبأهم بعذاب من عند الله تعالى.

أمّا ما هو الإعجاز في الناقة؟ القرآن لا يذكره، هناك مجموعة تفاسير وروايات في إعجاز هذه الناقة.

التفسير الأوّل: إنها ناقة خرجت من عمق الصخرة.[2]

التفسير الثاني: أن هذه الناقة كانت عجيبة تشرب الماء الذي عندهم في القرية كله وحدها في يوم وفي اليوم الثاني يبقى الماء للناس والحيوانات الباقية ﴿فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ * وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ **في اليوم الذي هو للناقة لا يجوز الناس أن يأخذوا من الماء لأن هذه الناقة كما تقول الروايات تأتي وتشرب الماء كله وهذه معجزة.**[3]

التفسير الثالث: أن هذه الناقة بعد ما تشرب الماء تعطيهم من الحليب ما يكفي كل المدينة، وهذه رحمة ومعجزة.[4]

التفسير الرابع: عندما يكون يوم الناقة تمتنع جميع الحيوانات عن شرب الماء وهذه معجزة أيضاً. القرآن الكريم يذكر إجمال القضية أما التفاصيل فلا يذكرها ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ﴾ **فهي معجزة أوّلاً وفتنة ثانياً لكن هؤلاء لم يرضوا أن تشرب الناقة يوماً وهم يشربون في اليوم الثاني.**

---

(١) القمر: ٢٧ - ٣١.

(٢) الكافي ٨: ١٨٧/ ٢١٤.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

إلا ان مجموعة منهم اتفقوا وهم تسعة على رجلٍ سيّاف أن يقتل الناقة ﴿فَنَادَوْا صاحِبَهُمْ فَتَعاطى فَعَقَرَ﴾[1] أي قَتَل الناقة، وقد كان نبيهم أخبرهم أن هذه الناقة إذا قُتِلَت ينزل عليكم عذاباً من السماء، فلما قتلوها بدأت معالم العذاب وهو ﴿وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾[2] ثلاثة أيام في اليوم الأوّل تكون وجوههم مصفرة وفي اليوم الثاني تكون محمرّة وفي اليوم الثالث تكون مسودة، أي ثلاث عواصف رملية شديدة يُقتلون بها جميعاً.[3]

القرآن يقول: ﴿فَكَيْفَ كانَ عَذابي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً واحِدَةً﴾[4] في اليوم الثالث ﴿فَكانُوا كَهَشيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾[5] أصبحوا عظاماً بالية.

هذه الناقة في الحقيقة هي فتنة لكن هي فتنة إلهية ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ﴾.[6]

هذه قصة ناقة صالح.

الموقف من الفتنة:

السؤال ما هو الموقف من الفتنة؟

توجد ثلاثة مواقف من الفتنة، اثنان من المواقف خطأ وواحد منهما صحيح.

الموقف الأوّل: الهروب من الامتحان والنتيجة أن ترسب في الامتحان، وهذا نسميه موقف الهروب والاعتزال من امتحانات الدنيا، كما يقول بعض الناس في معركة الحقّ والباطل إن هذه قضايا سياسية وهي ابتلاء وامتحان وأنا

---

(١) القمر: ٢٩.

(٢) هود: ٦٥.

(٣) الكافي ٨: ١٨٨/ ضمن ح ٢١٤.

(٤) القمر: ٢٠ و٢١.

(٥) القمر: ٣١.

(٦) القمر: ٢٧.

لا أتدخل فيها، اعتزال المجتمع، واعتزال العمل السياسي، هذا نسميه مذهب الاعتزال والرهبانية والتصوّف والصوفية، هذا الاتجاه غير صحيح.

الموقف الثاني: الدخول في الامتحان، لكن الدخول والحضور الغافل اللاواعي، أي يذهب إلى الامتحان لكن لا يستعد له. يعني الساحة محتدمة بالمواقف السياسية والمواجهات الثقافية، وأنت تقول آخذ النتيجة، تحضر لكن حضور غافل لا يكون لك دور حقيقي وجد واجتهاد، هذا الموقف يشير إليه القرآن الكريم بالقول: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾[1] فهو فقط يأكل هذا نسميه الحضور الترفيهي والحضور الغافل وليس حضوراً واعياً وهذا أيضاً خطأ في الموقف.

الموقف الثالث: الحضور الواعي وباستعداد، وهو الموقف الصحيح.

ولهذا يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «لَوْلَا حُضُورُ الْحَاضِرِ وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ وَمَا أَخَذَ اللهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَلَّا يُقَارُّوا عَلَى كِظَّةِ ظَالِمٍ وَلَا سَغَبِ مَظْلُومٍ لَأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا». الإمام يقول لولا أنها مسؤوليتي كنت أجلس في البيت، لكن أنا مسؤول مثل ما أنتم مسؤولون.

الدروع الأربعة:

إذن المطلوب في الفتنة الاجتماعية والسياسية هو الحضور الواعي المستعد. هذا الحضور الواعي باستعداد لابد أن نتدرع له بأربعة دروع.

الدرع الأوّل: التقوى والإخلاص، أي تدخل المعركة أنت متمسك بحبل الله ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾[2] فإذا هجم عليك الشيطان فأنت عندك سلاح.

الدرع الثاني: العلم، أي أنت تدخل هذه الغابة لا بدّ أن تأخذ معك خارطة

---

(١) الحرج: ٣.
(٢) الطلاق: ٢.

طريق حتّى تتخلص من متاهات الغابة، مثلاً اللعبة الرياضية لها قواعد ولا يصح أن يذهب أحد إلى اللعبة ولا يعرف القواعد، كذلك الدخول في المعركة السياسية والاجتماعية والثقافية، القرآن الكريم يقول: ﴿الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾،[١] ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾.[٢]

الدرع الثالث: الصبر، القرآن يقول: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾،[٣] **الله تعالى يفتش الناس ليعرف مدى صبرهم على البلاء.**

الدرع الرابع: إتباع القيادة الشرعية، فمن الممكن أن يكون عندك علم وصبر، وممكن عندك تقوى، لكن إذا كان لا يوجد لديك قيادة شرعية تدلك على الطريق، فسوف لا ينفعك الصبر والتقوى والعلم.

لا بدّ من القيادة الشرعية في هذه الغابة، غابة المعارك السياسية والثقافية.

الإمام عليّ عليه السلام يقول: «أيها الناس شقّوا أمواج الفتن بسفن النجاة»[٤] أي لا تهربوا من الفتن وشقوا أمواجها لكن من خلال سفينة نجاة أي القيادة الشرعية.

هذه دروع أربعة لا بدّ منها حتّى ننجح في مواجهة الفتنة.

أهل البيت والفتنة:

الزيارة تقول: «وآمنكم من الفتن» أهل البيت والأنبياء آمنهم الله من الفتن أي من الفتن الشيطانية، أما الفتن الإلهية فأهل البيت مشمولون بها ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾،[٥] **والسؤال هو كيف آمن الله تعالى أهل البيت من الفتن؟**

هل هو بعملية جراحية؟

---

(١) آل عمران: ٧.

(٢) السابق.

(٣) الفرقان: ٢٠.

(٤) نهج البلاغة: خ ٥.

(٥) التغابن: ١٥.

رواية شق الصدر:

توجد رواية تسمى برواية شق الصدر، وحاصلها أن رسول الله حينما كان طفلاً نزل ملكان من السماء وشقوا صدره وأخرجوا قلبه وأزالا من قلبه نقطة سوداء، هكذا تقول الرواية. أي أن رسول الله طهّره الله بعملية جراحية، هل هذا في الحقيقة صحيح؟

الجواب: لا، هو غير صحيح، وعلماؤنا ناقشوا ذلك، أن الأنبياء وأهل البيت الله تعالى آمنهم الله من الفتن عبر الجد والإخلاص والتقوى وليس عبر عملية جراحيّة. قال الشيطان: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾.[1] **هذا هو معنى «وآمنكم من الفتن».**

سفينة النجاة:

رسول الله ﷺ يقول: «مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح» وهذا حديث متفق عليه عند الشيعة والسنة «من ركبها نجا ومن تخلّف عنها غرق وهوى».

في مثل هذا اليوم كانت شهادة الزهراء عليها السلام.

ومجمعي حطبٍ على البيتِ الذي	**لم يجتمع لولاه شملُ الدين**
والقائدين أمامَهم بنجاده	**والطُهر تدعو خلفَهم برنين**
خلّوا ابن عمي أو لأكشف للدعا	**رأسي وأشكو لله شجوني**
ورنّت إلى القبر الشريف بعولةٍ	**عُظمي وقَلبٍ مُكمَدٍ محزونِ**
أبتاه هذا السامريُ وعِجلُهُ	**تُبعا ومالَ الناسُ عَن هارون**

إنا لله وإنا إليه راجعون

* * *

(١) ص: ٨٢ و٨٣.

المحاضرة السابعة والعشرون:

الميثاق الإلهي

نماذج وتطبيقات

«فعظمتم جلاله، وأكبرتم شأنه، ومجدتم كرمه، وأدمتم ذكره، ووكّدتم ميثاقه، وأحكمتم عقد طاعته».

حديثنا هذه الليلة عن هذا المقطع من الزيارة «ووكّدتم ميثاقه» الميثاق الإلهي والعهد الإلهي بين الله والإنسان.

الميثاق في اللغة: بمعنى العهد الموثّق المُحكَم والمُدوَّن.

حديثنا عن الميثاق وأهميته في الإسلام، ما هو الميثاق بين الله والإنسان؟ ثمّ ما هو الحكم في الميثاق بين العباد وأنفسهم؟

المواثيق بين الله والإنسان:

القرآن الكريم يطرح مجموعة مواثيق بين الله والإنسان.

سوف أحدثكم في البداية عن نمط العلاقة بين الله والإنسان حيث أنها تعتمد على عدة أركان.

أوّلها: الاحترام المتبادل بين الله والإنسان، الله تعالى يحترم الإنسان فعلى الإنسان أن يحترم الله تعالى.

والركن الثاني هو المحبة المتبادلة.

والركن الثالث هو القانون.

يوجد مجموعة مواثيق، القرآن الكريم يشير لها:

الميثاق الأوّل: الميثاق العام بين الله وبين كل البشر، مؤمن وغير مؤمن، في قديم الزمان أو في هذا الزمان، كان هذا الميثاق قبل أن يُخلق البشر على هذه الدنيا، كان في عالم ما قبل من الدنيا يسمى (عالم الميثاق) في ذلك العالم قام الله تعالى بعرض أوّلي للبشر وأخذ عليهم الميثاق.

القرآن الكريم يشرح ذلك بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا

عَنْ هذا غافِلينَ﴾.[(١)] **هذا يسمى بالاصطلاح الديني عالم الميثاق، عالم الذر، في ذلك العالم أخذ الله تعالى عهداً وميثاقاً على البشر سجّله الملائكة.**

ما هو هذا الميثاق؟

تشهدون أنا ربكم وأنتم العباد قالوا بلى شهدنا جميعاً. كل الخلائق، يومئذٍ لا يوجد كافر كما هو في يوم القيامة فالخلائق كلها تؤمن بالله. هذا الميثاق عن التوحيد والربوبية هو إشارة إلى وجود نزعة الارتباط بالله هذه النزعة لا تفارق البشر جميعاً، المؤمن والكافر كلهم لديهم نزعة الارتباط بشيء أكبر منهم هو المطلق، لكن القرآن الكريم يقول رغم أن هذه النزعة موجودة في فطرة البشر، لكن ﴿بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾[(٢)] **هذه النزعة تغلّفت واتسخت بتراب المعاصي. هذا هو الميثاق الأوّل.**

الميثاق الثاني: الميثاق الذي أخذه الله تعالى على الأنبياء وهم مائة وأربع وعشرون ألف نبياً أخذ الله عليهم عهداً خاصاً.

القرآن الكريم يقول: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾[(٣)] **هذا عهد أخذه الله على الأنبياء باتجاه الإيمان بخاتم الأنبياء ونصرته،** ﴿ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلى ذلِكُمْ إِصْرِي قالُوا أَقْرَرْنا﴾[(٤)] **قال فاشهدوا أيها الأنبياء يا آدم ويا نوح ويا إبراهيم ويا موسى ويا أيها الأنبياء** ﴿فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشّاهِدِينَ﴾[(٥)] **العهد بين الله تعالى والأنبياء مضمونه نصرة نبيناً ﷺ والإيمان به.**

---

(١) الأعراف: ١٧٢.

(٢) المطففين: ١٤.

(٣) آل عمران: ٨١.

(٤) السابق.

(٥) السابق.

قد يقول قائل كيف يحصل هذا؟ وما معنى ان أنبياء مبعوثين قبل آلاف السنين يجب عليهم أن ينصروا نبياً سوف يأتي بعد آلاف السنين؟ يعني يجب على آدم ونوح وإبراهيم أن ينصر نبينا وهم متقدمون عليهم بآلاف السنين، من الممكن أن يؤمنوا به لا بأس لكن كيف ينصرونه؟ هناك عدة تفاسير:

التفسير الأوّل: أن نقول ينصرونه أي يبلّغون أممهم ويدونون ذلك في وصاياهم جيلاً بعد جيل.

التفسير الثاني: يقول إن الأنبياء سيعودون إلى عالم الدنيا قبل الآخرة وهناك في عودتهم يلتحقون بركب الإسلام وينصرون الإسلام يومئذٍ سيرجع الأنبياء ولذا فإن بعض العلماء يرى أن هذه الآية من الآيات التي تدل على عالم الرجعة، ونحن الآن لسنا بهذا الصدد بل ذكرناها لمعرفة الميثاق الذي أخذه الله تعالى على الأنبياء.

الميثاق الثالث: أخذه الله تعالى على الأنبياء بما فيهم نبينا ﷺ، القرآن الكريم يشير إلى هذا الميثاق الثالث بقوله ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً﴾.[1]

هذا الميثاق الثالث لا يشرح القرآن مضمونه لكن الآية التي بعدها تقول: ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً﴾[2] كأن هذا الميثاق الثالث هو أخذ العهد عليهم بإبلاغ الرسالات، بدين الله، وحينئذٍ حينما يبلغون الناس فإن الله تعالى يوم القيامة حينما يجمع الناس يسأل الصادقين والأنبياء والمرسلين أن رسالتكم هل بلغتوها للناس؟

الميثاق الرابع: أخذه الله تعالى على علماء الدين بالخصوص، الذين هم

---

(١) الأحزاب: ٧.
(٢) الأحزاب: ٨.

في مرتبة الواسطة بين الأنبياء وبين الناس، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾[1] فالعلماء يحملون كتاب الله تعالى ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾[2] وهذا عهد أخذه الله تعالى على العلماء.

الميثاق الخامس: أخذه الله تعالى على بني إسرائيل خاصة كما يشير إليه القرآن الكريم. بنو إسرائيل هم الأمة الرسالية قبل نبينا ﷺ لكنهم فشلوا في الامتحان، ثم جاءت أمة نبينا ﷺ فهل ننجح في الامتحان أو نفشل؟ التأريخ والسنّة تقول إننا ننجح في الامتحان وبالخصوص هذه الأمة التي ارتبطت بأهل البيت عليهم السلام.

التجربة الفاشلة لبني إسرائيل:

الله تعالى يذكر لنا قصصاً من تجربة بني إسرائيل الفاشلة، وأحدها أن الله تعالى نتيجة دجل ونفاق بني إسرائيل رفع فوقهم الطور، الطور يعني الجبل، الآية القرآنية تقول: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾[3] هنا يوجد تفسير لقوله: ﴿رَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ فكيف يمكن أن نتصور ارتفاع الجبل على رؤوسهم؟

التفسير الأوّل: يبقى على ظاهر الآية القرآنية، الجبل انبسط عليهم بدل أن يكون واقفاً عمودياً أصبح ممتداً عليهم أفقياً وأصبح مثل السحابة كأنّه ظُلّة ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾[4] وهذا الجبل يكاد يسقط عليهم لأنه بلا أعمدة ومفصول عن الأرض.

---

(١) آل عمران: ١٨٧.
(٢) السابق.
(٣) البقرة: ٦٣.
(٤) الأعراف: ١٧١.

في بعض الروايات جبرائيل عليه السلام قلع جبل فلسطين، لأن هذا الحديث كان في فلسطين وبسطه على رؤوسهم كأنه ظُلة.(١)

التفسير الثاني: يقول أنهم كانوا واقفين عند قاعدة الجبل وهذا الجبل مال عليهم، حتّى يكاد أن يقع وهم ينظرون ويرون الجبل سوف يسقط عليهم ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾.

وعلى كل حال ومهما يكن واقع القضية فإن الله قال لبني إسرائيل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أمسكوا بالكتاب والتزموا الدين، ولا تنهاروا أمام صعوبات ومشاكل اجتماعية أو سياسية.

بنو إسرائيل سألوا الله تعالى أسئلة عجيبة، مرة سألوا الله تعالى أن ينزل عليهم المن والسلوى، يعني يريدون أن تمطر السماء عسلاً والسلوى هي الطيور نزل عليهم المن والسلوى، بعد فترة قالوا يا نبي الله نحن مللنا من هذا الطعام، نريد باقلاء وعدس ﴿مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾،(٢) هذه هي أسئلة بني إسرائيل، الله تبارك وتعالى أراهم هذه المعجزة وجعل الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم، وأخذ عليهم الميثاق أن لا يترددوا ولا يرتابوا ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.(٣)

الميثاق السادس: هو الميثاق الذي أخذه الله من صحابة النبي صلى الله عليه وآله.

هذا الميثاق الذي في بيعة الشجرة، التي جرت بين رسول الله والمسلمين، هم كانوا بايعوا الرسول من قبل لكن أخذ عليهم البيعة مرة

---

(١) بحار الأنوار ١٣: ٢٣٨/ ٤٧.

(٢) البقرة: ٦١.

(٣) البقرة: ٦٣.

أخرى، سُمّيت بيعة الشجرة وذلك في صلح الحديبية حين زحف النبي بالمسلمين وعددهم اثنا عشر ألف زحف بهم إلى مكّة لأجل الحج وليس لأجل الحرب.

القصة تقول: أن قريش لم توافق على دخولهم مكة وبعد ذلك عقدوا صلحاً بينهم، هنا جدَّد رسول الله أخذ البيعة من المسلمين، لأن المعركة مع قريش كانت معركة جهادية أمّا اليوم فقد تحولت إلى معركة سياسية، وربما ينجح بعض الناس في المعركة الجهادية، لكن الآن اصبحت معركة سياسية هل تبايعون على المعركة السياسية؟ الآن عندي صلح مع قريش وسوف أقوم بمقاومة سياسية إلى أن نسقطهم إذا كنتم مستعدين تعالوا وجددوا البيعة، هؤلاء المسلمين كلهم كانوا بايعوا من قبل لكن الآن يوجد تحوّل في المرحلة، توجد معركة من نمط جديد وبعض الناس قد يعاند ولا يقبل.

مثل ذلك الرجل الذي جاء إلى رسول الله ﷺ عندما قال رسول الله فلنصالح قريشاً، جاء ذلك الرجل وقال: يا رسول الله أنعطي الدنيّة من ديننا؟ أنا غير مستعد! يعني أنا لا أقبل المعركة السياسية، الرسول ﷺ أخذ منهم البيعة لأنه يوجد ههنا تحوّل مهم يحتاج إلى تجديد البيعة، هنا يقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾[1] جاء المسلمون وبايعوا.

تفسير رضى الله عن الصحابة:

بعد البيعة نزلت آية ثانية أصبحت محل الجدل إلى اليوم بين الفكر الشيعي والسني وهي قوله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ

---

(١) الفتح: ١٠.

الشَّجَرَةِ﴾[١] **حيث يرى أهل السنّة أن القرآن الكريم صريح هنا في رضى الله عن جميع الصحابة الذين بايعوا النبي يومئذ، إذن لا تستطيع أن تقول إن فلاناً وفلاناً عليهم مؤاخذات وان الله تعالى غير راض عنهم هذا هو القرآن يقول:** ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾.

هنا يأتي علماؤنا ويقولون إن القرآن الكريم يفسّر بعضه بعضاً، سألوا أحداً من العلماء قالوا له: لقد رضي الله عن المؤمنين. ما تقول؟ قال له: هذه الآية القرآنية تفسّرها الآية التي قبلها التي تقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾[٢] **يعني الذي ينكث يكون قد خرج من هذه الدائرة، إذن هذه الآية ليست مطلقة بل القرآن الكريم يشير فيقول إن قسماً ينكثون وآخرون لا ينكثون،** ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾.[٣]

القرآن الكريم يصنّف هؤلاء الناس الذين بايعوا إلى صنفين ـ على سبيل الفرضية ـ الصنف الأوّل الذين ينكثون، والصنف الثاني الذين يلتزمون بالبيعة.

القرآن الكريم هو نفسه يقول: ﴿ما مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً﴾.[٤]

الله تعالى قال: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.[٥]

وعلى كل حال هذه هي قصة الميثاق السادس.

الميثاق والعهد بين الله والإنسان يدلل على نمط علاقة رائعة بين الله

---

(١) الفتح: ١٨.

(٢) التفح: ١٠.

(٣) السابق.

(٤) آل عمران: ١٤٤.

(٥) الفتح: ١٨.

والإنسان، القرآن يصوّر هذه العلاقة أنها علاقة محبة ورحمة وودّ وصداقة وتكريم ودفاع وليس علاقة عداء وشروط وتعالي وفروض وظلم وكبرياء.

القرآن الكريم يقول: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾.

اقرأ لكم أسس العلاقة بين الإنسان والله في الفلسفة الدينية الإسلامية.

أُسس العلاقة بين الله والإنسان:

من وجهة نظر الإسلام فإن العلاقة بين الله والإنسان تقوم على ثلاثة أسس:

الأساس الأوّل: المحبة واللطف:

القرآن يقول: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾.[1]

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً﴾.

يعني إذا كنت لا تريد أن تتوب فإن الله تعالى يريد أن يتوب عليك.

وقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفاً﴾،[2] ولهذا فإن أحد أسماء الله تعالى هو (الحبيب)، «يا حبيب قلوب الصادقين» كم هي لغة جميلة وكم هو أدب جميل، وأسماء إلهية جميلة، لله الأسماء الحسنى، لا يوجد من أسماء الله أنه عدو أو خشن أو ظالم، بل من أسماء الله حنّان، منّان، رؤوف، رحيم، لطيف هذه هي أسماء الله تعالى، هذه هي العلاقة بين الله والإنسان في التصوير الديني الصحيح.

الأساس الثاني: القانون:

ربما يتصوّر بعض أن الله تعالى يتصرف بدون أُسس لأن القرآن يقول: ﴿يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾[3] لكن القرآن يقول هذا كله وفق قوانين،

---

(١) البقرة: ١٨٥.

(٢) النساء: ٢٨.

(٣) المدثر: ٢١.

الله تعالى يقول صحيح أنا أهدي من أشاء وأعذّب من أشاء وأرحم من أشاء لكن كل ذلك وفق قانون الاستحقاقات.

القرآن يقول: ﴿مَنْ كانَ في هذه أَعْمى فَهُوَ في الْآخِرَة أَعْمى﴾ **هذا قانون التناسب مع واقع الإنسان في الدنيا وهذا هو القانون الأوّل.**

ويقول: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مثْقالَ ذَرَّة خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مثْقالَ ذَرَّة شَرًّا يَرَهُ﴾[١] **وهذا هو قانون المجازاة بالمثل إذن يوجد هناك قانون، لا يصح أن تزرع شوكاً وتحصد عنباً وهذا هو القانون الثاني.**

﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لنَفْسه﴾[٢] **هذا قانون ثالث.**

وهكذا ﴿اذْكُرُوني أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لي وَلا تَكْفُرُون﴾[٣] **وهذا قانون رابع.**

وهكذا في آية أخرى تقول: ﴿أَوْفُوا بِعَهْدي أُوف بِعَهْدكُمْ﴾[٤] **أي التزموا بما عليكم ألتزم بما عليَّ، هذه هي مجموعة قوانين يذكرها القرآن لطبيعة العلاقة بين الله والإنسان.**

الأساس الثالث: الاحترام:

يعني أن أساس العلاقة بين الله وبيننا هو الاحترام فنحن عبيد لله، لكن الله تعالى يقول لكم عندي احترام، فأنتم لستم تراباً ولا حيواناتٍ ولا كميّات مهملة، أنتم بنو آدم ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَني آدَمَ﴾،[٥] **الله يعاملنا على أساس الاحترام، يقول: يا عبادي** ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَني آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ﴾[٦] **ثمّ يأتي**

(١) الزلزلة: ٧ و٨.

(٢) النمل: ٤٠.

(٣) البقرة: ١٥٢.

(٤) البقرة: ٤٠.

(٥) الإسراء: ٧٠.

(٦) يس: ٦٠.

للشيطان ويقول له: ﴿إِنَّ عِبادي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ﴾[١] **يقول تعالى:** ﴿يا أَيُّهَا الإِنسانُ﴾،[٢] **و**﴿يا عِبادِيَ﴾ **و**﴿يا بَني آدَمَ﴾[٣] **ولم يقل يا عبيد ويا أهل المعاصي، وحتّى عندما ينحرف الإنسان أنظر كيف يتعامل معه يقول:** ﴿يا أَيُّهَا الإِنسانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَريمِ * الَّذي خَلَقَكَ فَسَوّاكَ فَعَدَلَكَ * في أَيِّ صُورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَكَ﴾.[٤]

وفي آية أخرى: ﴿إِنّا خَلَقْنَا الإِنسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ نَبْتَليهِ فَجَعَلْناهُ سَميعاً بَصيراً﴾[٥] **الله تعالى سميع بصير ويقول أيها الإنسان جعلتك سميعاً بصيراً فهذا تكريم عظيم.**

هذه هي أسس العلاقة بين الله والإنسان.

مواثيق متقابلة:

في الحقيقة هناك مواثيق متقابلة بين الله وبين الإنسان وهناك نماذج من تلك المواثيق المتقابلة:

الأوّل: واحد في مقابل واحد.

الثاني: ثلاثة مواثيق يقابلها ثلاثة مواثيق.

الثالث: أربعة في مقابل واحد، أي أن الله تعالى يريد منا شيئاً واحداً ويعطينا في مقابله أربعة.

هذا الأمر نستعرضه كقراءة قرآنية سريعة.

النموذج الأوّل:

القرآن الكريم يشرح لنا النموذج الأوّل وهو واحد في مقابل واحد في

---

(١) الحجر: ٤٢.
(٢) الانفطار: ٦.
(٣) يس: ٦٠.
(٤) الانفطار: ٦ - ٨.
(٥) الإنسان: ٢.

قوله تعالى: ﴿اذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[١] **هذا ميثاق متبادل، ومثال ثاني:** ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾،[٢] **ومثال ثالث:** ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾[٣] **ومثال رابع:** ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.[٤]

النموذج الثاني:

أما نموذج ثلاثة في مقابل ثلاثة.

فإن الله تعالى يحدّده في آية واحدة يقول فيها أعطوني ثلاثة أشياء أعطكم ثلاثة أشياء، لكن يبقى الفارق النوعي بين الأشياء التي نعطيها والأشياء التي يعطيها الله تعالى.

القرآن الكريم يقول: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾[٥] **هذه ثلاثة في مقابل ثلاثة:**

أوّلاً: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ﴾.

ثانياً: ﴿وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ﴾.

ثالثاً: ﴿وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي﴾.

صلاة وزكاة وإيمان، البقية هي ملحقات وتفاصيل لما قبلها، في الحقيقة هذه ثلاثة أمور إذا أعطيتموها لله تعالى فإن الله تعالى في المقابل يعطيكم ثلاثة أشياء:

أوّلاً: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾.

ثانياً: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾.

---

(١) البقرة: ١٥٢.

(٢) البقرة: ٤٠.

(٣) محمّد: ٧.

(٤) إبراهيم: ٧.

(5) المائدة: ١٢.

ثالثاً: ﴿وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾.

النموذج الثالث: أربعة في مقابل واحد يعني نحن نعطي لله شيئاً واحداً ويعطينا أربعة في مقابلها ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً * مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً﴾[1] **هذه أربعة في مقابل واحد، وهو الاستغفار يقابله المغفرة، ورزق السماء، والأموال والبنين، وثواب الآخرة.**

هذه نماذج للمواثيق المتقابلة بين الله تعالى والإنسان.

حكم العهد:

السؤال: ما هو حكم الميثاق؟

الميثاق كما شرحناه هو العهد الموثَّق.

ما حكم العهد في الإسلام؟

يوجد في الفقه الإسلامي ثلاثة أشياء:

اليمين والنذر والعهد، وفي رسائل العلماء الفقهيّة تجدون كتاب اليمين وكتاب النذر وكتاب العهد. هذه الأمور متشابهة وهي كلها مواثيق لكن يوجد ميثاق أقوى من ميثاق ولهذا فإن أحكامها تختلف.

الميثاق الأدنى هو اليمين والقسم تقول: والله سأحضر المحاضرة، والله سأعطي كذا وحكمه انه يجب الوفاء به وإذا لم تؤده تجب عليك الكفارة.

والكفارة هي أن تصوم ثلاثة أيام أو تتصدق على عشرة مساكين ﴿مِنْ أَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾.[2]

ننتقل إلى مرحلة أعلى هي مرحلة النذر مثلاً نقول لله عليَّ، أو نذرٌ عليّ

(١) نوح: ١٠ - ١٤.

(2) المائدة: ٨٩.

أن أصوم أوّل يوم من شعبان، هذا النذر حكمه انه يجب الوفاء به، أما إذا تخلّفت عنه ونكثت فحكمه _ حسب رأي بعض الفقهاء _[1] أشد من اليمين من الناحية الشرعية، حكمه كفارة إفطار شهر رمضان وهي أمّا عتق رَقَبة وفي زماننا لا يوجد عبيد أو صيام شهرين متتابعين أو إطعام ستين مسكين.

الميثاق الثالث هو العهد تقول: عهد الله علي، أو عاهدت الله أن أفعل كذا وكذا أو عاهدت الله أن لا أكذب، هذا العهد يجب الوفاء به أيضاً ولا يجوز مخالفته والنكث به واذا خالفته فإن الكفارة هي كفارة إفطار شهر رمضان أي إمّا صوم شهرين متتابعين أو عتق رقبة أو إطعام ستين مسكين هذا هو حكم العهد فيما بين الإنسان وبين الله تعالى.

العهود بين الناس:

العهد بين الناس كما إذا عاهدت صديقاً لك فهناك حالتان فقط يجب فيهما الوفاء بالعهد:

الحالة الأولى: إذا دخل العهد في صياغة أدبية معينة بحيث أصبح مربوطاً بالله تعالى تقول عاهدت الله، وعهد الله عليَّ أن أعطيك كذا وكذا، هذه صياغة أدبية، وإذا دخل العهد في هذه الصياغة الأدبية فيلزم الوفاء به لأنه صار عهداً مع الله.

الحالة الثانية: إذا جاء شرطاً في ضمن عقد لازم شرعاً، مثلاً عندك معاملة بيع وشراء، تقول بعتك هذه الدار بشرط أن تقرأ لوالدي زيارة عاشوراء، هذا الشرط جاء في ضمن عقد البيع والشراء، وعقد البيع والشراء هو عقد لازم شرعاً يجب الوفاء به إذن يجب الوفاء بشرطه.

في هاتين الحالتين يكون الوفاء بالعهد لازماً أمّا ما عدا هاتين الحالتين يكون الوفاء بالعهد مستحباً.

---

(1) أنظر: تحرير الوسيلة للإمام الخميني ٢: كتاب النذر.

القرآن الكريم يؤكد هذه القضية ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ لكن ليس على سبيل الوجوب وإنما هو خُلُق مؤكد.

آثار نقض العهد:

القرآن يقول إن مخالفة الوعود والعهود لها آثار وضعية على قلب الإنسان فيكون قلبه قاسياً ويكون ملعوناً ومطروداً من رحمة الله تبارك وتعالى.

القرآن الكريم يقول: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾.[1]

يعني هذان أثران وضعيان الأثر الأول هو اللعنة الإلهية والأثر الثاني هو قساوة القلب.

يتضح من ذلك أن قساوة القلب ورحمة القلب تتأثر بأمور خارجية حيث توجد مجموعة أعمال تجعل القلب قاسياً وأعمال أخرى تجعله رحيماً ونحن نبحث عن القلب العطوف الرحيم البكّاء من خشية الله فكيف نصل إلى هذا القلب؟

عوامل قساوة القلب:

أذكر لكم رواية عن رسول الله ﷺ يرويها علماؤنا في كتب الحديث يقول ﷺ: «يا عليّ خمسة يُقسّين القلب: الذنب على الذنب، والأكل على الشبع، وظلم الناس، وتأخير الصلاة، والأكل والشرب بالشمال، يا عليّ وخمسة تذهب بالقساوة: مجالسة العلماء، ومسح رأس اليتيم، وكثرة الاستغفار بالأسحار، والسهر بالليل، والصوم».

هذه أمور خمسة تذهب قساوة القلب من جملتها مجالسة العلماء حيث لها فضل عظيم ان نفس مجلس العلماء فيه بركة ومجلس الموعظة والذكر فيه عطاء على قلب الإنسان ولهذا فإن أمير المؤمنين عليه السلام يقول في وصيته

(١) المائدة: ١٣.

للإمـام الحسـن عليه السلام: **«أي بُنـي أحيـي قلبـك بالموعظـة وأمتـه بالزهـد وقـوّه بـاليقين وذلّله بالموت وقررّه بالفناء وبصّره بفجائع الدنيا، وحذّره صولة الدهر».**(١)

القـرآن الكـريم يقـول أحيانـاً يكـون قلـب ابـن آدم كالحجـارة أو أشـد قسـوة، أنظـر هـذه الآيـات مـن سـورة البقـرة ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَهِيَ كَالْحِجارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهارُ وَإِنَّ مِنْها لَما يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْماءُ وَإِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾.(٢)

الآية تشير إلى ثلاث نماذج لكون الحجارة ألين من قلب ابن آدم القاسي ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهارُ﴾ **إشارة إلى عيون الماء. هذا نموذج أوّل ونموذج ثاني** ﴿وَإِنَّ مِنْها لَما يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْماءُ﴾ **إشارة إلى الآبار ونموذج ثالث** ﴿وَإِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾ **وهي عملية الانهيارات الجبليّة والزلازل والقرآن يعتبر ذلك سقوطاً من خشية الله وخضوعاً تكوينياً لأمر الله تعالى، القرآن يقول إن قلب ابن آدم حينما يكون قاسياً يكون أشد قسوةً من الحجارة.**

علـى طـول التـاريخ كانـت قسـاوة القلـب موجـودة لـدى الإنسـان الظـالم البعيـد عـن الله تعـالى ذلـك مـا صـنعه جـيش ابـن سـعد يـوم عاشـوراء بالإمـام الحسـين وأصـحابه، هـذه قسـاوة قلـب أن يقـول ابـن سـعد: يـا خيـل الله اركبـي ودوسـي صدر الحسين ما هذا؟ هذه قساوة قلب.

حرمـان الإمـام الحسـين مـن المـاء أيضـاً قسـاوة قلـب، وكـذلك الطفـل الرضيع وحرمانه من الماء.

إنا لله وإنا إليه راجعون

* * *

---

(١) نهج البلاغة ٣: ٣٨/ ٣١، ويصحح المتن: «احي قلبك بالموعظة، وامته بالزهادة، وقوه باليقين، ونوره بالحكمة، وذلله بذكر الموت، وقرره بالفناء، وبصره فجائع الدنيا وحذره صولة الدهر».

(٢) البقرة: ٧٤.

المحاضرة الثامنة والعشرون:

منهج أهل البيت عليهم السلام

في التبليغ الإسلامي

«ونصحتم له في السر والعلانية ودعوتم إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة».

حديثنا الليلة حول هذا المقطع من الزيارة «ودعوتم إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة» هذا المقطع إشارة إلى آية قرآنية تقول: ﴿ادْعُ إِلى سَبيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾[1] ولدينا حول هذا المحور بحثان:

البحث الأوّل: ما هو سبيل الله؟

البحث الثاني: ما هي أساليب ومناهج الدعوة إلى الله؟

سبيل الله:

قال الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلى سَبيلِ رَبِّكَ﴾ السبيل بمعنى الطريق.

﴿إِنّا هَدَيْناهُ السَّبيلَ إِمّا شاكِراً وَإِمّا كَفُوراً﴾.[2]

﴿وَجاهَدُوا في سَبيلِ اللّهِ﴾.[3]

﴿وَأَنْفِقُوا في سَبيلِ اللّهِ﴾.[4]

إن مجموع الاستعمالات القرآنية لكلمة سبيل هي بمعنى الطريق حتّى حينما يقول: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكافِرينَ عَلَى الْمُؤْمِنينَ سَبيلاً﴾[5] هنا السبيل بمعنى اليد والسيطرة أي ليس لديهم طريق يسيطرون به على المؤمنين.

ولهذا حينما يقال إن أحد موارد صرف الزكاة هو ابن السبيل فهو يعني ذاك الذي انقطع به الطريق مثلاً هو رجل غني لكنه فقد ماله في الطريق فأصبح ابن سبيل.

إذن سبيل الله يعني الطريق إلى الله تبارك وتعالى.

---

(١) النحل: ١٢٥.

(٢) الإنسان: ٣.

(٣) البقرة: ٢١٨.

(٤) البقرة: ١٩٥.

(٥) النساء: ١٤١.

أركان الدعوة إلى الله:

والحقيقة أن الدعوة إلى الله كما جاء في الأمر القرآني يجب أن تعتمد على ركنين.

الركن الأوّل: الحكمة.

الركن الثاني: الموعظة.

ما الفرق بين الحكمة والموعظة؟

الحكمة بمعنى البرهان العلمي.

والموعظة بمعنى الأسلوب الأدبي الصحيح المناسب، فالدعوة إلى الله يجب أن تكون أولاً: قائمة على أساس البرهان والدليل العلمي وليس على أساس خرافات وأساطير وهذا هو معنى الحكمة.

وثانياً: عبر أسلوب رقيق، أسلوب يدخل القلوب، وليس مجرد تقديم أبحاث علمية فإن الناس يحتاجون إلى بحث علمي لكن بثوب مبسَّط ومقبول وأخلاق جميلة وهذا هو المعنى بالموعظة الحسنة ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾.[١]

ولهذا يقول رسول الله ﷺ: «إنّا معاشر الأنبياء أُمرنا أن نكلّم الناس على قدر عقولهم»[٢] بالأسلوب الذي يتحملونه، والمستوى الذي يفهمون، هذا هو تكليف الأنبياء وحينئذٍ فإن الزيارة هكذا تقول: «ودعوتم إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة» هذه الدعوة إلى الله تعالى هي واجب من واجبات الأمة الإسلامية.

في الحقيقة فإن القرآن الكريم هكذا يقول: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى

---

(١) النحل: ١٢٥.

(2) الكافي ١: ٢٣.

الْخَيْـرِ وَيَـأْمُرُونَ بِـالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَـوْنَ عَـنِ الْمُنْكَرِ﴾[1] يعنـي الـدعوة إلـى الله لـيس فقـط هـي عمـل الأنبيـاء ولـيس فقـط عمـل الأئمّـة وبـاقي النـاس يتفرجـون، بـل هـذه هـي مسؤولية الأمة الإسلامية أن يبلغوا رسالات الله وأن يدعوا إلى الله تعالى.

وجوب التبليغ والدعوة:

يوجـد بحـث فـي هـذه الآيـة لا بـدّ أن نطويـه طيـاً سـريعاً، وهـو الإشـارة إلـى وجـوب التبليـغ والـدعوة إلـى الله، ولكـن السـؤال ان هـذا الوجـوب هـل هـو كفـائي أو وجوب عيني؟

طبعاً في الفقه تعرفون ما هو الفرق بين الوجوب الكفائي والوجوب العيني، مثلاً إذا دخل شخص مجلساً وبه عدد كبير من الجالسين وقال: السلام عليكم، فهل يجب على جميع الموجودين في المجلس أن يردوا عليه السلام؟

كلا، إذا أجاب شخص واحد وقال: عليك السلام، فإن هذا كافي.

هـذا يسـمى وجوباً كفائياً وهـو الـذي إذا قـام بـه شـخص سـقط عـن البقيـة، أمـا الوجوب العيني مثل وجوب الصلاة فإنه لا يسقط عن الباقين إذا قام به شخص واحد.

هنـا فـي هـذه الآيـة يوجـد بحـث فـي أن القـرآن الكـريم حينمـا يقـول: ﴿وَلْـتَكُنْ مِـنْكُمْ أُمَّـةٌ يَـدْعُونَ إِلَـى الْخَيْـرِ وَيَـأْمُرُونَ بِـالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَـوْنَ عَـنِ الْمُنْكَـرِ﴾ هـل ان الـدعوة إلـى الخيـر والأمـر بـالمعروف والنهـي عـن المنكـر واجـب علـى كـل فـرد وجوباً عينياً أي ان كلهم يجب أن يكونوا علماء ومرشدين؟

الجواب: كلا بل ان الآية إشارة إلى وجوب كفائي، يعني ان مجموعة أفراد من أبناء الأمّة الإسلامية يجب أن تتخصص في الدعوة إلى الله بحيث لا يبقى إنسان في قرية أو مدينة يقول يوم القيامة: إلهي أنا لم أسمع أحداً يُرشدني ويبلّغني، المفروض ان صوت الإسلام يصل إلى كل مدينة وكل قرية.

---

(١) آل عمران: ١٠٤.

فإذا قام به عدد من الأشخاص سقط عن الباقين. هذا هو معنى الوجوب الكفائي.

مناهج التبليغ:

الآن ننتقل إلى البحث الثاني (مناهج التوعية والتثقيف والإبلاغ والدعوة)، ما هي؟

هناك منهجان:

المنهج الأوّل: هو منهج الفرض القسري على الناس يعني يجب عليك أن تصبح مؤمناً وإلاّ سوف تعاقب وتحاسَب.

المنهج الثاني: هو منهج الإقناع العلمي، أي إقناع الناس أن هذا حقّ.

الإسلام يؤمن بمنهج الإقناع العلمي وليس منهج الفرض القسري.

منهج الفرض القسري هو منهج الأمم السابقة مع الأنبياء والمؤمنين قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا﴾.[1]

قصة عبد الله بن اُبيّ:

هذا الأمر يذكرنا بقصة يذكرها القرآن الكريم بصورة مفصّلة ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزائِنُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ * يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾[2] هذه الآية نزلت في قصة: أن رسول الله ﷺ خرج في معركة بني المصطلق حينما انتهت المعركة حصلت مشادة بين بعض المهاجرين اللذين جاءوا إلى المدينة من مكة المكرمة وبعض أبناء المدينة وهم الأنصار، فكان

(١) إبراهيم: ١٣.

(٢) المنافقون: ٧ و٨.

بينهم مشادة أحدهم ضرب الآخر، وكل منهم استغاث بجماعته الأنصاري استغاث بالأنصار والمهاجر استغاث بالمهاجرين فأوشكت أن تكون معركة، ولكن رسول الله أطفأ نار المعركة، إلا ان الخبر وصل إلى زعيم من زعماء المدينة المنورة الذي دخل الإسلام نفاقاً واسمه عبد الله ابن أُبيّ هذا الزعيم يومئذٍ عندما دخل الناس في الإسلام دخل هو أيضاً ولكن في قلبه مرض، ولما سمع أن مشادة حصلت بين واحد من أبناء المدينة وهم الأنصار وآخر من أبناء مكّة وهم المهاجرون قال لجماعته وأصحابه: يا أهل المدينة أرأيتم ما صنعتم بأنفسكم، سلطتم عليكم أهل مكة وأصبحوا يضربونكم، وأصبحتم أذلاء. ثمّ قال: ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾[1] هذه الكلمة سمعها زيد بن الأرقم، فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: يا رسول الله هذا عبد الله بن أُبيّ قال: إذا رجعنا إلى المدينة سوف نخرجُكم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: هل أنت متأكد من قوله أم لعلّه كان قد غضب عليك ولم يكن يقصد ما يقول؟ فأكد له زيد ابن أرقم ان الكلمة كانت مقصودة. فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله براحلته وركبها وأذن بالانصراف ثم قال: سوف لن نرجع إلى المدينة ونذهب إلى مكة المكرمة، ثم أمضى النبي صلى الله عليه وآله يوماً وليلة وهو لا يعود إلى المدينة فأقبل إليه المسلمون وقالوا له أين تذهب، قال النبي لهم أنضروا إلى صاحبكم ماذا يقول؟ يقول إن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعز منها الأذل، هل ترغبون بذلك؟

فذهب المسلمون إلى عبد الله وقالوا له: إذهب واعتذر من رسول الله صلى الله عليه وآله. فجاء عبد الله إلى النبي صلى الله عليه وآله وقال: يا رسول الله أنا لم أقل هذا الكلام وإني أشهد أن لا إله إلى الله وأشهد أنك رسول الله.

---

(١) المنافقون: ٨.

فقال له النبي: أنا أقبل منك ذلك، ثمّ عادوا راجعين إلى المدينة المنورة وأصبح الناس يقولون لزيد: أنت كذبت على عبد الله وأحدثت مشكلة في بلاد الإسلام. وفي طريق النبي إلى المدينة نزل عليه الوحي بسورة المنافقين ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ... الأَذَلَّ﴾[1].[2]

الشاهد هنا هو الأسلوب القسري، أسلوب ﴿يُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾، أسلوب الطرد والقتل، هذا هو أسلوب الفرض القسري، أما أن تصبح من جماعتنا أو تخرج منها هذا منهج.

إن كثيراً من الأحزاب الدكتاتورية والمناهج المستبدة في العالم تؤمن بهذا المنهج، هنا في العراق كان نظام البعث يمثل أعلى درجة من الدكتاتورية والمنهج القسري، ونحن رأينا كيف أن النظام يقسر الناس ويفرض عليهم أن يكونوا من أتباعه وإن امتنعوا فمصيرهم القتل أو أي لون من ألوان العقوبات.

هذا المنهج مرفوض في الإسلام، والمنهج الذي يؤمن به الإسلام هو منهج الاقناع العلمي.

منهج الاقناع العلمي:

لقد مارس الأنبياء ورسول الله ﷺ والأئمّة الأطهار أسلوب الإقناع العلمي بلطف وظرافة والموعظة الحسنة لأجل هداية الناس، ممكن أن نقدم شواهد كثيرة على هذا الأمر، لاحظوا القرآن الكريم ماذا يقول؟

يقول على لسان كلُ الأنبياء: ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾[3] أنت أيها

---

(١) المنافقون: ١.

(٢) أنظر: الصحيح من سيرة الرسول الأعظم ﷺ ١١: ٣١٩.

(٣) يس: ١٧.

الرسول مسؤوليتك أن تبلّغ وتُنذر، أمّا أن يؤمنوا أو لا يؤمنوا فهذا ليس مسؤوليتك يا رسول الله صلى الله عليه وآله.

وهكذا نحن نقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ * لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ * وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ * وَلا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ * وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[1] إذن لا يوجد ههنا منهج قسري، لا يوجد فرض وقهر على الناس، ان منهج القرآن الكريم ومنهج الأنبياء والأئمّة الأطهار هو منهج الإقناع العلمي ﴿قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾.[2]

قصة بشر الحافي:

لهذا فإن الإمام الكاظم عليه السلام في قصة معروفة وهي قصة بشر الحافي مارس هذا الأسلوب نفسه، فبينما هو يسير وإذا جارية ترمي قمامة من داخل البيت ترميها في الشارع وفيها قناني الخمر والمشروبات الكحولية وما شاكل.

الإمام الكاظم عليه السلام وهو مار في الطريق قال: يا جارية لمن هذا القصر التي خرجتِ منه؟ قالت: هو لمولاي بِشر.

قال: مولاك حُرٌّ أو عبد؟

قالت: مولاي حر.

قال: صدقتِ لو كان عبداً لاستحى من مولاه!

رجعت الجارية إلى سيّدها في القصر قال لها: أبطأتِ ما الخبر؟

فنقلت له ما كان من خبر الرجل، فلما سمع بشر هذه الكلمة نزل من كرسيّه وذهب يركض وراء الإمام، فهذه الكلمة أثّرت به، أنا عبد الله كيف لا أستحي من الله.

---

(١) الكافرون: ١ - ٦.

(٢) البقرة: ١١١.

وصل إلى الإمام الكاظم وتاب توبة شديدة نصوحة وأصبح عابداً زاهداً وأصبح يُلقّب ببشر الحافي، فأصبح زاهداً من الزهاد يضرب به المثل، كيف تغيَّر بموعظة حَسنة.

هذا نموذج من نماذج الموعظة الحسنة.

قصة إبراهيم عليه السلام والأصنام:

أريد أن اقرأ لكم قصة أخرى عن الموعظة الحسنة وهي قصة إبراهيم على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام، إبراهيم كما تعرفون له منزلة خاصة بين الأنبياء ﴿ما كانَ إِبْراهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرانِيًّا وَلكِنْ كانَ حَنِيفاً مُسْلِماً﴾[1] **القرآن الكريم يقول:** ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾[2] **وله في القرآن الكريم حديث مفصّل وفي أكثر من قصة.**

القرآن الكريم يحدّث عن إبراهيم في سورة الصافات يقول: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقالَ إِنِّي سَقِيمٌ * فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ * فَراغَ إِلى آلِهَتِهِمْ فَقالَ أَلا تَأْكُلُونَ﴾[3] **اسمحوا لي اقرأ لكم الآية من البداية في قصة إبراهيم تقول:** ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ﴾[4] **يعني شيعة نوح، لأن الآية التي قبلها تقول:** ﴿سَلامٌ عَلى نُوحٍ فِي الْعالَمِينَ﴾[5] **يعني أن إبراهيم من أتباع نوح** ﴿إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ * إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ما ذا تَعْبُدُونَ﴾[6] ﴿أَتَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ * وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ﴾.[7]

---

(١) آل عمران: ٦٧.

(٢) الحج: ٧٨.

(٣) الصافات: ٨٨ - ٩١.

(٤) الصافات: ٨٣.

(٥) الصافات: ٧٩.

(٦) الصافات: ٨٤ و٨٥.

(٧) الصافات: ٩٥ و٩٦.

أما في سورة الأنبياء يقص القصة بشكل آخر ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾.(١)

ثلاث كلمات تشبه الكذب:

هنا يوجد ثلاث كلمات للأنبياء تشبه الكذب وما هي بكذب اثنان لإبراهيم وواحدة ليوسف.

كلمة يوسف هي قوله: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾(٢) **ولم يكونوا قد سرقوا وإنما كان يوسف هو الذي أخفى تاج الملك في رحالهم.**

هل هذا كذب؟ هذه كلمة تشبه الكذب لأن الأنبياء لا يكذبون إنّ مقصود يوسف هو أيها الناس وفيهم أخوته تتذكرون أنكم سرقتم يوسف إذن هو يقصد سرقة يوسف، لكن الناس يتصوّرون سرقة تاج الملك. فهذه كلمة تشبه الكذب وليست بكذب.

إبراهيم أيضاً عنده كلمتان تشبه الكذب وليست بكذب واحدة منها ما جاء في سورة الصافات: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾(٣) **ولم يكن سقيماً، أحد التفاسير يقول أنه لم يكذب ولكن مقصوده معنى آخر، هنا سقيم بمعنى إني مبتلىً بديني، أنه أنتم عندكم دين وأنا عندي دين، والله تعالى قد ابتلاني بكم فأنا سقيم بهذا الابتلاء.**

---

(١) الأنبياء: ٦٢ - ٦٥.

(٢) يوسف: ٧٠.

(٣) الصافات: ٨٨ و٨٩.

والكلمة الثانية حينما قالوا: ﴿أَأَنتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنا يا إِبراهيمُ * قالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَسْأَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ﴾.[1]

هذا كلام يشبه الكذب وما هو بكذب لأن مقصود إبراهيم أنهم لو كانوا ينطقون لقلت لكم قد فعله كبيرهم، فهذه جملة مشروطة بشرط غير متحقق.

القرآن الكريم يحدّث عنهم يقول: ﴿فَرَجَعُوا إِلى أَنْفُسِهِمْ فَقالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ﴾[2] **يعني كلمة إبراهيم أثرت في قلوبهم وهذه هي الحكمة والموعظة الحسنة. قالوا** ﴿أَتَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ﴾[3] **لقد جمع إبراهيم أوّلاً الدليل العلمي وثانياً الموعظة الحسنة حين أخذ الفأس وكسر الأصنام بدل أن يدخل في قتال معهم بل ذهب وكسّر الأصنام لأجل أن تكون موعظة حسنة.**

زوجة إبراهيم عليه السلام:

في قصة أُخرى من قصص إبراهيم أراد أن يخرج من المدينة التي كان فيها قال: ﴿إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[4] **أخذ زوجته سارة مهاجراً إلى الله تعالى وفي الطريق خرج عليهم رجال المَلك فإذا إبراهيم ومعه زوجته سارة محتفظاً بها في صندوق كما تقول الروايات، جاءوا به إلى الملك وكانت سارة كما تقول الروايات امرأة حسناء، فلما رآها الملك مدَّ يده إليها، فغضّ إبراهيم طرفه ودعا «اللهم احبس يد هذا الملك عن سارة»، الروايات تقول لم تستطع يده أن تلمس سارة وأصبحت يابسة.**

---

(١) الصافات: ٦٢ و٦٣.

(٢) الصافات: ٦٤ و٦٥.

(٣) الصافات: ٩٥.

(٤) الصافات: ٩٩.

فقال له المَلِك: يا إبراهيم ماذا صنعتَ؟ قال: سألتُ ربي حتّى لا تتمكن من سارة.

قال الملك: أدعُ ربَّك أن يرجع يدي وأنا أعطيك عهداً أن لا أعتدي عليها.

فسأل الله تعالى أن ترجع يد الملك ورجعت.

مرة أخرى مدَّ يده على سارة، وهنا إبراهيم غضَّ طرفه ودعا ربه أن يمنع يده عن سارة، مرة أخرى لم تصل يده إلى سارة ولا يستطيع أن يُرجعها.

قال: يا إبراهيم ادعُ ربك أن يرجع يدي.

قال بشرط مرة ثالثة إذا اعتديت لا أدع لك، فقبل الملك فدعا الله تعالى فعادت يد الملك إليه.

فقال الملك لإبراهيم: إن ربك لغيور وأذن له بالانصراف.

لما أذِنَ الملك لإبراهيم بالانصراف ومعه سارة، نزل الملك يمشي وراءه تجليلاً وتعظيماً لإبراهيم فأوحى الله لإبراهيم لا تسمح للملك أن يمشي وراءك بل دَع الملك يتقدَّم وأنت امش وراءه هيبة له وإكراماً للمَلِك، لاحظوا هذه الموعظة الحسنة.

إبراهيم قال للملك: إن الله تعالى أمرني أن لا تمشي خلفي وأنا نبي لكني هيبةً لك واحتراماً لك أمشي وراءك، هذه الكلمة أثرت بالملك فقال: إن ربك لحليم كريم وإنك ترغّبني في دينك، لاحظوا هذه هي الحكمة والموعظة الحسنة وليس بالفرض القسري.[١]

الإسلام هل انتشر بالسيف؟

هناك شبهة على الإسلام تقول: إن الإسلام انتشر بالقوة والسيف.

هذه شبهة في الحقيقة غير صحيحة.

الإسلام انتشر بقوة الإقناع وارتباطه بالفطرة الإنسانية بدليل إن الإسلام

(١) أنظر: الكافي ٨: ٣٧٠/ ٥٦٠.

اليوم لا يمتلك قوة ولا سيفاً وهو منذ قرون ضعيف من الناحية التسليحية، لكن مع ذلك فإن الإسلام قوي وثابت في الصين وفي أوروبا وفي أمريكا، الآن الديانة الثانية في فرنسا هي الإسلام، في بريطانيا كذلك الديانة الثانية الرسمية هي الإسلام، الإسلام ينتشر في الصين إذن لو كان الإسلام يقوم على أساس السيف، لكان مصيره مثل مصير الشيوعية التي حكمت سبعين عاماً ولكن بمجرد أن سقط الحكم الشيوعي سياسياً انتهت الشيوعية، الآن لا توجد شيوعية في دول الاتحاد السوفيتي السابق، سبعون سنة حكموا دول الاتحاد السوفيتي بالقهر، وفرضوا على الناس حتّى تغيير أسمائهم فالذي اسمه عليّ يجب أن يكون اسمه علي أُوف وهكذا، ومع ذلك فإن الملايين من المسلمين موجودون الآن في دول الاتحاد السوفيتي رغم أن معارفهم التفصيلية عن الإسلام ضعيفة لكن ارتباطهم بالإسلام ارتباط قوي.

لو كان الإسلام قد انتشر بالسيف لما بقى إلى اليوم وكان مصيره مثل الشيوعية هذا أوّلاً، وثانياً نحن نعتقد نظرياً وفقهياً ان الإسلام لم يدخل حروباً حتى في زمن النبي ﷺ إلا في حالتين:

الحالة الأولى: حالة دفاعية ﴿فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ﴾[1] ﴿قاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَما يُقاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾.[2]

الحالة الثانية: كسر الحواجز والسدود أمام الشعوب لوصول الإسلام إليهم. ﴿ما لَكُمْ لا تُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾[3] هذا نسميّه كسر السدود، الإسلام يريد أن ينتشر ولا بدّ ان يعمل على اسقاط الحكومات المتجبّرة التي تمنع الناس من الاستماع إلى صوت الإسلام. ثمّ إذا سقط ذلك الحكم

(١) البقرة: ٩٤.
(٢) التوبة: ٣٦.
(٣) النساء: ٧٥.

المتجبر حينئذٍ لا يقال للناس يجب عليكم أن تكونوا مسلمين بل يقال: هذا هو الإسلام إن شئتم أن تدخلو إلى الإسلام أو إن شئتم أن تبقوا على ديانتكم فليس ههنا إجبار وإكراه.

في الحالتين يؤمن الإسلام بالحروب، الحالة الأولى حالة الدفاع والحالة الثانية هي كسر السدود.

هذا هو حديثنا الموجز عن قوله: «ودعوتم إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة».

لقد كان أهل البيت عليهم السلام نموذجاً في الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

نموذج ثورة الحسين عليه السلام:

نأخذ مثالاً نموذج ثورة الحسين عليه السلام كانت بالحكمة والموعظة الحسنة، صحيح أن الحسين عليه السلام دخل في قتال لكنه كان قتالاً مفروضاً على الحسين عليه السلام، كان قتالاً دفاعياً ومفروضاً عليه، يزيد فرض على الحسين عليه السلام أن يبايع أو يقتل لكن الإمام الحسين عليه السلام لا يقبل أن يبايع يزيداً وأصبح مضطراً أن يخرج من المدينة المنورة وعنده أنصاره في الكوفة ويجب أن يلحق بهم ولقاؤه بهم ليس للقتال ولكن حتى تبقى الأمَّة حرة ولا تبايع يزيداً، دور الإمام عليه السلام هو دور دفاعي.

الإمام الحسين عليه السلام رغم أن ثورته دخلت مشهداً مسلحاً ولكنها كانت حالة دفاعية، السيف فُرضَ على الحسين عليه السلام ولهذا قال الإمام الحسين عليه السلام: «ألا وإن الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين بين السلة وبين الذلة وهيهات منا الذلة».

موقف الحسين عليه السلام كان دفاعياً ولم يكن موقفاً هجومياً، أهل الكوفة

حينما بعثوا برسائل إلى الحسين عليه السلام لكي يبايعوه على أساس أن يكون إمامهم بدل يزيد بن معاوية حيث أن يزيد فرض نفسه بالقسر وأما سياسية أهل البيت عليهم السلام فهي سياسة الإبلاغ وحين كان الإمام الحسين عليه السلام يلتقي بمجموعات من العَرَب ما كان يفرض عليهم أن يهاجروا معه بل حتى في ليلة عاشوراء قد خيَّر الإمام أصحابه وقال لهم هذا الليل فاتخذوه جملاً وليأخذ كل واحد منكم بيد واحد من أهل بيتي فإن القوم لا يطلبون غيري.

إنا لله وإنا إليه راجعون

* * *

المحاضرة التاسعة والعشرون:

الصبر

«وبـذلتم أنفسـكم فـي مرضـاته وصـبرتم علـى ما أصـابكم فـي جنبـه وأقمـتم الصـلاة وآتيـتم الزكاة».

حديثنا الليلة عن هذا المقطع من الزيارة «وصبرتم على ما أصابكم في جنبه» الحديث عن الصبر وصبر الأنبياء والأئمّة الأطهار عليهم السلام وشيعتهم في سبيل الله، لأن معنى في جنب الله أي في سبيل الله.

لكن بالنظر إلى الأحداث والمناسبات التي نعيشها سوف لا أدخل في هذا الموضوع كبحث نظري عن الصبر وفلسفة الصبر وأهميته، وإنما نتناول الصبر في واقعنا المعاصر، الصبر في تجربة شيعة أهل البيت والشيعة العراقيين.

كيف نصبر اليوم؟

وما معنى الصبر؟

فسوف أتحدث حديثاً ميدانياً أكثر مما هو حديث نظري.

صبر الشيعة:

كما تعرفون أن الإمام الصادق عليه السلام في الرواية عنه يقول: «نحن صُبّر وشيعتنا أصبر منا».

قلت: جعلت فداك كيف صار شيعتكم أصبر منكم؟

قال: «لأنا نصبر على ما نعلم وهم يصبرون على ما لا يعلمون».[١]

أحياناً أمامك النهر، وتعرف أنك بعد نصف ساعة أو ساعة أو أكثر سوف تصل إلى الماء وترتوي من الماء فأنت تراه أمامك فلو صبرت على هذه النصف ساعة فهي قضية طبيعية وسهلة، لكن أحياناً أنت لا تجد أمامك النهر ولا تراه وعليك أن تمضي قُدُماً تمشي متوكلاً على الله تعالى بأمل أن

(١) الكافي ٢: ٩٣/ ٢٥.

تصل إلى الماء، هذا الصبر أعظم من الحالة الأولى، فالشيعة يصبرون بمقتضى الثقة بالله تعالى، وانتظار وعد الله تعالى، وهم لا يعلمون الغيب ولا يرون أمامهم النهر إلا أن الثقة بالله تعالى تفرض عليهم أن يتحلّوا بالصبر العالي.

الصبر قرين الإيمان:

الصبر في الحقيقة هو قرين الإيمان يعني توأم الإيمان ومن غير الممكن التفكيك بينهما.

الكلمة المعروفة عن أمير المؤمنين عليه السلام: «فإن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد فمن لا صبر له لا إيمان له».[١]

لقمان الحكيم لم يكن نبياً وإنما كان حكيماً، أوصى ابنه في جملة وصاياه: ﴿يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.[٢] الصبر هو من تدبير الأمور وشرط نجاحها وهذا هو معنى ﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

الأحاديث في الصبر وأهميته كثيرة، لكن قلت لكم سوف لا أتحدث هذا اليوم حديثاً نظرياً وسوف ننزل إلى الواقع الذي نعيشه، ونرى كيف يكون الصبر هو شرط النجاح وبدون صبر لا نستطيع تحقيق النجاح.

لاحظوا تاريخياً أن أمير المؤمنين عليه السلام كيف قيّم حركة الثوار المصريين على عثمان بن عفان، فهؤلاء جاءوا من مصر ثم ثاروا على عثمان ثم قُتِل عثمان، وحدثت مشكلة كبيرة فمعاوية رفع راية المطالبة بدم عثمان واتّهم الإمام علي بأنه هو وراء العملية وأدى الأمر إلى ما أدى إليه، هذا تاريخياً.

لاحظوا تقييم الإمام علي لثورة المصريين حين قال عن عثمان: «استأثر

---

(١) التمحيص: ٦٤/ ١٤٨.

(٢) لقمان: ١٧.

فأساء الأثرة، وجزعوا فأساؤوا الجزع»[١] أي صحيح أن عثمان أخطأ فقد استأثر وأخذ المُلكَ كله هو وبنو مروان وبشكل غير شرعي، لكن الناس وفيهم صالحون هؤلاء جزعوا فأساءوا الجزع، فالتحليل السياسي أنه كان يجب على المصريين والعراقيين أن يصبروا على أخطاء عثمان حتى لا يستفيد معاوية وهو يتربص بهم الدوائر، لكنهم لم يستمعوا للإمام علي وجرى ما جرى، فقد كان عليهم أن يتحملوا أكثر لأنه إذا ذهب عثمان فسوف تأتي مشكلات معاوية بأخطر وأسوء. فالإمام علي كان يرى أن الابقاء على عثمان والعمل على نصحه أولى من أن يدخل العالم الإسلامي في معارك صفين والجمل. هذا هو تحليل الإمام علي عليه السلام.

مقابل العجلة و الجزع:

الصبر أحياناً يكون في مقابل العجلة وأحياناً يكون في مقابل الجزع.

يوجد تضاد بين الصبر والعجلة، فالعجول غير صبور وهو ينتظر أن تأتيه الأمور والنتائج سريعاً كمن يقطف الثمرة قبل أن تنضج فهذا نسميه عجلة، فصبر يقابله عجلة ولذا قال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾[٢] هذا صبر في مقابل العجلة.

أحياناً الصبر يقابله شيء آخر اسمه الجزع كما في قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا﴾.[٣]

وكما قال الإمام عليّ عليه السلام:

ولا تجزع من الموت إذا حلّ بناديكا

(١) نهج السعادة: ٥: ٢٢٢.

(٢) الأحقاف: ٣٥.

(٣) إبراهيم: ٢١.

فالجزع هو أن يفقد الإنسان رشده ولا يعرف كيف يتصرف، فالمريض مثلاً يجب أن يصبر ويذهب إلى الطبيب ويصبر على العلاج حتّى يتحسن، أما إذا كان غير صبور فإنه سوف يؤذي نفسه ولا يستعمل الدواء وهذا يسمى جزعاً، الإنسان الصابر هو الذي يعرف كيف يدبّر أمره ويحل المشكلة بالصبر والتحمل ﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾.[1]

الصبر على العمل:

لاحظوا الأنبياء والأئمّة عليهم السلام لم يكن صبرهم على مشكلة فقر أو مرض أو على مشاكل شخصية، صحيح أن هذا كان موجوداً لكن الصبر الأعظم هو الصبر على مشاكل العمل وعلى بناء المجتمع وعلى تطبيق الرسالة هذا هو الصبر العظيم ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾[2] فقد صبروا كثيراً حتّى وصلوا إلى تحقيق انجازات كبيرة.

صبر الإمام عليّ عليه السلام:

الإمام عليّ عليه السلام هكذا يقول: «وَطَفِقْتُ أَرْتَئِي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَدٍ جَذَّاءَ أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طَخْيَةٍ عَمْيَاءَ يَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ وَ يَشِيبُ فِيهَا الصَّغِيرُ وَ يَكْدَحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَحْجَى فَصَبَرْتُ وَ فِي الْعَيْنِ قَذًى وَ فِي الْحَلْقِ شَجًا».[3] الإمام عليّ يرى أن هناك عدواناً على الزهراء وعليه وعلى الإسلام، لكن ماذا يفعل؟

ليس المهم أن ينتقم لنفسه أو للزهراء، لا، بل المهم أن ينتصر للدين.

(١) لقمان: ١٧.

(٢) الأحقاف: ٣٥.

(٣) نهج البلاغة: خ ٣ المعروفة بالشقشقية.

لقد جاء أبو سفيان إلى الإمام عليّ وقال له: يا علي مُدَّ يدك أبايعك، لأملأنها عليهم خيلاً ورجالاً. فأبو سفيان يتصور أن الإمام عليّ ينخدع بهذه اللعبة، لأن أبا سفيان هدفه أن يلقي الفتنة بين المسلمين ويريد إيقاع معركة بين عليّ وبين الوضع القائم يومئذ، لكن الإمام عليّ لم يرَ ذلك من المصلحة، وقد كان بالامكان أن ينتقم الإمام علي عليه السلام لنفسه، لكن هنا تأتي مسألة الأهداف والمصالح الكبرى ما هي؟

ولو كان الإمام عليّ ينتقم لنفسه فإنه سوف يخسر أهدافه الكبرى، وسيكون ذلك منه جزعاً ولكنه آثر الصبر والتحمّل ولا يبتلى بالجزع.

قد يتصوّر كثير من الناس أن الصبر إنما هو في حالات المرض والفقر وما شاكل ذلك، لكن هناك صبر أعظم منه، هو الصبر على المشروع الديني والسياسي حتى تقطف الثمرة التي تريدها وهي ثمرة الانتصار وحاكمية الإسلام، هذا الصبر هو غير الصبر على المرض والفقر وما شاكل ذلك، هو صبر على المعاناة والاختلافات والاتهامات والارهاب وتمزيق الساحة، يجب أن تصبر وتتعامل بعقل كبير، ليس كل أحد يمتلك هذا الصبر لكن الشيعة بحمد الله يمتلكون هذا الصبر إذ تعلّموا من أهل البيت الصبر الرسالي وهو غير الصبر الشخصي.

الصبر الرسالي هو صبر من يريد أن يبني مجتمعاً وينصر الدين فهذا الصبر هو من خصائص الأنبياء والمؤمنين ﴿كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾.[1]

صبر العوام وصبر الخواص:

يوجد صبر يُسمى صبر العوام وهو صبر عامة الناس.

وهنا أنقل لكم قصة جرت مع داود النبي عليه السلام حيث نزل جبرائيل إلى داود قال له: «يبشّر خلاّدة _ وهي امرأة محترمة جليلة في زمن داود _ انها قرينتك في الجنّة».

---

(1) الأحقاف: ٣٥.

فأرسل عليها داود، قال لها: يا خلاّدة الله يبشرك انك قرينتي في الجنّة.

استغربت خلاّدة من ذلك وقالت: لعلَّه شُبّه عليك الاسم، لأني أرى نفسي من عوام الناس، وليس لي شأن كبير حتّى أكون قرينتك.

قال لها داود: ارجعي إلى نفسك وتأملي.

قالت: إن كان كذلك فأنا في الحقيقة أقول لك يا نبي الله أنا عندي خصلة واحدة أنه لا يصيبني بلاء أو مكروه أو وجع أو أذى إلا وصبرت عليه وما شكوته إلى أحد بل شكرت الله عليه.

لمّا سمع بذلك داود قال: هو هذا الذي يجعلك من نساء الجنّة ومن زوجات الأنبياء.[1]

وهذا هو نموذج صبر العوام.

لكن يوجد صبر أرقى منه يسمى صبر الخواص ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾[2] فهذا ليس صبراً على فقر لأن النبي لم تكن لديه مشكلة فقر ومرض وما شاكل ذلك.

صبر الخواص مثل صبر أمير المؤمنين عليه السلام، حين يُعتدى على الزهراء عليها السلام وحين يُغصب منه الحكم ويُعتدى على القيم الإسلامية فهنا صبر الإمام صبر الخواص، لأن لديه أهدافاً أكبر.

كذلك الإمام الحسن فقد صبر صبراً عظيماً حفاظاً على المؤمنين والمسلمين، وإلا ليس سهلاً على الإمام الحسن أن يجلس في مجلس معاوية ومعاوية أمير والإمام الحسن جالس في المجلس يسمع مواعظ وأكاذيب معاوية، لكن من أجل الله تعالى ومن أجل الأمّة ووحدة الكلمة، هذا صبر عظيم.

---

(١) أنظر: بحار الأنوار ٦٨: ٨٩/ ٤٢.

(٢) الأحقاف: ٣٥.

وهكذا العبّاس عليه السلام حينما جاءوا بجنازة الحسن عليه السلام لكي يزور مسجد النبي وقبره، خرجت عائشة وآل أميّة ومروان تقول: ما لي ولكم تريدون أن تدخلوا بيتي من لا أحب، هنا يوجد موقفان، وأما موقف الاستبسال والدخول في معركة مع المنافقين والأمويين وهو اختيار العبّاس بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام لكن الحسين عليه السلام بعصمته وعقليته الأكبر قال: لا الآن ليس وقت قتال، فإذا دخلنا الآن في معركة داخلية فإن ذلك ليس من مصلحتنا، فبنو مروان يريدون أن ندخل هذه المعركة، وإذا دخلنا هذه المعركة فسوف يسقط الإسلام كله ولذا فقد قال الحسين للعباس: «الله الله في وصية أخي الحسن، فإن أخي الحسن أوصى أن لا يراق فيه ملأ محجمة دماً» هذا هو صبر الخواص.(١)

شرحت لكم آفاق صبر العوام والخواص.

ذكرى انتفاضة شعبان:

ونحن في مرحلتنا هذه نحتاج إلى صبر، لاحظوا نحن الآن نعيش ذكرى انتفاضة شعبان عام ١٩٩١ التي انتفض فيها الشعب العراقي وصاح الموت لصدام والنصر للإسلام، وتحررت أربعة عشر محافظة من قبضة نظام صدام من مجموع ثمانية عشر محافظة، وكان نظام صدام على وشك السقوط والانتهاء لكن سرعان ما ساعدوه وعاد للحكم.

لقد كان هناك تخوّف عربي وعالمي من مجيء حكم إسلامي شيعي لدى سقوط صدام وبقاء صدام من وجهة نظرهم هو أفضل من انتصار الشعب العراقي وتحرر الارادة العراقية وتحركت يومئذ دول عربية على الولايات المتحدة الأمريكية لتغيير القرار باسقاط صدام، فتغيّر القرار الدولي وأعيدت الحياة لنظام صدام بعد أن كان قاب قوسين من الهاوية.

---

(١) أنظر: الإرشاد ٢: ١٨.

القرار العالمي سحق الشيعة بصواريخ أرض أرض كما حدث في النجف وكربلاء وبعدها في الأهوار وتدميرها، وبالمقابل كان قرار إعطاء الأكراد في كردستان حكماً مستقلاً.

كنّا نحتاج إلى إثني عشر سنة اضافية من الكفاح حتّى نقنع العالم العربي ثمّ العالم الدولي أن الخطر لا يأتيكم من الشيعة، بل الخطر يأتي من التكفيريين والسلفيين، بينما نحن اليوم فخورون أننا بمقدار ما نمتلك من قوة جماهيرية كبيرة وشجاعة كذلك نمتلك عقلاً وتدبيراً وسياسة، كما أشار إلى ذلك الكاتب السعودي المعروف (القاجقجي) حينما طرحوا في العالم أن المرجع السيد السيستاني (دام ظله) يستحق جائزة نوبل فكتب القاجقجي لا ليس فقط جائزة نوبل للسلام، بل يستحق جائزة الملك عبد العزيز وهي أعلى جائزة في المملكة العربية السعودية لماذا؟

قال: لاحظوا نحن عملنا الكثير في الشيعة من إرهاب وقتل وتشريد وكان بإمكان السيد السيستاني أن يُفجِّر الوضع ضدنا حيث يملك هذا الرجل _ مشيراً إلى السيد السيستاني _ الجماهير الكبيرة في أنحاء العالم وكان يمكنه بكلمة واحدة ان يفجر الوضع كله ضدنا لكنه بحكمته الكبيرة وعقله الرشيد احتوى هذا الوضع بعبائته، ثمّ خاطب القاجقجي الوهابيين والسعوديين طالباً منهم أن يعيدوا دراستهم للشيعة.

لقد شاء الله سبحانه وتعالى أن تظهر حقانية شيعة آل البيت بما صبروا، إذا كان الشيعة يريدون أن يكون لهم شأن واستقلال وإرادة وحاكمية في العراق فيجب أن يصبروا، ولقد صبروا وتمتعوا بهذه الروحية والأصالة ببركة تلمذتهم على يد آل البيت وحافظوا على وحدة الصف حيث رفضوا أن يدخلوا في معركة جانبية على حساب المصلحة الإسلامية والوطنية العليا، ولهذا فقد خاضوا معركة الانتخابات بنجاح وكذلك الاستفتاء على الدستور بنجاح أيضاً رغم أن هناك من يحاول أن يستفز الشيعة.

هناك ثلاثة اتجاهات للموقف من الإرهاب:

١ _ موقف الاستسلام.

٢ _ موقف تفجير الحالة والدخول في معركة مستعجلة حيث نقوم بالمثل إرهاب بمقابلة إرهاب.

٣ _ موقف الصبر الحكيم ومواصلة العمل السياسي والتحرك على الدول العالمية ودول الجوار وكذلك التحرك على أهل السنة لاقناعهم وممارسة الأدوات القانونية لتطهير العراق من الإرهاب. وهذا يحتاج إلى جهد كبير من الصبر والإرادة والعزم بهدف بناء العراق وهذا الاتجاه هو الذي اخترناه.

والحمد لله رب العالمين

* * *

المحاضرة الثلاثون:

الجهاد

أنواعه ومستوياته ونماذجه

«وأمــرتم بــالمعروف ونهيــتم عــن المنكــر وجاهدتم في الله حق جهاده».

هـذا المعنـى يتكـرر فـي وصـف أهـل البيـت علـيهم أفضـل الصـلاة والسـلام فـي العديـة مـن الروايـات، حيـث نقـرأ فـي هـذه الزيـارة الجامعـة لكـل أئمّـة الهـدى «أقمـتم الصـلاة وآتيـتم الزكـاة وأمـرتم بـالمعروف ونهيـتم عـن المنكـر وجاهـدتم فـي الله حـق جهـاده» وهكـذا نقـرأ فـي زيـارة أميـر المـؤمنين «أشـهد أنـك جاهـدت فـي الله حـق جهـاده» فـي إشارة إلى المهمات الكبرى الخمس في الإسلام.

كبريات الإسلام:

هنـاك كبريـات عقائديـة وكبريـات عمليـة. (التوحيـد، العـدل، النبـوة، الإمامـة، المعـاد) هـذه كبريـات عقائديـة نسـميها (أصـول الـدين) لكـن هنـاك كبريـات عمليـة وهـي خمـس طالمـا أشـار إليهـا القـرآن الكـريم وهـي (الصـلاة، الزكاة، الأمر بالمعروف، النهي عن المنكر، الجهاد في سبيل الله).

هـذه الزيـارة الجامعـة تؤكـد هـذه المهمـات الخمسـة بـالقول: «أشـهد أنكـم أقمـتم الصـلاة وآتيـتم الزكـاة وأمـرتم بـالمعروف ونهيـتم عـن المنكـر وجاهـدتم في الله حق جهاده».

هذا معناه أن هناك خمس قضايا كبرى مهمة جداً، نعتقد أن أهل البيت كانوا القمة فيها، كما أنهم في العلاقة مع الله كانوا يمثلون القمة (الصادقون، المقربون، المتقون، المهديون، المصطفون) هذا في العلاقة مع الله تعالى.

وفـي أداء المهمـات الإسـلامية الكبـرى أيضـاً هـم أول النـاس فيهـا «لا يسـبقهم سـابق ولا يلحـق بهـم لاحـق»، فـلا أحـد يسـبق أهـل البيـت فـي إقامـة الصـلاة أو يسـبقهم فـي إيتـاء الزكـاة وقـد نـزل فـيهم: ﴿وَيُطْعِمُـونَ الطَّعَـامَ عَلَـى حُبِّـهِ

مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾[1] ولا أحد يسبقهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا في الجهاد في سبيل الله، الجهاد حق الجهاد، حيث يوجد جهاد بسيط ويوجد حق الجهاد، فهذه الاشارة في القرآن تتكرر في مكانين فمرة يقول: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾،[2] ومرة يقول: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾.[3] وان أعلى مراتب الجهاد هو الجهاد الحقيقي، فيوجد جهاد شكلي محدود ويوجد جهاد دائم ومطلق ويوجد جهاد بالمال ويوجد جهاد بالأنفس ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾.[4]

أهل البيت عليهم السلام جاهدوا في الله حق الجهاد بالأموال كذلك بالأنفس.

في كل الجوانب يجب أن يكون الإنسان مجاهداً، هذا معنى حق الجهاد.

المعنى العام للجهاد:

الجهاد بالمعنى العام القرآني لا يعني فقط القتال، اليوم في الاصطلاح الفقهي في كتاب الجهاد، يقصدون به الجهاد بالمعنى الخاص، أي القتال ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾،[5] ﴿قَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾.[6] هذا جهاد بالمعنى الخاص وهو القتال، والمجاهد في سبيل الله بمعنى المقاتل في سبيل الله.

لكن القرآن الكريم يعطي معنىً عاماً للجهاد هو أوسع من القتال ﴿يا

(١) الإنسان: ٨.

(٢) آل عمران: ١٠٢.

(٣) الحج: ٧٨.

(٤) النساء: ٩٥.

(٥) النساء: ٧٥.

(٦) النساء: ٧٦.

أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[١] الجهاد في سبيل الله بالمعنى العام يصدق على كل مجاهدة من أجل إعلاء كلمة الله تعالى، فكل محاولة وكل عمل من أجل إعلاء كلمة الله هذا يسمى جهاداً وفي هذا المعنى يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾.[٢]

أكثر ما جاء في آيات الجهاد جاء بالمعنى العام وليس بالمعنى الخاص، ولهذا نحن نجد أن أهل البيت عليهم السلام جميعاً يوصفون بالجهاد «وجاهدتم في الله حق جهاده» هذا ينطبق على الإمام علي عليه السلام الذي قاتل في بدر وأحد وصفين والجمل وينطبق على الإمام الحسن عليه السلام والإمام الحسين عليه السلام والإمام زين العابدين عليه السلام الذي لم يقاتل كما ينطبق على الإمام الباقر عليه السلام الذي لم يقاتل وعلى الإمام الصادق عليه السلام الذي لم يقاتل وينطبق على الإمام موسى بن جعفر الذي صبر في السجون، هذا كله جهاد.

نحن لا نستطيع وفق المفهوم القرآني أن نقول إن الإمام الصادق عليه السلام لم يجاهد، وكذالك الإمام الباقر عليه السلام، لأنهم لم يشتركوا في الغزوات والحروب، الجهاد بالمعنى العام هو كل عمل من أجل الله وإعلاء كلمة الله ولهذا سوف يصبح لدينا جهاد بالمال وكذلك جهاد باللسان، كما جاء في الحديث: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر».

الجهاد السياسي الثقافي:

هناك أيضاً الجهاد السياسي وكذلك الجهاد الثقافي، اليوم نحن نمر في مرحلة الجهاد الثقافي ومرحلة الجهاد السياسي، الحضور اليوم في الساحة الثقافية والسياسية هو بناء العراق هذا أيضاً يعتبر جهاداً، الحضور في

---

(١) المائدة: ٣٥.

(٢) العنكبوت: ٦٩.

الانتخابات هو جهاد سياسي، الحضور في المجالس الدينية هو جهاد ثقافي، وكذلك الحضور في المجالات الثقافية المختلفة فإنه يعتبر جهاداً وهو مشمول بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا﴾.

هذه الزيارة التي تقول: «وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وأمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر وجاهدتم في الله حق جهاده» إنما يريد أن يدفع التهم عن أهل البيت لأنهم تعرضوا إلى تهمة (الاعتزال السياسي) و(التخلف الجهادي) فقد قيل لأهل البيت عليهم السلام إنكم تخلفتم عن الجهاد بعد مقتل الإمام الحسين عليه السلام ثمّ اعتزلتم سياسياً، هذه تهمة وجهت إلى أهل البيت عليهم السلام، لأن الإمام الصادق عليه السلام والإمام الباقر عليه السلام انصرفوا إلى الأمور العلمية والثقافية والإمام زين العابدين عليه السلام انصرف إلى الدعاء حتّى قيل لهم إنكم تركتم الجهاد لأن الجهاد فيه مشقة وصعوبة وذهبتم إلى الأمور البسيطة.

عبّاد البصري:

الإمام السجاد عليه السلام التقى به عبّاد البصري وهو من الشخصيات المعروفة، فوجّه له هذا الاتهام.

قال: يا عليّ بن الحسين تركت الجهاد وصعوبته وأقبلت على الحج ـ لأن الإمام زين العابدين كان يذهب للحج كل عام ويذهب ماشياً من المدينة إلى مكّة ـ، إن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾.(١)

الإمام زين العابدين قال له: أكمل الآية فقرأ عبّاد تتمة الآية ﴿التَّائِبُونَ

---

(١) التوبة: ١١١.

الْعابِدُونَ الْحامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.(١)

فلما قرأ ذلك قال له الإمام عليه السلام: «إذا وجدنا من هذه صفتهم فالجهاد معهم أفضل من الحج».(٢)

الإمام يريد أن يقول له ان الجهاد الشرعي هو حينما يكون مع قيادة شرعيّة أما الجهاد مع يزيد بن معاوية فليس جهاداً.

شروط الجهاد:

وسوف نعرف الفرق بين الجهاد وبين الإرهاب، فنحن نعرف جيداً أن الجهاد له شروط والإرهاب له خصوصيات.

فالجهاد الإسلامي له أربعة شروط:

الشرط الأوّل: سلامة الأهداف:

﴿يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، ﴿وَجاهِدُوا فِي اللَّهِ﴾ **هذا هدف، أن يكون القتال في سبيل الله وليس في سبيل الشيطان.**

الشرط الثاني: سلامة القيادة:

أن تكون القيادة شرعية، أما إذا كان جهاداً تحت راية جائرة ظالمة منحرفة، فإنها تسوّق العملية كلها لصالحها وليس لصالح الإسلام.

إن الكثير مما يجري من العمليات المسلّحة التي يقودها الإرهابيون هنا في العراق بعنوان الجهاد والمقاومة هو في الحقيقة ليس في سبيل الله وإنما في سبيل مواقع سياسية، وفي سبيل الشيطان.

---

(١) التوبة: ١١٢.

(٢) أنظر: الكافي ٥: ٢٢/ ١.

الشرط الثالث: القدرة والاستطاعة:

إن الشرط الثالث في الجهاد الإسلامي الواجب هو القدرة والاستطاعة ولهذا فإن الإنسان إذا لم يكن لديه قدرة تتناسب مع حجم المشروع، فإن الجهاد يسقط عنه.

الإمام الحسن عليه السلام لم يكن يرى أن المشروع القتالي مع معاوية يحقق نتيجة رابحة. والإمام الصادق لم يكن يرى أن المشروع القتالي مع الحكم الأموي يحقق نتيجة رابحة، لأن شروطه غير متوفرة. القدرة شرط، ولهذا فإن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يقول في خطبته في نهج البلاغة: «أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا فُلَانٌ وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّي مِنْهَا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَى يَنْحَدِرُ عَنِّي السَّيْلُ وَلَا يَرْقَى إِلَيَّ الطَّيْرُ فَسَدَلْتُ دُونَهَا ثَوْباً وَطَوَيْتُ عَنْهَا كَشْحاً وَطَفِقْتُ أَرْتَئِي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَدٍ جَذَّاءَ **ـ أي أني فكرت أن أقاتل لكن لا توجد لديَّ يدٌ أي أنصار ـ** أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طَخْيَةٍ عَمْيَاءَ يَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ وَيَشِيبُ فِيهَا الصَّغِيرُ وَيَكْدَحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَحْجَى **ـ رأيت أن شروط الجهاد غير متوفرة فتكون تضحية بدون هدف، والإنسان المسلم يفكر بالأهداف وليس إنساناً متهوّراً ـ** فَصَبَرْتُ وَفِي الْعَيْنِ قَذًى وَفِي الْحَلْقِ شَجًا أَرَى تُرَاثِي نَهْباً».[1]

الشرط الرابع: سلامة المناهج والأساليب:

فالجهاد يجب أن لا ينحرف عن المناهج الصحيحة والأخلاقية، أما التمثيل بالناس وإحراق الدور وتقطيع الأوصال والرؤوس هذا لا يسمى جهاداً، هناك أصول أخلاقية في القتال، وسوف يكون أرهاباً إذا لم تتوفر هذه الشروط.

تعريف الإرهاب:

ونستطيع أن نذكر مجموعة معالم للعمل الإرهابي، أوّلاً: الأهداف غير سليمة والقيادة غير شرعية، ثانياً: فالقيادة التي تقتل الحسين، والتي تسبي زين

(١) نهج البلاغة: خ ٣.

العابدين، أو التي تأسر بنات أمير المؤمنين، هل هذه قيادة شرعية؟ اذن لا يوجد سلامة في الأهداف أوّلاً، ولا يوجد سلامة في القيادة ثانياً، وثالثاً: لا يوجد سلامة حتى في المناهج. هو قتال لكن بطريقة «يا خيل الله اركبي ودوسي صدر الحسين» هل هذا قتال في سبيل الله؟ أو أن رأس الحسين يطاف به في البلدان من بلد إلى بلد ثمّ يوضع أمام يزيد بن معاوية ثمّ يضربه بالسوط. إذن هذه مناهج غير سليمة.

اليوم ما يجري في العراق من أعمال قتالية ليس جهاداً في سبيل الله، ما يجري في العراق هو إرهاب بدليل أنه لا سلامة في القيادة ولا سلامة في الأهداف ولا سلامة في المناهج، ثلاثة أمور غير متوفرة فالقيادة هي قيادة أتباع صدام والقتلة البعثيين. فهي ليست قيادة شرعية، وأيضاً لا توجد سلامة في الأهداف فهؤلاء لا يقاتلون في سبيل الله بل يقاتلون من أجل عودتهم للحكم، اذن لا توجد سلامة أهداف وأيضاً لا توجد سلامة مناهج، فاذا كان الهدف هو طرد الاحتلال، اذن ما معنى الهجوم على الجامعات والأسواق والمستشفيات، لقد قتل في هذه العمليات الإرهابية أكثر من خمسة آلاف بريء بين طفل وامرأة والقتل بقطع الرؤوس والتمثيل بهم، هذا لا يمكن أن يعتبر جهاداً في سبيل الله، فالمسلم والمؤمن لا يعمل ذلك بالحيوان فضلاً عن الإنسان، هذا الذي يجري هو إرهاب.

أما رؤيتنا فيجب أن ندخل مرحلة بناء العراق، فبناء العراق هو جهاد في الحقيقة لكن جهاد سياسي واعلامي ومالي فاليوم يجب أن نشارك لبناء هذه البلاد المنهكة والمدمّرة، وكل مشاركة منا هو جهاد في الحقيقة، فالناس الذين شاركوا في الانتخابات جاهدوا جهاداً حقيقياً، والذين يشاركون في صلاة الجمعة ويذهبون إلى المساجد والحسينيات وهي مهدّدة بالخطر فهذا جهاد حقيقي في سبيل الله.

إذن هذا النص الذي يقول: «وجاهدتم في الله حق جهاده» يريد أن يدفع عن أهل البيت عليهم السلام تهمة الاعتزال السياسي والتخلف الجهادي.

قصتان في معركة تبوك:

في معركة تبوك حينما خرج رسول الله صلى الله عليه وآله من المدينة المنورة وترك على المدينة عليّ بن أبي طالب توجد قصتان:

القصة الأولى: إن المنافقين جاءوا وأشاعوا شائعة في المدينة المنورة أن رسول الله صلى الله عليه وآله أهملَ عليّاً وتركه تشؤماً به، المعركة الوحيدة التي لم يشترك فيها عليّ عليه السلام هي معركة تبوك لأن رسول الله صلى الله عليه وآله أمره أن يبقى والياً على المدينة فلما خرج النبي انتشرت الشائعات أن رسول الله هجره وقلاه وأعرض عنه، ولو كان يحبّه كان أخذه معه، هذه شائعة انتشرت كالنار في الهشيم، إلى مستوى أن عليّاً عليه السلام خرج ملتحقاً برسول الله باكياً، أي أن الهزة السياسية كانت بمستوى أن عليّاً وهو البطل العملاق خرج باكياً يقول: يا رسول الله أنت تركتني في المدينة وأصبحت الشائعات هكذا تقول وهنا جاء حديث المنزلة فقال صلى الله عليه وآله: «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبي بعدي يا عليّ لا ينبغي أن أخرج من المدينة إلاّ وأنت فيها» هذا وسام عظيم أعطاه رسول الله لعليّ وسامٌ فيه دلالتان دلالة على موقع الإمام علي، ودلالة على أنه لا يوجد كفوء لقيادة المدينة المنورة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله إلا عليّ عليه السلام هذه هي القصة الأولى.[1]

أما القصة الثانية: في تبوك فهي أن مجموعة من الضعفاء قالوا: يا رسول الله نحن ليس لدينا قدرة أن نخرج معك، الرواية تقول إن هؤلاء لم يكن لديهم نعال يستطيعون أن يستعينوا به على المشي في الرمال الحارّة. لكن

---

(١) أنظر: البحار ٣٧: ٢٦٧.

كانت قلوبهم مع الجهاد، كما قال تعالى: ﴿قُلْتَ لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾.(١)

قالوا: يا رسول الله اما تعطينا أحذية نلبسها أو تركبنا على الخيل.

النبي قال ليس لديَّ قدرة ارجعوا أنتم معذورون، فرجعوا وأعينهم تفيض من الدمع، القرآن يقول إن هؤلاء ليس عليهم عَتب فهم معذورون لأن الشرط الثالث في الجهاد وهو شرط القدرة غير متوفر فيهم.

اقرأ لكم الآية: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذا ما أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُوا ما يُنْفِقُونَ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِياءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ﴾(٢) (٣).

والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(١) التوبة: ٩٢.

(٢) التوبة: ٩١.

(٣) أنظر: تفسير أبي حمزة الثمالي: ١٩١.

المحاضرة الحادية والثلاثون:

المحافظة على السنّة

«حتّى أعلنتم دعوته، وبينتم فرائضه، وأقمتم حدوده، ونشرتم شرائع أحكامه، وسَنَنْتُم سُنَّته».

حديثنا الليلة عن هذا المقطع من الزيارة «وسننتم سنّته» الذي يعني ان أهل البيت عليهم السلام سنّوا سنة الله تعالى.

ما معنى السنة؟

وما هي سنة الله تبارك وتعالى؟

وكيف أن أهل البيت سنّوا سنة الله تعالى وبأي صورة؟ هذه بحوث نقف عندها هذا اليوم:

معنى السنّة:

السنّة في اللغة: بمعنى السلوك الثابت والمستمر والذي يتحول من خلال ثباته واستمراره إلى الأمر الذي يقرّه الانسان ويلتزمه ويتبناه عملياً بنحو دائم وثابت هذا يسمى طريقة ومنهج وخطةوعادة لا تتغيّر. طبعاً هذه ليست خاصة بالإنسان، فالإنسان له سنة، الله تبارك وتعالى له سنة، الطبيعة لها سنّة، وهكذا.

الله تبارك وتعالى له سنّة وله أمور قد التزمها وتبناها مع الإنسان والكائنات الأخرى ومع كل الوجود، القرآن الكريم يشير الى مجموعة من السنن والقوانين الإلهية.

سنّة الله:

لدينا ثلاثة أمور في القرآن: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ﴾ و﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ و﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾.

فطرةُ الله: بمعنى الشكل التأسيسي الأوّل للخلق، حيث أن الله تعالى فَطَر الناس على التوحيد وقال: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾.[1]

---

(١) الروم: ٣٠.

صبغةُ الله: أي المظهر الخارجي الذي صُبغَ عليه الخلق ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾.[١]

سنّة الله: بمعنى القانون الإلهي في الكون قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾.[٢]

نماذج من السنّة الإلهية:

القرآن الكريم يشرح لنا مجموعة سنن، مثل سنة بعثة الأنبياء حيث يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾،[٣] **أي أن الله تعالى يقول لا يمكن أن أعذّب أمة من الأمم دون أن أبعث لهم نبياً وأقيم عليهم الحجة هذه قاعدة.**

نموذج ثاني للسنن الإلهية هي سنّة التغيير كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[٤] **فإن الله تعالى لا يرفع البلاء عن الناس أو يسلب منهم النعمة إلاّ أن يغيّروا أنفسهم، هذه سنة من سنن الله تعالى.**

ونموذج ثالث قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾[٥] **الذي يؤكد أن الله تعالى يقول عهدٌ عليّ أن الخائن لا يوفّق ولا يهتدي ولا ينجح.**

ونموذج رابع قوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾[٦] **هذا قانون إلهي أن كل من على الأرض لا بدّ أن يموت.**

---

(١) البقرة: ١٣٨.

(٢) الأحزاب: ٦٢؛ الفتح: ٢٣.

(٣) الإسراء: ١٦.

(٤) الرعد: ١١.

(٥) يوسف: ٥٢.

(٦) الرحمن: ٢٦ و٢٧.

ونموذج خامس قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[١] **الله تعالى يقول انا أخذت على نفسي عهداً أنه اذا كان النبي موجوداً فلا ينزل العذاب على الناس وكذلك إذا كان الناس يستغفرون انا أيضاً لا أنزل العذاب عليهم، ولهذا في قصة لوط على نبينا وعليه الصلاة والسلام يقول القرآن الكريم:** ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾[٢] **حيث ان الله تعالى أمر لوطاً بالخروج من قريته، فمجرد أن خرج لوط من القرية نزل عليهم العذاب.**

قابلية السنن للتغيير:

أطرح عليكم سؤالاً: ان هذه السنن الإلهية هل هي قابلة للتغيير أم غير قابلة للتغيير؟

القرآن يقول إن السنن الإلهية ليست قابلة للتغيير ﴿لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾،[٣] ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ **أي ان الشيء الذي يقدّره الله ويجعله سنة، لا يتغيّر، لكن قد يحدث أحياناً غلبة سُنَّة على سُنَّة وغلبة قانون على قانون.**

مثلاً القضاء الإلهي يخضع للدعاء.

هذه هي سنّة من سُنن الله تبارك وتعالى «وبقضاءك المبرم الذي تردُّه بأيسر الدعاء»[٤] فأصبح لدينا إذن قضاء ولدينا دعاء، ويوجد قانون إلهي يقول الدعاء يغلب القضاء، من الممكن افتراض أن الله تعالى قد قدّر لهذا الطفل أن يموت لكن إذا دعا أهله دعاءاً صالحاً فإن الله تعالى قد يستجيب ذلك الدعاء

(١) الأنفال: ٣٣.

(٢) هود: ٨١.

(٣) فاطر: ٤٣.

(4) مقطع من دعاء السمات.

وسوف يبقى الطفل حياً، ولا يقول قائل إن الله تعالى قد قدّر له في اللوح المحفوظ أن يموت، فكيف لا يموت؟

الجواب: أنه هناك تزاحم وتغالب بين سُنّة وسُنّة أخرى وبين مادة بالقانون ومادة أخرى بالقانون واحدة تغلب الأخرى، فهذا في الحقيقة ليس تبديلاً في السُنّة الالهيّة بل هو خضوع للسنّة الإلهية، «الصدقة _ مثلاً _ تدفع ميتة السوء»[1] ربما كان مكتوباً أن يموت هذا الشخص بحادث سير لكن جاءت الصدقة فدفعت ذلك، فأطالت عمره هذا يعتبر قانوناً ثانياً أصبح حاكماً على القضاء الإلهي الأوّل.

قصة حامل الحطب:

مثال ذلك هناك رواية تقول في زمن النبي ﷺ قال النبي للناس: هناك رجلٌ سوف يموتُ غداً، وأصبح اليوم التالي وجاء هذا الرجل في الصباح حياً وهو يحمل رزمة من الحطب فتعجب المسلمون عندما رأوا هذا الرجل الذي قال النبي ﷺ أنه سوف يموت، فذهبوا إلى رسول الله ﷺ وقالوا له إن الرجل لم يمت فقال النبي ﷺ للرجل افتح حزمة الحطب فلما وضع الحطب على الأرض وانفتحت الرزمة خرج منها أفعى ميت، حيث كان قد ابتلع قطعة من الحطب واختنق بها ومات فسأل النبي ﷺ الرجل ماذا فعلت بالأمس؟

قال الرجل: كان معي رغيفين من الخبز وفي الطريق رأيت كلباً جائعاً ألقيت له قطعة من الخبز، فقال رسول الله ﷺ هذا الذي دفع عنك ميتة السوء،[2] هذا في الحقيقة ليس رداً للقضاء الإلهي بل القضاء الإلهي سُنّة، وسنة الله لا تجد لها تبديلا لكن قد تدفع سُنّة بسنة أُخرى.

---

(1) المقنع: ٢٩٥.

(٢) أنظر: الكافي ٤: ٥/ ٣.

الاستثناء من القاعدة:

القرآن الكريم يذكر لنا نموذجاً لاستثناء وخروج عن القاعدة الإلهية الثابتة وذلك في قصة نبي الله يونُس على نبينا وعليه الصلاة والسلام.

القرآن الكريم يقول: ﴿فَلَوْلا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ﴾[1] إن الله تعالى يقول إذا نزل العذاب السماوي على أمة من الأمم فلا يتغير، أي ان الإيمان والإسلام في اللحظات الأخيرة لا ينفع، والتوبة إذا نزل الموت لا تفيد، مثل فرعون عندما غرق في البحر قال: اللهم اني تبتُ إليك فلم ينفعه ذلك لأن التوبة يجب أن تكون قبل نزول الموت.

القرآن الكريم يذكر حالة واحدة كان الله تعالى قد استثناها حيث يقدم لنا نموذجاً للدلالة على أن كل قضاء إلهي يمكن أن يخضع لبعض الشرائط، ويمكن أن يتغير حسب الإرادة الإلهية، فقوم يونس نَزَل عليهم العذاب وأصبحوا يرون العذاب قد أحاط بالمدينة التي هم فيها، وكان النبي يونس أخبرهم أنه سينزل عليكم العذاب وأنا خارج عنكم قال تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾[2] حيث تركهم واكفهرَّت السماء، حُمرةً مرّة وصفرةً مرّة وزرقة مرة، فعرف الناس أن العذاب نَزَل.

القرآن يقول إذا نزل العذاب فلا يرتفع إلا في قصة قوم يونس حيث أنهم آمنوا وضجوا بالبكاء وفي اللحظات الأخيرة قَبِلَ الله توبتهم ﴿فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ﴾،[3] هذه حالة واحدة يريد أن يجعلها الله لنا كنموذج حتّى لا يكون عند الإنسان يأس أنه يمكن حتّى في اللحظات الأخيرة أن تُقبَل التوبة.

---

(١) يونس: ٩٨.

(٢) الأنبياء: ٧٨.

(٣) الزخرف: ٥٠.

القاعدة هي أن لا تُقبل التوبة ﴿فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾[1] أي ان القرآن يقول لا توجد قرية تؤمن في اللحظة الأخيرة وينفعها ذلك الإيمان إلا في حالة واحدة جعلها الله نموذجاً ومثّلاً للبشرية حتّى لا ييأسوا وهي حالة قوم يونس.

إذن الله تبارك وتعالى له سنن.

سؤالنا اليوم كيف أن أهل البيت عليهم السلام سنّوا سُنَّة الله تبارك وتعالى؟

سنّة النبي صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام:

قبل ان نتحدث عن سنة الله لدينا سنَّة رسول الله، مالمقصود بسنة رسول الله؟

سُنَّة أهل البيت ما المقصود بها؟

السُنَّة هي عبارة عن شيء أقرّه الرسول إما قولاً أو فعلاً أو تقريراً وإمضاءاً يعني ـ مثلاً ـ كانت سُنَّة رسول الله صلى الله عليه وآله أن يصوم شهر رمضان صياماً واجباً ويصوم شهر شعبان صياماً مستحباً فهذه سُنَّة، وكان عليّ عليه السلام يقوم بهذه السُنَّة، إن كل ما قاله رسول الله صلى الله عليه وآله كتشريع يُسمى سُنَّة، لأن هذه الأقوال النبوية هي عبارة عن قرار لتشريعات عملية أي أن النبي يعطينا منهجاً لهذا يُسمى سُنَّة، في الحقيقة القول ليس سُنَّةً إنما العمل هو السُنَّة، لكن حينما تكون هذه الأقوال هي التي تقرر الطريقة كقوانين سمّيت الأقوال سُنة هذا هو معنى سنَّة النبي صلى الله عليه وآله القول أو الفعل أو الامضاء.

الفقهاء يقولون السُنَّة عبارة عن قول النبي أو فعل النبي أو إمضاء النبي لفعل معين يجري أمامه ولا ينهى عنه.

أهل البيت عليهم السلام سنَّوا سنَّة الله تعالى «سننتم سنته»، فالسنن الإلهية:

---

(١) يونس: ٩٨.

أوّلاً: أهل البيت بيّنوها لنا.

ثانياً: أهل البيت التزموا بها عملياً.

ثلاثة سُنن:

توجد رواية عن الإمام الرضا عليه السلام تقول «لا يؤمن أحدكم حتى تكون فيه ثلاث خصال، سُنَّة من ربّهِ وسُنَّة مِن نبيّه وسُنَّة مِن إمامه.

أما السُنَّة مِن ربّه فكتمان سِرّه _ أي ان المؤمن يكون كتوماً لا يكشف الأسرار سواءاً الأسرار الدينية أو السياسية أو العائلية فهو ليس من أهل شائعات، فهذه السُنَّة هي صِفة إلهية لقوله تعالى: ﴿لا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِه أَحَداً * إِلاَّ مَن ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ﴾[1] أي ان الله تعالى لا يُطلِع على غَيبه كلَّ النَاس وإنما الأسرار بيِّنها إلى رُسُلِهِ بل إلى بَعضِ رُسُله.

السُنَّة الثانية: سُنة من نَبيّه وهي مداراة الناس، فإن النبي كان أحد خصوصياته أن يداري الناس، حيث الإسلام هو دين الرحمة.

السنّة الثالثة: سنة من إمامه وهي الصبر في البأساء والضرّاء.

قصة المسيحي الذي صار مسلماً:

في يوم ما كان هناك رجل مسيحي دعاه مسلم إلى الإسلام فأسلم وقال: أشهد ان لا إله إلاّ الله وأن محمّداً رسول الله، ثمّ قال: ماذا أفعل؟

قال له المسلم تعال إلى المسجد حتّى نُصلي صلاة الظهر، وكان ما أراد وانتهت الصلاة فقال: لنذهب إلى البيت للغداء.

قال له المسلم: فلننتظر حتّى نصلي العصر، وبعد إنهاء صلاة العصر قال المسيحي لنعد إلى البيت.

---

(١) الجن: ٢٧.

فقال المسلم: انتظر إلى صلاة المغرب فاستجاب له المسيحي وانتظر حتّى المغرب وبعد الصلاة قال له المسيحي: فلنذهب إلى البيت، فقال المسلم: فلننتظر صلاة العشاء، وهكذا انتظر وصلى صلاة العشاء وبعدها ذهب إلى البيت.

في اليوم التالي ذهب إليه المسلم يدعوه إلى الصلاة، فقال له المسيحي من وراء الباب: اذهب إلى غيري ممن لا شغل له وليكن مثلك مسلماً، أمّا أنا فتركتُ الإسلام.

هذه في الحقيقة قسوة، ولهذا فإن الإمام الرضا الذي ينقل هذه القصة[1] يقول: ليس في الصحيح القسوة على الناس في الدعوة بل تعاملوا معهم بلطف.

الأعرابي يدخل الإسلام:

أحياناً كان يأتي أعرابي إلى النبي ﷺ يقول: يا رسول الله علمني الإسلام.

النبي لم يشرح له أصول الدين وفروع الدين، بل قال له: لا تكذب.

قال الأعرابي: هذا هو الاسلام؟

قال له النبي ﷺ: نَعم.

وذهب الأعرابي وقد أعجبه كلام النبي ﷺ ودخل الإسلام.

أحياناً يقول النبي لمن يسأله عن الإسلام: لا تغضب.

انظروا إلى مداراة الناس، فإن كل شخص يجب أن تعطيه استحقاقه وتلاحظ مدى قابليته، إن من غير الممكن أن كل الناس نشرح لهم الإسلام بتفاصيله فهم لا يتحملون، هذه هي سُنَّة من نبيّه.

أمّا السُنَّة الثالثة: سُنَّة مِن إمامِه، وهي الصبر في البأساء والضراء.

إن الإنسان المؤمن يجب أن يكون صبوراً أي لا يقول قائل أنا من

---

(1) أنظر: الخصال: ٣٥٤.

شيعة أهل البيت، ولكن أجزع بسرعة، وأخرج عن طوري وعن ديني لماذا الأمور هكذا كانت؟ ليس هكذا يكون الإنسان الشيعي المؤمن، المؤمن يجب أن يكون صبوراً في الضراء والسراء، وبحمد الله تعالى فإن هذا الصبر أصبح من خصائص الشيعة، واليوم فإن ما يجري في العراق هو صبر رائع يقدّمه شيعة أهل البيت في المجال السياسي.

ذكرى شهادة الإمام الرضا عليه السلام:

أنقلكم إلى الإمام الرضا عليه السلام حيث أقرأ هنا عدة روايات وبمناسبة ذكرى شهادة الإمام الرضا عليه السلام.

الرواية الأولى: جاء عن الإمام الرضا عليه السلام: «من زارني على بُعد داري، أتيتُه يوم القيامة في ثلاثة مواطن حتّى أُخلصه من أهوالها، إذا تطايرت الكُتُب يميناً وشمالاً، وعند الصراط، وعند الميزان».(١)

هذه مواقع خطرة يوم القيامة وهي موقع تطاير الكتب، والعبور على الصراط ثمّ الميزان حيث يقول تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ * فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ * وَما أَدْراكَ ما هِيَهْ * نارٌ حامِيَةٌ﴾(٢) **فهذه الموازين قبل اللحظات الأخيرة وقبل أن يصبح فريق في الجنة وفريق في السعير، توجد هناك موازين توضع للإنسان وتوزن أعماله.**

الإمام الرضا يقول أنا أحضر في ذلك الموقف وأخلصه.

الرواية الثانية: يقول عليه السلام: «ما زارني أحد من أوليائي عارفاً بحقي إلا شفعتُ له يوم القيامة».(٣)

---

(١) كامل الزيارات: ٥٠٦/ ٧٨٩ - ٤.

(٢) القارعة: ٦ - ١١.

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٨٩/ ١٦.

والرواية الثالثة: «إن في خراسان لبقعة يأتي عليها زمان تصيُر مختلفَ الملائكة، ولا يزال فوج ينزل من السماء وفوج يصعد إلى أن ينفخ في الصور».

فقيل له: يا بن رسول الله، وأي بقعة هذه؟

قال: «هي بأرض طوس وهي والله روضة من رياض الجنّة، من زارني في تلك البُقعة كمَن زار رسول الله وكَتَب الله له بذلك ثواب ألفَ حِجةٍ مبرورةٍ وألفَ عُمرة مقبولة وكنتُ أنا وآبائي شفعائَه يوم القيامة».[(١)]

التشكيك في فضل زيارتهم:

ما هو الموقف من هذه الروايات؟

هذه الروايات تعطينا يقيناً بالنجاة وبشفاعتهم وحضورهم في تلك المواقف.

ما هو الموقف من تلك الروايات؟

هل يمكن التشكيك فيها؟

ربما يقول قائل هذه الروايات غير صحيحة وهي موضوعة ومكذوبة؟

الجواب: لا يمكن أن تكون روايات مكذوبة؟ لأن هذه الروايات متواترة ويقينية وثابتة بما لا يقبل الشك، وليس فقط هذه الروايات بل هناك مئات الروايات بشأن دور العلاقة مع رسول الله ومع أهل البيت وبشأن التوحيد وفضله وبشأن من قال لا إله إلا الله دَخَل الجنَّة.

رسول الله ﷺ يقول: «إدَّخرتُ شفاعتي لأهل الكبائر من أمّتي»[(٢)] وهي ثابتة عند الفريقين (الشيعة والسنة) وهي تؤكد أن المؤمن سيكون ناجياً يوم القيامة بلا شك كما قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾.[(٣)]

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٨٦/ ٥.

(٢) بحار الأنوار ٨: ٣٠.

(٣) المؤمنون: ١.

لا يمكن التشكيك في هذه الروايات خاصةً وأن الكثير من هذه الروايات هي صحيحة من حيث السَنَد، فالناس الذين يروون هذه الروايات هم علماء ثقاة، وهي ثابتة في عمدة المصادر الشيعية والسنّية وحينئذ هل يعني ذلك أن كل من زار الإمام الرضا وهم ملايين الناس فكلُّهم من الناجين؟ أو أن المسألة خاصة بمجموعة من الناس، أي نحمل هذه الروايات على البَعض وليس على الكل؟

الجواب: الروايات مطلقة وعامة ولا يمكن تخصيصها بعشرة أو مئة أو أكثر من ذلك، الإمام الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: «من زارني على بُعد داري» ومثلها من زار رسول الله وأمير المؤمنين ومن زار الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، أن نحمل هذه الروايات على حالات خاصة فإن هذا ما لا يتحمله صريح الروايات.

أنواع الزيارة:

هناك ثلاث زيارات، زيارة العوام وزيارة الخواص وزيارة أخصّ الخواص.

زيارة العوام: هي زيارة معظم الناس وهي أن تسلّم على الإمام وتصلي ركعتين وينتهي الأمر.

أمّا زيارة الخواص: فهي أن يجلس بعد وضوء وطهارة وغسل ويزور الزيارة الجامعة بخشوع وتوجّه كامل ثمّ يؤدي الصلاة والدعاء بعد الزيارة هذه هي زيارة الخواص.

أمّا زيارة خواص الخواص: بحيث يصل إلى مستوى الحديث مع الإمام، وربما يسمع جواب الإمام.

الشيخ الطوسي مؤسس الحوزة العلمية في النجف الأشرف والذي دفن في بيته وأصبح فيما بعد مسجداً، كانت زيارته من نموذج زيارة أخصّ الخواص، حيث كان لا يكثر الذهاب إلى مرقد أمير المؤمنين بالرغم من أن

بيته قريب من المرقد الشريف، ولما سئل عن ذلك، يا شيخنا الطوسي يا محمّد بن الحسن لماذا تذهب لزيارة أمير المؤمنين مرةً في الأسبوع لا أكثر.

فقال لهذا السائل: أنت عندما تذهب للزيارة هل تسمع جواب الإمام؟

قال السائل: لا.

قال له الشيخ: تعالَ معي إلى سطح الدار، وسلَّم الشيخ الطوسي قائلاً: «السلام عليك يا أمير المؤمنين»، وإذا به يَسمع الجواب: «وعليك السلام يا شيخنا»، وهنا قال الشيخ للسائل: صحيح أنا جالس في البيت ومشغول في خدمة الدين والمذهب لكن أنا هكذا زيارتي.

عجبا هذه الرواية التي تقول: «من زارني على بُعد داري أتيته يوم القيامة» هل هذه خاصة فقط بأخص الخواص، وبقية الناس لا يحصلون على شيء!؟ هناك مئات الروايات في شفاعتهم لمن زارهم، «من زارني كنت أنا وآبائي شفعاءَه يوم القيامة»، فهل إن عشرات من الناس مشمولين بها فقط؟

هذا غير ممكن لأن الروايات فيها تعميم وفيها اطلاق يشمل كل هؤلاء الزوار، الجيد أو غير الجيد، لا بدّ أن يكون له هدية الزيارة وثوابها، هذه الروايات في الحقيقة تشمل زيارة العوام وليس فقط زيارة الخواص وخواص الخواص فهؤلاء جميعاً زيارتهم مقبولة والشفاعة من وراءهم ان شاء الله.

هل يمكن أن يقول قائل: إن هذه الروايات مذكورة على سبيل التشويق والمبالغة؟

الجواب: لا يمكن، هذه الروايات لا يمكن حملها على سبيل التشويق والمبالغة والمجاملة وإلا سوف تكون خداعاً للناس، ان مئات الروايات تؤكد على سبيل اليقين نجاة الزائر وحضور أهل البيت عند مماته.

روايات مضادّة:

هـذه الروايـات اليقينيـة تشـمل الجميـع، لكـن تبقـى عنـدنا مشـكلة أُخـرى وهي ان هذه الروايات معارَضَة بنوع آخر من الروايات نذكر منها نموذجين:

النمـوذج الأوّل: الروايـات التـي تقـول: «لا ينـال شـفاعتنا مـن اسـتخف بالصـلاة»[1] هـذه أيضـاً روايـات يقينيـة ثابتـة، إذن أصـبحت تلـك الروايـات مشروطة بشروط أحدها أداء الصلاة.

النمـوذج الثـاني: الروايـة التـي تقـول: «مـا شـيعتنا إلا مـن اتقـى الله»[2] فـبعض النـاس يفقـدون التقـوى وهـم غيـر ملتـزمين بالأحكـام الشـرعية مئـة بالمئـة، إذن هذه الروايات تعارض تلك الروايات.

كيف نحل مشكلة التعارض؟

مـن ناحيـة فـإن الروايـات تبشـر الزائـر بالشـفاعة وحضـور أهـل البيـت عنـد قبـره وحشـره ونشـره، ومـن ناحيـة أخـرى الروايـات تقـول لا تنـال شـفاعتنا مسـتخفاً بالصلاة.

يوجـد حـلٌ واحـد ذَكَرتـه بعـضُ الروايـات تقـول: «إنـي لا أتخـوّف علـيكم النـار وإنّمـا أتخـوف علـيكم البـرزخ»[3] أي ان الإمـام عليه السلام يقـول أنـتم بالتأكيـد مَعنـا يـوم القيامـة لكـن المشـكلة هـي فيمـا قبـل يـوم القيامـة، أمّـا يـوم القيامـة فالروايـات تقـول: «والله لا يـدخل النـار مـنكم عشـرة رجـال ـ ثـم تقـول ـ والله لا يـدخل النـار مـنكم واحـد»[4] هـذا عنـد العـرض علـى الله تعـالى لكـن «إنمـا اتخـوّف عليكم من البرزخ».

---

(١) الكافي ٣: ٢٧٠/ ١٥.

(٢) الكافي ٢: ٧٤/ ٣.

(3) منازل الآخرة: ١٦١.

(٤) أمالي الطوسي: ٢٩٦/ ٥٨١ - ٢٨.

ما هو البرزخ؟

البرزخ: مرحلة ما بين الدنيا والآخرة، ما بعد الموت إلى يوم القيامة، يمكن أن تطول ألف سنة أو آلاف السنين أو ملايين السنين وعلم ذلك عند الله وحدهُ، فالخطر هنا، فشفاعة أهل البيت يوم القيامة محفوظة لكن ما قبل أن نصل إليهم ماذا نعمل؟ هل عندنا ضمان أن شفاعتهم تصل إلينا في اللحظة الأولى؟

لا يوجد لدينا ضمان، صحيح لدينا ضمان بشفاعة رسول الله لكن الخطر في فترة البرزخ وقبل يوم القيامة هذه الشدائد والمخاطر في القبر.

في الحقيقة فأنني اذكر لكم هذه الروايات كبشارة يقينية بالنجاة يوم القيامة، لكن أئمتنا يطلبون منّا ان نحتاط للبرزخ.

* * *

نموذج صبر الامام الحسين في يوم عاشوراء.

لاحظوا هناك صبر على الطاعة وصبر على المعصية وصبر على المصيبة، الإمام الحسين عليه السلام كل هذه الأنواع جسدها في عاشوراء، صبرٌ على الطاعة فالإمام الحسين يوم عاشوراء اجتمع لحربه ثلاثون ألفاً لكن مع هذا عندما حان وقت الصلاة قام يصلي، إن هذه طاعة في أشد الظروف وهذا هو الصبر على الطاعة.

وصبر على المعصية فحينما أغراه ابن زياد بالأمان والتسليم ليزيد سقطت كل تلك الاغراءات أمام الإمام الحسين، فالإمام غير مستعد أن يتنازل للأعداء.

وصبرٌ على المصيبة فإن أشد ما يكون الصبر هو صبر الإمام الحسين، من أعظم الصبر الصبر على فقدان الأحبة. الامام الحسين يجلس عند ولده علي الأكبر يقول: «على الدنيا بعدك العفى».

إنا لله وإنا إليه راجعون

* * *

المحاضرة الثانية والثلاثون:

القضاء الإلهي

«وصرتم في ذلك منه إلى الرضا وسلَّمتم له القضاء وصدقتم من رسله من مضى».

حديثنا هذه الليلة في سلسلة الأحاديث في شرح الزيارة الجامعة المروية عن الإمام الهادي عليه السلام عن هذا المقطع من الزيارة «وسلّمتم له القضاء» التسليم للقضاء الإلهي، هذا هو وصف لأهل البيت عليهم السلام، حينئذ يجب أن نعرف معنى القضاء، لغةً وقراناً وفقهاً، ثمّ فلسفة التسليم لله تبارك وتعالى ومنزلة ذلك في الإسلام، ثمّ كيف كان أهل البيت قد سلّموا الأمر، إضافة إلى نقاط تأتي في طيات البحث.

هذه مجموعة أبحاث.

البحث الأوّل: معنى القضاء:

القضاء في الفقه له معنى، وفي القرآن له معاني أخرى.

الفقه حينما يتحدث عن القضاء فهو يعني القضاء في مقابل الأداء، تقول قضاء الصلاة في مقابل أداء الصلاة، بمعنى الإتيان بشيء في خارج موعده هذا يسمى بالقضاء في الفقه مقابل الأداء وهو الإتيان بالشيء في موعده الزمني. كما تستعمل كلمة (القضاء) في الفقه في مجال الحكم وحل المنازعات.

معاني القضاء في القرآن:

لكن القرآن يتحدث عن معاني أخرى وهنا الزيارة أيضاً تتحدث عن معاني أخرى.

القضاء في القرآن الكريم يأتي بمعان ثلاثة:

المعنى الأوّل: القضاء التشريعي:

وهو يعني حُكم الله تعالى في الشريعة، القرآن الكريم يقول: ﴿وَقَضَى

رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً﴾[(١)] يعني ان الله تعالى شرّع ذلك، إصدار الحكم التشريعي يسمى قضاءً.

مثلاً قوله: ﴿وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾[(٢)] **أي أن الله تعالى إذا قضى بشيء أو رسول الله أمر بشيء فإنه لا يجوز للمؤمنين أن يكون لهم رأي آخر، هذا هو القضاء التشريعي.**

المعنى الثاني: القضاء التكويني:

يعني أن الله تعالى يقدّر الأمور تقديراً ويكوّنها تكويناً، هكذا يقول سبحانه: ﴿إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[(٣)] **هنا القضاء ليس بمعنى تشريع وجوب الصلاة والصوم، وإنما بمعنى التقدير التكويني، قضى أن يعيش هذا الإنسان وقضى أن يموت هذا الإنسان أو أن يكون غنياً أو فقيراً. القرآن الكريم أيضاً يقول عن خَلق السموات والأرض** ﴿فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماوات﴾[(٤)] **المقصود هنا ليس القضاء التشريعي أي حَكَمهنّ سبعة، كَلاّ، وإنما أوجدهنّ سبعة، فقضاهن بمعنى خَلَقَهنّ، وبمعنى القرار التكويني والقضاء الخَلقي.**

المعنى الثالث: الانتهاء:

انتهى الشيء، يقول القرآن الكريم: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾،[(٥)] **هذا ليست بمعنى الحكم التشريعي ولا بالمعنى التكويني، لكن بمعنى انتهى، وكذا قوله في سورة الجمعة:** ﴿فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي

(١) الإسراء: ٢٣.
(٢) الأحزاب: ٣٦.
(٣) البقرة: ١١٧؛ آل عمران: ٤٧؛ غافر: ٦٨.
(٤) فصلت: ١٢.
(٥) الأحزاب: ٢٣.

الأَرْضِ﴾،[1] قُضِيت الصلاة ليس معناها أنكم صليتموها قضاءً كما في الاستعمال الفقهي، هنا قُضَيت الصلاة بمعنى أدَّيتموها وانتهت.

هذه معاني القضاء في القرآن الكريم.

تسليم أهل البيت عليهم السلام:

والآن نصل إلى معنى «وسلَّمتم له القضاء» ما معنى أن أهل البيت سلَّموا له القضاء؟

يعني التسليم لله تعالى في الأحكام التشريعية والأحكام التكوينية، الله تعالى إذا قرَّر شيئاً تشريعياً فإن المؤمن يجب أن يسلِّم تسليماً، والله تعالى إذا قرَّر شيئاً تكوينياً فإن المؤمن أيضاً يجب أن يستقبل ذلك ولا يعترض عليه. «ولا راد لقضائك» هذا المعنى هو المقصود بقوله: «سلَّمتم له القضاء» يعني الرضا والتسليم بما يصدر من الله تعالى، صدر من الله تعالى أن نصوم شهر رمضان نقول لبيك اللهم، أو صدر من الله تعالى قرار أن يكون هذا الإنسان غنياً وهذا فقيراً يجب أن تقبل نقول التسليم لقضاء الله تبارك وتعالى لا رادَّ لقضائه ولا معترض لصُنعه، ولا تقول لماذا هذا حدث هذا فتكون معترضاً على الله تعالى.

كلما ازداد الإنسان إيماناً كلَّما كان رضاه بقضاء الله أكثر، حتّى لو كان القضاء مرّاً وصعباً، هو يقول الحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، إن لغة الاستفهام والاعتراض على الله تعالى غير موجودة لدى الإنسان المؤمن.

الإسلام والتسليم:

في الرواية عن أمير المؤمنين في فضل التسليم لله تعالى أنه عليه السلام قال:

---

(١) الجمعة: ١٠.

«لأنسبنّ الإسلام نسبةً لم ينسبه أحد قبلي ولا ينسبها أحدٌ بعدي، الإسلام هو التسليم» لاحظوا هذا التآلف بين معنى الإسلام ومعنى التسليم، يعني ذلك إن الذي يعترض على الله ويسخط على الله تعالى فان لديه درجة من درجات الشرك والكفر، «الإسلام هو التسليم والتسليم هو اليقين واليقين هو التصديق، والتصديق هو الإقرار، والإقرار هو الأداء، والأداء هو العمل الصالح».[1]

أنظر للربط «إسلام وتسليم» لكن هذا يعطينا نتائج بعكس ما يتصوّره بعض الناس أن التسليم يعني الاستسلام.

أمير المؤمنين يقول التسليم هو اليقين يعني الثقة بالله، أنظر كيف تحوّل التسليم إلى عمل، وهذا ما سوف نتحدث عنه في الربط بين التسليم والتوكل، والتضاد بين التسليم والاستسلام.

التسليم له منزلة عظيمة في الإسلام، التسليم بما يصدر من الله تعالى تشريعاً أو تكويناً ولهذا القرآن الكريم يقول: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾[2] لاحظوا الربط بين التسليم والإحسان ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ التسليم له مثل هذه الفضيلة في الإسلام.

قيل للإمام الصادق عليه السلام: بأي شيء عُلِمَ المؤمن أنه مؤمن؟

فقال عليه السلام: «بالتسليم لله، والرضا بما ورد عليه من سرور أو سخط».[3]

قصة العابد في زمن موسى عليه السلام:

أنقل لكم قصة ذلك العابد.

تقول القصة إن موسى عليه السلام أراد أن يتفقد الناس فهبط عليه جبرائيل

---

(١) نهج البلاغة: قسم الكلمات القصار/ رقم ١٢٥.

(٢) لقمان: ٢٢.

(٣) الكافي ٢: ٦٣/ ١٢.

وأخذ بيده ليدله على أفضل العباد، وأخذه إلى قرية من القرى وإذا رجل أعمى ومزمن (أي مُقعد) جالس في الباب ويسبّح قائلاً: يا بار يا وصول.

جبرائيل قال لموسى: هذا أفضل العباد، تعجب موسى فقال له جبرائيل إصغ له، أصغى له موسى فسمعه يقول: (يا بار يا وصول).

موسى قال له: أيها الشيخ أنت تقول: (يا بار يا وصول) ماذا أعطاك الله تعالى؟

قال له: اسمع يا هذا وهو لا يعرف أن هذا هو نبي الله موسى: إن الله تعالى كان قد وهبني عينين، لكن رآني وأنا شاب أعصي بهذه العينين قَبَل أن أعذّب بجهنم أخذ الله تعالى عيني، وكان عندي رجلين فرأى الله تعالى أني لا أعمل بهما عملاً صالحاً، فأخذهما مني، ثمّ أزيدك يا هذا إعلم أن هذه القرية التي أنا بها لا يوجد بها واحد مؤمن بالله غيري لقد منّ الله عليَّ ورزقني الإيمان، إذن لماذا لا أقول: (يا بار يا وصول)[1]؟ لاحظوا كيف أن المؤمن ينظر إلى الأشياء نظرة حقيقية، هذا الإنسان نفسه لو كان ضعيف الإيمان لكان يكفر بالله، لكن هو حوّلها إلى نعم وألطاف.

وفي حديث آخر قال الصادق عليه السلام: «إذا قال العبد ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله قال الله عز وجل ملائكتي استسلم عبدي اقضوا حاجته».[2]

دعاء الصباح والمساء:

هناك دعاء يستحب أن نقرؤه يومياً عشر مرات صباحاً وعشر مرات مساءاً وهو أن تقول:

«أعددت لكل هولٍ لا إله إلا الله، ولكل هَمّ وغَمّ ما شاء الله، ولكل نعمةٍ الحمد لله، ولكل رخاءٍ الشكر لله، ولكل أعجوبة سبحان الله، ولكل ذنبٍ

(١) أنظر: مستدرك سفينة البحار ٤: ١٥١.

(٢) المحاسن ١: ٤٢/ ٥٣.

أستغفر الله، ولكل مصيبة إنا لله وإنا إليه راجعون، ولكل ضيق حسبي الله، ولكل قضاءٍ وقَدَر توكلت على الله ولكل عدو اعتصمت بالله، ولكل طاعة ومعصية لا حول ولا قوة إلا بالله، ولكل عدو اعتصمت بالله».[١]

هذه إحدى عشر حالة وإحدى عشر كلمة، كل حالة لها لباس مخصوص، الدعاء يقول: أيها الإنسان إن أحد عشر حالة تمر عليك إما مصيبة أو نعمة أو رخاء أو غيرها ولكل واحدة لها علاج معيّن ووقاية معينة وموقف معيّن.

محل الشاهد في هذا الدعاء هو قوله: «ولكل قضاء وقدر توكلت على الله».

التسليم إلى الله تعالى بالقضاء يجب أن يكون إلى جانبه توكل على الله وعمل وجدية وملاحقة وإنجاز، وليس تسليم الهاربين، ولهذا يقول الدعاء: «لكل قضاء وقدر توكلت على الله»، يعني سوف أقاوم وأعمل حتّى أُغيّر هذا القضاء لصالح الإرادة الحقة لله تبارك وتعالى، هذا بحث سوف أتناوله في الربط بين القضاء والتوكل على الله تعالى.

جواب لكل سؤال:

هنا يوجد حديث مهم تطرحه المدنية الحديثة، تقول الحداثة إنها تُبنى على أساس رفض التسليم المطلق والمطالبة بجواب لكل موقف ولكل تشريع، حين تقول الصلاة واجبة يجب أن تسأل لماذا واجبة؟ وحين تقول لحم الخنزير حرام كذلك لماذا حرام؟ كما هو الموقف مع حوادث الطبيعة، حين يحدث فيضان أو زلزال تسأل لماذا حدث؟ ومن غير الممكن في الحداثة ترك الأمور للتعبد، وأن نقول هكذا أراد الله، الربا حرام لأن الله قال حرام، لماذا؟ ابحثوا عن العلل، الحداثة تقول ابحثوا عن علل التشريعات وعلل الظاهرة الطبيعية ولا نقبل بالتسليم.

---

(١) بحار الأنوار ٨٤: ٦/ ٨.

هـذا الموضـوع يطـرح الآن لإيجـاد تضـاد بـين الـدين والحداثـة، وبالتـالي يقـال: إمـا أن يكـون الإنسـان متـديناً وبـذلك يكـون متخلفـاً أو يكـون متقـدماً إذن يجب ترك الدين، هذا أيضاً في الحقيقة أطرحه بشكل مبسَّط.

هذا في الحقيقة مغالطة وجوابه هناك تسليمان:

التسليم العلمي والجهلي:

تسليم مقبول هو التسليم العلمي، وتسليم مرفوض وهو التسليم الجهلي.

الآن في المدنيَّة الحديثة يمارسون هذا الأمر، يوجد تسليم مرفوض مثل أن تسلِّم للخرافات وللكشافين والأساطير والمنجمين، التسليم بهذا المعنى مرفوض من قبل الإسلام، بل يعتبره حراماً أن تسلم الأمور للمنجمين والسحرة والأساطير، التسليم للجهل حرام والتسليم للخرافة حرام، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾، المدنية أيضاً تقول: إن التسليم بالخرافة والجهل حرام.

لكن التسليم المقبول في الإسلام وفي المدنية الحديثة، هو التسليم للعلم ولذوي الاختصاص الذين تثق بهم، في الطب والفلسفة وفي علم الفلك وفي البيئة.

اليوم العالم المتقدم كلّه يدعو للتسليم لذوي الاختصاص، لا يوجد شيء بدون اختصاص، لا بدّ من وجود خبير، العالم اليوم هو عالم التسليم للخبراء، في علم النفس، في الاقتصاد، وهكذا، هذا يعني التسليم لذوي الخبرة.

هذا التسليم مقبول بل هذا علامة التقدم.

الإسلام يرفض التسليم للأساطير والخرافة، ويريد التسليم للعلم وذوي الخبرة.

مـن هـم أصـحاب الخبـرة؟ إذا كـان التشـريع منطلقـاً مـن البرلمـان نرجـع للبرلمـان، وإذا كـان التشـريع مـن الله تعـالى نرجـع إلـى الله، فالتشـريع مـرة يكـون مـن الإنسـان وحينئـذ يجـب أن نـرى المجـالس القضـائية مـاذا شـرعت؟ والبرلمانـات مـاذا شـرعت؟ أمـا إذا كـان التشـريع إلهيـاً فيجـب أن نرجـع إلـى

الوحي، وماذا ينقل من الساحة الإلهية؟ هنا يأتي دور التعقل والرجوع لذوي الخبرة، وهذا هو أساس المدنية الحديثة، أن نرجع لذوي الاختصاص، أنا ليس من ذوي الاختصاص حتّى تسألني، ممكن أجيبك وممكن أن تقتنع أو لا، حتّى النبي ليس لديه جواب أحياناً ﴿وَيَسْـئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾.[1] يجب أن تقبلوا فالقضية إلهية، ولهذا القرآن يعتبر علامة المؤمن التسليم للقضاء الإلهي، ﴿ما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾.[2]

نرجع إلى موضوعنا ونعبر مسألة الحداثة.

التسليم مقبول والاستسلام غير مقبول، أن تقول إن الله تعالى خلقني فقيراً فماذا أفعل؟ الإسلام لا يقبل بهذا بل يقول اعمل.

من سألنا أعطيناه:

اذكر لكم قصة رجل تزوج وهو فقير وضعيف الحال، فقالت له زوجته اذهب واسأل رسول الله.

جاء إلى النبي ﷺ وأراد أن يسأله فمنعه الخجل، ولكن النبي قال له مباشراً «من سألنا أعطيناه ومن استغنى أغناه الله»،[3] فرجع إلى زوجته فأخبرها بما قاله النبي، وسألها ماذا تقولين قالت فلننتظر، انتظروا يوماً واثنين وثلاثة ثمّ قالت له اذهب مرة ثانية فذهب وبمجرد أن وصل إلى النبي ﷺ التفت النبي له وقال: «من سألنا أعطيناه ومن استغنى أغناه الله». رجع إلى زوجته وحكى لها القصة، وصبر يوماً ويومين، ثمّ رجع إلى النبي فأعاد النبي عليه نفس القول،

(١) الإسراء: ٨٥.

(٢) الأحزاب: ٣٦.

(٣) فقه الرضا عليه السلام: ٣٦٥.

فرجع إلى زوجته وقال سوف لن أعود وأسأل النبي أبداً، وذهب واستقرض معولاً وحطّب به وجاء الظهر وباع الحطب بدرهم وذهب اليوم الثاني أيضاً وباعه بدرهمين وسدَّد القرض، وتحسن وضعه المعاشي، وبعد أسبوع رجع إلى النبي ليروي له القصة، فقال له النبي قبل أن يتكلم ألم أقل لك من سألنا أعطيناه ومن استغنى أغناه الله؟

التسليم يعني الرضا بنتيجة المعركة، والتعريف النهائي للتسليم هو أنك تدخل المعركة لكن ترضى بالنتيجة وتقول إلهي لك الحمد. لا تنهزم من المعركة، الأنبياء والأئمة دخلوا المعركة، لمّا قتلوا سلَّموا تسليماً، ولمّا سجنوا سلّموا تسليماً لكن لم ينهزموا من المعركة، التسليم معناه الخوض في المعركة والقبول بنتائجها وعدم الاعتراض على الله تعالى.

تسليم الأئمّة عليهم السلام:

أختم الحديث بنموذج أمير المؤمنين عليه السلام حين يقول: «فطفقت ارتئي بين أن أصول بيد جذّى _ أي يدي مقطوعة ليس لديّ أنصار _ أو أصبر على طخية عميا _ أي على فتنة شديدة عمياء _ فرأيت أن الصبر على هاتا أحجى» رأيت أن أصبر، لكن مع هذا الصبر فإن أمير المؤمنين قد عمل وجاهد «اشهد انك جاهدت في الله حق جهاده».

أمير المؤمنين عمل عملاً شديداً لكن رضي بنتيجة المعركة.

كان يأخذ الزهراء عليها السلام _ وهذه أيام شهادتها _ على حمار ويطوف بها بيوت الأنصار، يحدّثهم بحقّه والزهراء تحدثهم، فكلٌ يقول لها يا بنت رسول الله قد سَبقت منا البيعة لهذا الرجل، لاحظوا في المعركة السياسية كانت الزهراء كسيرة الضلع وهي امرأة لكن لم يمنعها ذلك من الدخول في المعركة السياسية، كانت تطلب النصرة لعلي وهم يقولون لها يا بنت رسول

الله قد سبقت منا البيعة لها الرجل،[١] يوجد نص روائي يُحرق القلب ألماً لظلامة أمير المؤمنين.

الرواية تقول: إن أمير المؤمنين عندما كان يأخذ الزهراء إلى بيوت الأنصار كان يتخفى ورائها ويقدمها أمامه لأن الأنصار لا يستجيبون لعلي، لكن ربّما لأجل رسول الله ﷺ يستجيبون للزهراء حياءاً، علي الذي قام الإسلام بسيفه، علي أخو رسول الله، الرسول الذي قال: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»، وقال: «يا عليّ أنت مني بمنزلة هارون من موسى»، لكن بعد أيام من وفاة رسول الله ﷺ ها هو يقود الزهراء ويتخفى وراء الزهراء، هذه ظلامة أهل البيت في التاريخ الذي ظلم رسول الله ﷺ وأهل البيت عليهم السلام.

إنّا لله وإنّا إليه راجعون

* * *

(١) أنظر: السقيفة وفدك: ٦٣.

المحاضرة الثالثة والثلاثون:

القضاء والقدر

الثابت والمتغيّر

«وسلَّمتم له القضاء وصدقتم من رسله من مضى».

حول هذا المقطع من الزيارة «وسلَّمتم له القضاء» لدينا حديثان:

حديث فلسفي، وحديث تاريخي.

الحديث الفلسفي: في فلسفة القضاء والقدر في الإسلام.

والحديث التاريخي: في فترة سليمان.

بحث في القضاء والقدر:

هذا كله استمرار عن حديثنا في المحاضرة السابقة من الزيارة الجامعة «وسلَّمتم له القضاء»، حديثنا الأوّل وهو الفلسفي وهو عن القضاء والقدر في الإسلام.

القضاء والقدر مفهومان يشكلان معتقداً إسلامياً مهماً ويوجد خمس نقاط تكوّن الصورة التفصيلية عن مفهوم القضاء والقدر في الإسلام.

المفهوم الإجمالي للقضاء والقدر:

المعنى الإجمالي للقضاء والقدر يعني أن هذا الوجود يخضع لأمرين:

أوّلاً: يخضع لإرادة إلهية.

ثانياً: يخضع لقانون.

هذه خلاصة الفكرة، أن هذا الوجود بدءاً من خلق الإنسان إلى خلق الكائنات الأخرى إلى سائر ما يجري على البشر ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً ﴾.[1] كل التقديرات التي تجري على البشر ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ هذه كلها إنما هي أوّلاً: من خلال إرادة إلهية وثانياً: من خلال قانون وضوابط.

---

(١) الشورى: ٤٩ و٥٠.

يعني الإسلام يقول في فلسفة القضاء والقدر إن الكون والوجود ليس فوضى، وإنما مثاله مثال الجامعة التي يدخل فيها الطالب فمنهم من ينجح ومنهم من يرسب ويتخلف وذلك كله وفق قوانين وإرادة لكن هذه الإرادة تجري وفق قوانين وليس القضية فوضوية.

لماذا أعطى الله لهذا ذرية ولم يعط لآخر؟

هل هذه القضية فوضوية وعَبَثية؟ أم أن هناك إرادة إلهية وتصميماً هندسياً، وفق معادلات هندسية ﴿وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾[1] هذه هي فكرة القضاء والقدر، هي فكرة جميلة وأساسية.

نحن حين نعتقد بالله خالق الكون، الله العادل السميع البصير العليم الخبير، هل نعتقد أن هذا الكون فوضى مثل كومة رَمل ألقاها الله تعالى وأهملها. هذا لا يناسب إيماننا بالتوحيد وبالله البارئ الخالق المصوّر المَلِك القدوس، إن من غير الممكن أن يعيش هذا الكون في حالة فوضى وبدون إرادة وبدون هندسة، ستجدون أن هذه الفكرة هي من أجمل الأفكار وستجدون أن التوحيد بدون الإيمان بالقضاء والقدر يعني إساءةً إلى الله تعالى، يعني أن الله غير مدبر الأمور تدبيراً صحيحاً جميلاً. مثلاً إذا دخلت إلى مزرعة وصاحب المزرعة رجل خبير وصاحب ذوق فهل هذا أفضل وأجمل أم حين تدخل إلى مزرعة فوضى ومجموعة أشواك؟

الله تعالى يقول أنا مدبّر، أنا أسيّرك، وهذا الوجود كلّه وفق إرادة وقانون.

القضاء يعني إرادة الله، والقَدَر يعني الهندسة وتقدير الأشياء.

إذن القضاء والقدر يعني الإرادة الهندسية في صنع الأشياء.

هذه هي الصورة الاجمالية عن القضاء والقدر.

لكن بصورة تفصيلية يوجد لدينا خمسة أمور تكمّل الصورة التفصيلية لها.

---

(١) الكهف: ٤٩.

الصورة التفصيلية للقضاء والقدر:

الأمر الأوّل: لا يكون شيء في الوجود إلا بقضاء وقدر إلهي، أي لا المخلوق يُخلق ولا الميت يموت ولا الغني يكون غنياً ولا غير ذلك، إلا بإرادة وقانون إلهي، بقضاء وقدر إلهي ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾.[١]

علماؤنا مثل العلامة الكليني في كتاب أصول الكافي وهو من الكتب المهمة جداً يخصص باباً في أنه لا يكون شيء في الوجود إلا بسبعة أمور إذا تهيأت هذه الأمور السبعة يتحقق ذلك الشيء، لا ينزل المطر ولا تشرق الشمس ولا غير ذلك إلا إذا تهيأت الشروط، هذه الشروط السبعة عبارة عن المشيئة الإلهية وإرادة وقضاء وقدر وإذن من الله تبارك وتعالى وأجل وكتاب.[٢]

القرآن الكريم يقول: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[٣] **كل شيء حتّى ورقة الشجر التي تسقط.**

أيضاً يقول تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾[٤] **كل شيء في الوجود أصله وخزائنه عند الله ومن هناك ينزل تنزيلاً، كما نقول أن كل قطرات المطر هي بالأصل موجودة في السحاب ثمّ تنزل وتقطّر تقطيراً، الله تعالى يقول كل هذا الوجود خزائنه موجودة عندي، ومن تلك الخزائن ننزّلها إلى الدنيا.**

يقول تعالى: ﴿مَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا

---

(١) الشعراء: ٨٠ و٨١.

(2) عن أبي عبد الله عليه السلام: «لا يكون شيء في الأرض ولا في السماء إلا بهذه الخصال السبع: بمشيئة وإرادة وقدر وقضاء وإذن وكتاب وأجل، فمن يزعم انه يقدر على نقض واحده فقد كفر» الكافي ١: ١٤٩/ ح ١.

(٣) القمر: ٤٩.

(٤) الحجر: ٢١.

يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتابٍ﴾[1] هذه هي المادة الأولى أن كل شيء لا يكون إلا بقضاء وقدر.

الأمر الثاني: في المعتقد الإسلامي أنه لا يكون شيء إلاّ ذاك الذي قدّره الله وما لم يقدّره الله لا يكون وذلك قوله تعالى: ﴿فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[2] وكما نقرأ في الأدعية «ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن».

الأمر الثالث: أن القضاء والقدر الإلهي يقبل التغيير، وليس قضايا ثابتة لا تتغير، أيضاً كما أن المهندس يهندس بيتاً لكن الخريطة قابلة للتغيير.

الله تعالى يقول أنا عندي هندسة للكون لكن إذا وفّرتم شروطه يكون هذا الذي أنا أرسمه أما إذا لم توفروا شروطه فاني أرسم لكم شيئاً آخر. وذلك قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ﴾.[3]

الأمر الرابع: العدالة الإلهية في القضاء.

من حقكم أن تسألوا لماذا قضى الله تعالى على هذا الإنسان أن يكون قبيحاً أو مريضاً أو عاصياً، مشركاً، إذن أين العدالة الإلهية؟ الإسلام يقول القضاء الإلهي عادل ﴿لا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾[4] صحيح أن هذا جميل أو هذا مريض أو لهذا ذرية وذاك لا ذرية له، لكن هذا كله وفق عدالة إلهية.

العدالة الإلهية على سبيلين:

السبيل الأوّل: أن هذا استحقاق، أي ان حق الشوك أن يكون في الصحراء، واستحقاق الحنظل أن يكون مُراً، ذاتيات الأشياء، الله يعطي كل شيء ما يستحقه حسب ذاته، هذا استحقاقه التكويني.

---

(١) فاطر: ١١.
(٢) يس: ٨٣.
(٣) الرعد: ٣٩.
(٤) الكهف: ٤٩.

السبيل الثاني: إن هناك تعويضاً أي إن الله تعالى هذا الذي جعله مريضاً في الدنيا سوف يجعله صحيحاً في الآخرة أي سوف يعوّضه. إذن العدالة محفوظة.

قصة ذي النمرة:

في قصة ذي النمرة أنه رجل كان قبيح المنظر جداً بحيث لا تقبل به امرأة، هذا الرجل في زمن رسول الله ﷺ وعندما جاء الإسلام أصبح مسلماً.

قال لرسول الله: علّمني الإسلام.

علّمه: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمّداً رسول الله.

قال: ماذا بعد يا رسول الله؟

قال: تصلي خمس فرائض في اليوم وتصوم شهر رمضان.

فولّى مدبراً وتشهّد الشهادتين وقال: والله لأصلي الصلوات الخمس ولا أزيده ركعة واحدة، لماذا خلقني قبيحاً بهذا الشكل، فهبط جبرائيل على الرسول ﷺ قال: يا رسول الله قل لذي النمرة ألا ترضى أن يجعلك الله يوم القيامة على جمال جبرائيل؟

رسول الله فَرح بذلك وقال له: إن جبرائيل يقول: إن الله يجعلك على جمال جبرئيل يوم القيامة فهل ترضى؟ قال: رضيت، لأصلين له حتّى يرضى. هذه هي فكرة عدالة القضاء الإلهي.(١)

الأمر الخامس: القضاء خيرٌ للمؤمن، كلما يقضيه الله للمؤمن هو خير له، مثل مرض، أو سجن أو تشريد فكل هذا خيرٌ للمؤمن.

يوماً ما رسول الله ﷺ ضحك حتّى بانت نواجذه (أسنانه) والمسلمون خجلوا أن يسألوا الرسول ﷺ لماذا ضحكت؟ ثمّ سألهم: ألا تسألوني لماذا ضحكت؟

---

(١) أنظر: الكافي ٨: ٣٣٦/ ٥٣١.

قالوا: بلى يا رسول الله لماذا ضحكت؟

قال: «عجبت للمسلم ليس له من قضاء يقضي الله ﷻ إلا كان خيراً له في عاقبة أمره».[1]

يعني رسول الله ﷺ يرى المسلم المؤمن فقيراً مريضاً لكن رسول الله ﷺ يضحك يقول هذا له خير يوم القيامة، ويكون له أجر كبير بحيث يتمنى هذا المسلم أن يرجع إلى الدنيا ليكون مرة أخرى فقيراً ومريضاً حتّى ينال أجراً كبيراً.

عوامل تغيير القضاء الإلهي:

ذكرنا أن القضاء الإلهي قابل للتغيير.

لكن ما هي العوامل لتغيير القضاء الإلهي؟

كيف يتغير القضاء الإلهي؟

الجواب: هناك عدة عوامل في تغيير القضاء الإلهي.

العامل الأوّل: الدعاء يغيّر القضاء الإلهي كما جاء في الدعاء المعروف بدعاء السمات: «وبقضائك المبرَم الذي تردّه بأيسر الدعاء» حيث جاء في الروايات أن الدعاء يرد القضاء الإلهي المبرم.

وهناك رواية تقول إن الله أوحى إلى نبي من الأنبياء أن أخبر الملك (ويبدو أنه كان ملكاً عادلاً) ان الله تعالى مقدّر له من العمر كذا عاماً وسوف يأخذ عمره بعد ذلك.

قصة التمديد في عُمر الملك:

النبي أخبر المَلِك، ولما سمع الملك ذلك تضرّع إلى الله تعالى بالدعاء حتّى سقط من السرير من كثرة البكاء، قال: إلهي أمدد في عمري وفي ملكي حتّى يشب ولدي ويكون وريثي في الملك.

---

(١) كتاب المؤمن للحسين بن سعيد: ٢٧/ ٤٩.

الله تبارك وتعالى أهبط جبرائيل على نبيه قائلاً إذهب إلى الملك وقل له إن الله تعالى مدَّ في عمرك خمسة عشر عاماً حتّى يكبر ابنك ويكون بمكانك.

النبي قال: إلهي أنا لم أكذب بعمري ولا مرة واحدة وقد قلت له قبل يوم أنه سيموت، فكيف أذهب وأقول له ما زال لديك خمسة عشر سنة.

فأوحى الله إلى ذلك النبي إنما أنت عبد مأمور.(١)

الله تعالى غيَّر القضاء الإلهي استجابة للدعاء.

لهذا نجد أن الأنبياء سنّوا لنا سنَّةَ الدعاء.

الأنبياء يدركون أن القضاء يتغير بالدعاء كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ﴾.(٢)

دعاء زكريا:

أقرأ لكم دعاء نبي من الأنبياء لأنّ له معنى ومدلول كبير، هذا النبي هو زكريا الذي وصل إلى حدّ اليأس من الذريّة، وزوجته أصبحت أيضاً كبيرة وعاقر لا تلد، والمفروض وفق السنن الطبيعية أن رجلاً عمره سبعون سنة وامرأة عمرها ستون سنة كما تقول الروايات التاريخيّة لا يوجد مجال لأن يكون لهما ولد.

لكن أنظروا إلى زكريا ماذا يقول القرآن الكريم عنه، ﴿كهيعص * ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نادى رَبَّهُ نِداءً خَفِيًّا * قالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوالِيَ مِنْ وَرائِي وَكانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ

---

(١) أنظر: عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٥٩/ ضمن ح ١.

(٢) الرعد: ١١.

رَضِيًّا * يا زَكَرِيّا إِنّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾[١] **نفس هذا الدعاء يأتي في سورة أخرى وهي سورة الأنبياء** ﴿وَزَكَرِيّا إِذْ نادى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ﴾،[٢] **لاحظوا زكريا يقول اشتعل الرأس شيباً ويقول امرأتي عاقر ومقتضى الحال أنه لا يكون عندهم ولد، لكن عندما دعا استجاب الله له** ﴿فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَوَهَبْنا لَهُ يَحْيى وَأَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ﴾[٣] **ما هو السبب في إن الله تعالى أعطى لزكريا يحيى وأصلح له زوجته؟**

القرآن يذكر ثلاثة أشياء:

أوّلاً: ﴿إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ﴾.

ثانياً: ﴿وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً﴾ **(أي في السراء والضراء).**

ثالثاً: ﴿وَكانُوا لَنا خاشِعِينَ﴾.

نتيجة هذه العوامل الثلاثة قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَوَهَبْنا لَهُ يَحْيى﴾.

دعاء سليمان وقصته:

ننتقل إلى البحث الثاني وهو البحث التاريخي.

النبي سليمان سأل الله تعالى أن يرزقه المُلك، وقصة سليمان هي قصة نادرة يذكرها القرآن الكريم بشكل مفصّل لأن فيها عبر ودلالات نتناول منها جانباً واحداً وهو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنّا سُلَيْمانَ وَأَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنابَ * قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهّابُ﴾.[٤]

---

(١) مريم: ١ - ٧.

(٢) الأنبياء: ٨٩.

(٣) الأنبياء: ٩٠.

(٤) ص: ٢٤ - ٣٥.

ما هي فتنة سليمان؟

ما معنى ولقد فتنا سليمان؟ ما هي هذه الفتنة؟

توجد هنا عدّة بحوث تاريخية:

البحث الأوّل: ما هو هذا الجسد الذي وقع على كرسي سليمان والذي تركه القرآن الكريم بدون إيضاح.

القرآن يقول: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾[1] **هذا التنوين للتنكير، تنوين التنكير. يعني جسداً غير معلوم ما هو؟**

السؤال الأوّل: ما هو هذا الجسد؟ وما هي هذه الفتنة؟

السؤال الثاني: أن سليمان كيف يقول: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً﴾[2] **هل يصح لنبي أن يدعو بالمُلك؟ أليس عندنا في ثقافتنا الدينية النهي عن طلب الرئاسة والملك والنهي عن حب الجاه والمقام؟**

السؤال الثالث: أن هذا النبي لم يدعُ لنفسه فقط وإنما قال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾[3] **عجباً هل كان سليمان بخيلاً بحيث لا يقبل لغيره أن يكون له مثل مُلكه؟**

العلماء في تفسير الجسد الذي ألقاه الله تعالى على كرسي سليمان يذكرون مجموعة روايات ثمّ يقولون: إن هذه الروايات ليس ثابتة الصحة بل هي روايات غير صحيحة وهي إسرائيليات، لكن ولأجل لتوضيح الصورة أذكر ما يوجد هنا من تفاسير.

يوجد مجموعة تفاسير بعضها خرافات موجودة في كتب اليهود والنصارى وانتقلت إلى كتبنا بالترجمة، لكن علمائنا يقولون هي غير صحيحة.

---

(١) ص: ٢٤.

(٢) ص: ٢٥.

(٣) السابق.

من جملتها تلك التي تقول: إن الله تبارك وتعالى رزق سليمان ولداً وكان يحبه حباً جماً وخاف عليه من ملك الموت فوضعه في السحاب، لكن لأن الله تعالى كان قد قضى قضاءاً بموت هذا الطفل ولا راد لقضائه، فإن ملك الموت أخذ روح هذا الصبي وهو في السحاب وألقاه من السحاب ووضعه على كرسي سليمان جثة هامدة.[1]

وفق هذه الروايات فإن الله تعالى يريد أن يقول لسليمان قدرتي لا يبلغها أحد ولا أحد يستطيع الفرار من إرادتي.

هذه الرواية يراها علماؤنا خرافة غير صحيحة.

التفسير ثاني أن سليمان أصبح مريضاً وأن الله تعالى قد افتتنه وامتحنه في جسمه بدرجة أنه أصبح غير قادر على الحركة، يعني أصبح جسداً ليس به روح ولا قدرة حركة، وهو جالس على الكرسي، (ثم أناب) يعني تعافى وعادت له العافية.[2]

هناك تفسير ثالث وهو من الإسرائيليات والطرائف التي تُذكر ونحن نذكرها لتلطيف الأجواء وإلا فهي من الخرافات والأساطير الموجودة في كتب بني إسرائيل.

خلاصتها أن إبليس جاء إلى سليمان وقال له، ألا تريني هذا الخاتم الذي تلبسه، حيث تقول الأسطورة أن مُلك سليمان كان قائماً بالخاتم، فأعطاه سليمان الخاتم، فأخذ إبليس الخاتم ورماه في البحر، وبقى سليمان بلا مُلك وجلس إبليس على عرش سليمان وأصبح يباشر الملك بنفسه، والناس لا يعلمون، واضطر سليمان إلى أن يصبح سمّاكاً يصيد ويبيع السمك. وبعد

(١) بحار الأنوار ١٤: ٩٩.

(٢) بحار الأنوار ١٤: ١٠٧.

أربعين يوماً صاد سمكة فلما فتح السمكة وجد فيها الخاتم، فلبس الخاتم وعاد له الملك وهذا هو معنى قوله: ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾، خلال هذه الأربعين يوماً كان الشيطان جالساً على كرسيّه، والشيطان جسدٌ ليس له روح، أي ليس له دين ووجدان وضمير ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾[1] لمدة أربعين يوم ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾.[2]

ومن الواضح ان هذا التفسير لا يمكن قبوله عقلياً بشأن الأنبياء.

سوف أذكر لكم تفسيراً آخر يحلّ المعضلة كلها لكن دعونا نقف عند المعضلة الثانية في دعاء سليمان سوف أشرح لكم المعضلات حتى نحلّها بتفسير واحد.

سليمان هل يطلب الملك؟

المعضلة الثانية: كيف ان نبي الله يطل المُلك ويقول: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكاً﴾؟

الجواب: علماؤنا قالوا كان ذاك بأمر الله تعالى وإذا كان بأمره فلا يوجد إشكال، لكننا لسنا بحاجة لهذا التفسير، وإنما التفسير الطبيعي اننا في ثقافتنا الدينية لا نجد مشكلة في أن يكون النبي مَلِكاً أو يكون المرجع الديني رئيساً، أو أن يكون أمير المؤمنين خليفة، المشكلة أنه إذا كان المُلك للمُلك وللدنيا فهو أمر مرفوض، أما إذا كان المُلك للدين ولإحقاق الحق ولإبطال الباطل فلا توجد ثمة مشكلة.

الأنبياء والأئمّة قاتلوا من أجل المُلك وليس من أجل الكرسي وإنما لأجل إحقاق الحق، لقد دخل رسول الله في غزوات وحروب فهل كان هذا من طلب الجاه والدنيا أو من أجل إحقاق الحق؟ كان من أجل إحقاق الحق؛ إذن لا توجد مشكلة في أن سليمان يسأل الله تعالى ويقول: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكاً﴾.

(١) ص: ١٠٤.

(٢) الإيضاح: ٣٦.

المعضلة الثالثة: حينئذٍ نصل إلى المشكلة الثالثة وهي قوله: ﴿لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾.[(١)]

كيف يسأل سليمان ربَّه ان يتفرد هو بالملك ولا يكون لأحد مثله، فهل كان سليمان بخيلاً؟

الجواب: في تفسير واضح ربما توحي به الآية رغم أن العلماء لم يشيروا لهذا التفسير لكن إذا قلّبنا هذه الآية ظهراً لبطن فسوف نجد أنها تنسجم جداً مع هذا التفسير، وخلاصته:

إن الله تبارك وتعالى كان قدّر إنهاء مُلك سليمان حيث لم يجعل له ذرية، وأراد سليمان ولداً لكي يكون وريثاً له في المُلك لكن الله تعالى امتحنه وقال: لا يكون لك ولد يرثك، ورغم انه أصبح لديه ولد لكن الله تعالى أماته وألقاه على كرسيه جسداً ميتاً وكان سليمان يأمل بالملك بعده كما ورث هو ملك أبيه داود. لقد كان من حق سليمان أن يطمع في ديمومة هذه الإمبراطورية الدينية واستمرارها ليس حباً بالملك وإنما حباً باستمرار الحكم الديني.

لكن الله تعالى قال له: سوف لن تستمر هذه الإمبراطورية وسوف لن يكون لك ذرية ولا خليفة، إذن أنت ذو مُلك عظيم وهذا المُلك لا يكون لذريتك ولا لأحد من بعدك، ولما علم سليمان ذلك من الله تعالى سأل الله تعالى بلسان التقدير والرضى بالتقدير الإلهي قائلاً: إلهي إذا كنت قدّرت أن لا يكون لي ذرية يرثني فهب لي مُلكاً ينقطع بموتي ولا يستمر ولا يكون لأحد من بعدي كما قدّرت ذلك لي في علمك. وحينئذٍ ترون أن الآية أصبحت جداً واضحة، قال: إلهي إذا كنت مقدّراً أن لا يكون عندي ولد يرث ملكي إذن أعطني ملكاً كما قدّرت لا يستمر ولا ينتقل لأحد من بعدي ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي

(١) ص: ٣٥.

وَهَبْ لي مُلْكاً لا يَنْبَغي لأَحَد مِنْ بَعْدي﴾[1] لأنك لم تقدّر لي ذرية، وسوف يتضح معنى قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ وَأَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيّه جَسَداً﴾[2] وهو ابنه لمّا مات، فأدرك سليمان الفتنة وأناب واستغفر وكأنه قال: إلهي كان تقديري وتصوّري أن يكون عندي مُلك يستمر وأنت تقديرك أنه ينتهي، ربي اغفر لي تقديري، وتقديرك هو الأصح.

بهذا التفسير تنتهي كل المعضلة في تفسير هذه الآية الكريمة التي وقف العلماء عندها والمفسرون في حيرة بالغة، الله تعالى قال له الملك الذي لا يستمر بعدك، وحكومتك هي مرحلة استثنائية، واستجاب الله دعاءه وأعطاه هذا المُلك الذي لم يستمر بعده ولا ينبغي لأحد بعده حسب التقدير الإلهي.

هناك تفسير آخر ذكره المفسرون لقوله: ﴿لا يَنْبَغي لأَحَد مِنْ بَعْدي﴾ يعني إلهي هب لي ملكاً فيه من المعجزات العجيبة النادرة التي لا تتكرر لأحد من الملوك والأنبياء بعدي.

هذا أيضاً تفسير من التفاسير ولا يوجد في الآية ما يشير أو يدل عليه، ولنعُد إلى أصل الموضوع وهو استجابة الدعاء. سليمان دعا الله فاستجاب الله دعاءه وزكريا أيضاً استجاب الله له.

القرآن يقول: ﴿قُلْ ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبّي لَوْلا دُعاؤُكُمْ﴾.[3]

الملك في الإسلام:

نعود إلى مسألة الملك.

الملك في الإسلام هل له قيمة؟

---

(١) ص: ٢٥.

(٢) ص: ٢٤.

(٣) الفرقان: ٧٧.

الجواب: إن كان مُلكاً لتطبيق حكم الله فهو مهم وإذا كان الملك للدنيا فليس له قيمة.

أمير المؤمنين عليه السلام مرةً كان جالساً يخصف نعلاً وكان ذلك معروفاً في صفة أمير المؤمنين حتّى قال: «لقد رقعتها حتّى استحييت من راقعها» التفت إلى ابن عباس وقال. يا بن عباس ما قيمة هذا النعل؟

قال ابن عباس: لا قيمة لها.

قال: «يا بن عبّاس إن إمرتكم هذه أهون عندي من هذا النعل إلاّ أن أقيم حقاً أو أبطل باطلاً».[1] ولكن مع ذلك فإن أمير المؤمنين كان يقاتل من أجل الخلافة ودافع عن حقه، وهذا ليس دفاعاً عن دنيا.

اليوم حينما ندافع عن الحكم للأصلح في العراق في الحقيقة نحن ندافع عن الناس والشعب والدين ولا ندافع عن مصالح شخصية.

أمير المؤمنين دافع عن حقه ولكن ليس عن حقه الشخصي وإنما عن حقه الديني وحقه لخدمة البشر.

الزهراء عليها السلام ما كانت تبحث عن مُلك قطعة أرض اسمها فدكاً وإنما كانت تبحث عن إعادة الحق لأهله، والانتصار للحق حتّى لا تقع البشرية في ظلامات على مدى مئات السنين من يوم السقيفة وإلى يومنا هذا.

الزهراء لما قادوا أمير المؤمنين مكتوفاً، وكسروا ضلعها وأسقطوا جنينها، لمّا قامت من غشيتها سألت فضة، أين عليّ، فضة أخبرتها بأنهم قادوه أسيراً فقامت فاطمة الزهراء من غشيتها وخرجت تعدو خلفه تقوم مرة وتقع أخرى.

إنا لله وإنا إليه راجعون

* * *

(١) السقيفة أم الفتن / الدكتور جعفر الخليلي: ٧٠.

المحاضرة الرابعة والثلاثون:

أهل البيت عليهم السلام محور الحق

«فالراغب عنكم مارق، واللازم لكم لاحق، والمُقصّر في حقكم زاهق».

حديثنا في هذه المحاضرة من شرح الزيارة الجامعة الكبيرة عن هذا المقطع «فالراغب عنكم مارق واللازم لكم لاحق، والمُقَصِّر في حقكم زاهق» وهذا البحث يرتبط ببحث المحاضرة اللاحقة حول (نظرية وحدة الحق وتعدد الاجتهاد).

المعنى اللغوي:

معنى قوله: «الراغب عنكم مارق» المروق يعني الخروج عن دائرة الحق، الإمام عليّ عليه السلام هو قاتل الناكثين والقاسطين والمارقين، والمقصود بالمارقين هم الخوارج الذين مرقوا وخرجوا عن دائرة الحق، هنا الزيارة تقول: «الراغب عنكم مارق» لاحظوا في اللغة العربية يوجد الراغب فيكم، ويوجد الراغب عنكم، نقول: أرغب في هذه المعاملة يعني تريدها، ومرة تقول: أرغب عن هذه المعاملة يعني لا تريدها. هنا هكذا يقول: الراغب عنكم مارق يعني المُعرضُ عنكم مارق.

«واللازم لكم لاحق» الملتزم بكم لاحق بطريق الحق وبطريق الدين، ولهذا قال الإمام الحسين عليه السلام: «من لحق بنا _ أي التحق بركبنا _ استشهد».

«والمقصِّر في حقكم زاهق»، زاهق: بمعنى مضمحل فانٍ لا بقاء له، ومنه قوله تعالى: ﴿جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْباطِلُ﴾[1] أي انتفى الباطل، لاحظوا إذن أصبح أهل البيت عليهم السلام هم محور الحق والذي يرتبط بهم ينجو والذي يتخلّف عنهم يهلك، هذه هي نظرية «وحدة الحق» وإن الحق له محور وله مقياس.

---

(١) الإسراء: ٨١.

هـذا الأمـر وهـو أن أهـل البيـت هـم محـور الحـق نحـن الآن فـي غنـىً عـن الاسـتدلال عليـه لوضـوحه وثبوتـه فـي الفكـر الإسـلامي ثبوتـاً بـديهياً. لمـا جـاء فـي عشـرات الروايـات عـن رسـول الله ﷺ قولـه: «مَثَـل أهـل بيتـي فـيكم مَثَـل سـفينة نـوح (هـذا الحـديث يسـمّى حـديث السـفينة)، مـن ركبهـا نجـا ومـن تخلّـف عنهـا غرق وهوى»[1] وهذا ثابت بإجماع الفريقين.

وأيضـاً حـديث الثقلـين وهـو قولـه ﷺ: «إنـي تـارك فـيكم الثَقَلـين كتـابَ الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً».[2]

هـذه مجموعـة أحاديـث تجعلنـا فـي غنـىً عـن الاسـتدلال علـى أن أهـل البيـت هـم محـور الحـق، هـذه قضـية ثابتـة، وتحـدثنا عنهـا فـي مواقـع أخـرى مـن هذه المحاضرات.

حاجة الحق إلى محور:

لكن حديثنا اليوم عن هذا السؤال لماذا يحتاج الحق إلى محور؟

الحـق يحتـاج إلـى قطـب، وإلـى مقيـاس، لأن كـل شـخص قـد يـدّعي الحـق «وكـلٌ يـدّعي وصـلاً بليلـى» عجبـاً هـل يمكـن أن نقبـل كـل الأشـخاص أو لا بـدّ أن يوجد مقياس؟

حديثنا عن مقياس الحق.

الأمور المادية لها مقياس، مقياسها التجربة والواقع ولا تحتاج إلى شيء آخر، أنت تريد أن تثبت أن نهار الصيف حار لا يحتاج إلى أدلة عقلية ونقلية، تقف قليلاً تحت الشمس تعرف أن الصيف حار، تريد أن تثبت أن الأرض لها جاذبية، أيضاً لا يحتاج الأمر إلى استدلال عقلي كثير، اقذف شيئاً من مكان عالٍ فسوف تجد أن

(١) مناقب الكوفي ٢: ١٤٧.
(٢) المسترشد: ٥٥٩.

الأرض تجذب ذلك الشيء، في القضايا التجريبية لا توجد مشكلة (فإن التجربة أكبر برهان) ولهذا في القضايا المادية نجد أن الناس سرعان ما تنتهي خلافاتهم ويتفقون على الواقع الذي يثبت لهم بالدليل التجريبي المادي.

وإنما الخلاف والجدل في القضايا غير التجريبية مثل قضايا القيم الأخلاقية، هذا ينبغي أو لا ينبغي، هذا جيد أو غير جيد. هذه القضايا لا تلمس باليد، يعني لا تستطيع أن تلمس باليد إن الكذب أمرٌ سيء والصدق أمرٌ حسن، نحتاج إلى مقياس حينما تقول إن الكذب قبيح والصدق حسن، هذا في القضايا القيمية الأخلاقية، وكذلك في قضايا التشريع، الحلال والحرام تقول إن الربا حرام والبيع حلال، إن الفحشاء حرام ما هو المقياس؟ من الذي جعل هذا حراماً ومن الذي جعله حلالاً؟ لاحظوا هذه قضايا لا تلمس باليد نحتاج فيها إلى مقياس آخر.

هنا توجد لدينا أربعة فروض في المقياس، في مقياس الحق، أنت في العلاقة الاجتماعية مثلاً علاقة الابن مع الأب، العلاقة بين التلميذ والأستاذ، العلاقة القومية والوطنية في كل هذه القضايا ما المقياس الذي يقول إن هذا حق وهذا باطل؟

فروض في مقياس الحق:

هنا أربعة فروض لما هو المقياس بين الحق والباطل:

الفرض الأوّل: إن المقياس لمعرفة الحق هو المنفعة، أي أن الشيء الذي يحقق لي منفعة فهو حق، كما هو مثلاً في نظام السوق الحرة فهو نظام حق وصحيح إذا حقق للمجتمع نفعاً اقتصادياً فذاك هو المقياس في حقانيّة هذا النظام الاقتصادي أو عدم حقانيته.

أي أن المنفعة هي الميزان التي توزن الحق والباطل، والمنفعة التي نتحدّث عنها مرة تكون منفعة شخصية ومرة منفعة فئوية أو قبلية أو منفعة عامة لدائرة أوسع من دائرة الشخص والفئة والقبيلة.

العالم المادي اليوم ومع الأسف ذهب كثيراً وراء هذا المقياس. اليوم العالم رغم توافقه على قوانين الأمم المتحدة لكنه يمارس قوانين أخرى نفعية فيتحدث عن مصالح إستراتيجية في الخليج مثلاً ويرى هذه المنطقة هي مجال حيوي له إذن لا بدّ أن يغزوها ويسيطر عليها، هنا أصبح المقياس هو المنفعة لكنها موضوعة بقوالب مَدَنية، الحقيقة أنها مصالح وأنانيات لكنها تطرح بقوالب قانونية.

الفرض الثاني: أن يكون المقياس هو الوجدان البشري والفطرة التي تقول إن الكذب سيء والصدق جيد، السرقة سيئة والصدقة حسنة يوجد وجدان عند البشر، إن فرق البشر عن الحيوان، أن الحيوان ليس لديه قِيَم وجدانية، بالفعل الحيوان مقياسه أن يأكل حتى يشبع، لكن الإنسان عنده وجدان هذا موجود عند المؤمن والكافر، يوجد صوت للفطرة أن هذا العمل قبيح وهذا عمل حسن، والمؤشر هو الوجدان البشري.

قد يقول قائل فلنجعل الوجدان البشري هو مقياس الحق والباطل.

هذا الأمر أيضاً غير ممكن رغم أن الوجدان حقيقة موجودة، لكن من غير الممكن أن نجعله هو المقياس لأن الناس يختلفون في مصاديق الوجدان البشري، الوجدان البشري يعطينا الخطوط العريضة فيقول الصدق أمر صحيح والكذب أمر غير صحيح، لكن في التفاصيل نجد أن الوجدان البشري تختلط عليه القضايا.

مثلاً صاحب البضاعة التجارية يرفع السعر ويبيعها بثمن غال، هنا الوجدان ماذا يقول؟ قد يقول هذا البايع أنا محتاج، إذن من حقي أن أرفع الأسعار، ولكن من جهة أخرى قد يقول الوجدان البشري إن الناس ليس لديهم قدرة للشراء بهذا السعر فعملية رفع الأسعار هي عملية غير صحيحة. إذن هي قضية قابلة لأن تختلط فيها الصورة لدى الوجدان ولهذا نحتاج إلى مقياس آخر رغم اعتقادنا بالوجدان وهو الذي يُسمى بـ (العقل العملي).

العقل النظري والعقل العملي:

الفلاسفة يقسّمون العقل إلى قسمين: العقل النظري والعقل العملي:

العقل النظري هو دراسة ما هو كائن، فلسفة الوجود والخالق والمعاد وما شاكل ذلك.

العقل العملي: دراسة ما ينبغي أن يكون، أي ان هذا الشيء ينبغي أن يكون أو لا ينبغي، مثلاً الزواج الشرعي أمر صحيح أو غير صحيح، أن يكون للأب بنات شيء جيد أو غير جيد.

قرأت في تقرير خبري أن ٩١% من المصريين لا يريدون الانجاب بالبنات. إذن أين الوجدان؟ لماذا أنت لا تقبل أو تتأذى ﴿إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾،[1] مع أن الإسلام يقول إن الفضل والثواب في البنت أكثر مما هو في الولد، لا أحد يستطيع أن يتنبأ أن سعادته في الدنيا والآخرة تأتيه من الابن أو من البنت. لا أحد يدري فرسول الله بركاته أصبحت من البنت وهي (فاطمة الزهراء) لكن مقاييسنا الدنيوية الخاطئة هي التي تجعل هذا ينبغي وهذا لا ينبغي، أنظروا إلى الوجدان البشري كيف يختلط عليه الأمر بسرعة.

الفرض الثالث:

المقياس هو الوحي الإلهي: فإذا كنّا لا نستطيع أن نجعل المصلحة هي مقياس الحق، ولا نعتمد الوجدان البشري ونجعله مقياس الحق دائماً، إذن لنعتمد الوحي الإلهي. (الآيات القرآنية) وهذا مقياس لا يخطأ، لكن المشكلة في الوحي الإلهي هي أوّلاً إن الوحي الإلهي قد انقطع، وأنت اليوم لا يوجد لديك وحي إلهي، في زمان الوحي كان رسول الله صلى الله عليه وآله حينما يُسئل مسألة

---

(١) النحل: ٥٨.

يقول انتظر الوحي الإلهي، لكن اليوم قد انقطع الوحي الإلهي إذن نحتاج إلى مقياس آخر، والمشكلة ثانياً إن الوحي الإلهي قابل للاختلاف في التفسير، القرآن وحي إلهي لكن لماذا اختلف المسلمون كل منهم يفسّره بشيء.

لاحظوا مثلاً قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[1] الشيعة يقولون هذه نازلة في النبي ﷺ وفاطمة وعلي والحسن والحسين، وأبناء العامة يقولون نازلة في هؤلاء ومعهم نساء النبي كلهنّ، وهذا تفسيران، إذن الوحي يقبل بالتفاسير المتعددة ومعنى هذا انا لا نستطيع أن نجعل الوحي هو وحده المقياس، لأننا سوف نختلف في هذا المقياس إذن نحتاج إلى مقياس رابع لتحديد الحق.

النظرية الإسلامية تقول إن الوجدان البشري صحيح، والوحي الإلهي صحيح لكنها كلها ليست كافية، بل لا بدّ من مقياس آخر، كما أن المنفعة لا يمكن أن تكون هي وحدها المقياس.

ما هو المقياس إذن؟ النظرية الإسلامية تذهب إلى الفرض الرابع.

الفرض الرابع:

أن يكون المقياس هو الحجّة الشرعية، وهذه الحجة الشرعية هي الأنبياء والأولياء المعصومون، ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾،[2] وهكذا نقرأ في زيارة أمير المؤمنين عليه السلام: «السلام عليك يا أمين الله في أرضه وحجّته على عباده».

معنى الحجة ما هو؟

الحجة يعني الدليل الدامغ الذي لا يقبل المناقشة، يوم كان رسول الله ﷺ كان هو الحجة، وبعده كان الإمام عليّ عليه السلام حيث قال رسول الله ﷺ:

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

(٢) الرعد: ٧.

«عليّ مع الحق والحق مع علي يدور معه حيث ما دار»[١] معناه أنه أصبح حجة شرعية وكذلك: «فاطمة بضعة مني يرضى الله لرضاها ويغضب لغضبها»[٢] يعني أصبحت مقياساً شاخصاً يحدد ما هو الحق وبالمقابل ما هو الباطل، هذه هي النظرية الإسلامية أن الحق يحتاج إلى شاخص وإلى مقياس، والمقياس هو عبارة عن الأنبياء والأولياء وهذا هو معنى قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «مَثَل أهل بيتي فيكم مَثَل سفينة نوح عليه السلام» هذا هو قارب النجاة فإن الذي يركب السفينة ينجو والذي لا يركب لا ينجو.

الإسلام هكذا يقول الحق هو محور حركة الإنسان نحو التكامل، ومقياس الحق هو الأنبياء وبعد الأنبياء هم الأولياء وبعد الأولياء هم الفقهاء والعدول.

أنتم تسألون ما هو الحق الذي يريده الله في المواقف السياسية والمواقف الاجتماعية هل المنافع الشخصية هي المقياس؟

هل الوجدان وحده هو المقياس؟

هل الوحي الإلهي هو المقياس؟

الأنبياء ثم الأولياء ثم الفقهاء فهم «حجتي عليكم وأنا حجة الله» كما جاء في الرواية المعروفة عن الإمام الصادق عليه السلام: «الراد عليهم كالراد علينا والراد علينا كالراد على الله وهو على حدّ الشرك بالله»[٣] إذن أصبح المقياس في فترة الغيبة وفي الوقت الذي لا يوجد معصوم أن نرجع إلى الفقهاء العدول.

التعددية الدينية والمذهبية:

على هذا الأساس نفسّر قوله في الزيارة: «فالراغب عنكم مارق واللازم

---

(١) الفصول المختارة: ٩٧.

(٢) الرعد: ٧.

(٣) بحار الأنوار ١٠١: ٢٦٢/ ١.

لكم لاحق والمقصر في حقكم زاهق» محور الحق هم أهل البيت، إذن الذي يخرج عن هذا المحور يكون مارقاً والذي يقصّر عنهم يكون زاهقاً، هذا الأمر يربطنا إلى حديث مهم اسمه التعددية المذهبية والدينية ويوجد حديث آخر أيضاً هو حديث التعددية السياسية وقد سبق أن تناولناه في حديث سابق.

لكن حديثنا اليوم عن التعددية الدينية والمذهبية.

نحن نعتقد أن الإسلام هو الحق، ماذا نقول في اليهودية؟، وماذا نقول في النصرانية هل هي حق أم لا؟

التعددية الدينية هل تعني أن الجميع على حق، أي اليهودي على حق والنصراني على حق، هل هذا هو المقصود بالتعددية الدينية و المذهبية، نحن نعتقد أن التشيع حق، عجباً هل المذاهب الأخرى على حق؟ التعددية المذهبية هل تعني أن الجميع على حق؟

مستويات التعدديّة:

الحديث في التعددية الدينية والمذهبية على مستويين وهذا البحث أنا مضطر لتبسيطه جداً.

المستوى الأوّل: مستوى التعايش الدنيوي.

المستوى الثاني: مستوى الجزاء الأخروي.

الإسلام ماذا يقول في التعددية الدينية والمذهبية؟

الإسلام يقول على مستوى التعايش الدنيوي أنا أقبل بالتعددية الدينية والمذهبية.

وعلى مستوى الجزاء الأخروي لا يؤمن الإسلام بالتعددية الدينية والمذهبية.

هذا يعني اننا الآن في الدنيا نتعامل مع المسلم على ديانته ومع النصراني كذلك واليهودي كذلك، ولهذا عاش الإسلام وهناك في المجتمع الإسلامي

يهود ونصارى ومسلمون وبينهم علاقات اجتماعية قائمة، في العراق وفي غير العراق، الآن وفي زمن النبي صلى الله عليه وآله، هذا هو التعايش على مستوى الدنيا. هنا الإسلام يقبل التعددية الدينية والتعددية المذهبية شيعة وسنّة يعيشون في دولة واحدة ومدينة وقرية واحدة بينهم صلة وعلاقات عشائرية بل أبناء عشيرة واحدة أو بيت واحد، على مستوى الدنيا ليس هناك إشكال.

القرآن الكريم يوصي بالآخرين حتّى من غير المسلمين يقول: ﴿لا يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾.[1]

هذا على مستوى التعايش الدنيوي فإن الإسلام يؤمن بالتعددية الدينية والمذهبية، أما الجزاء الأخروي فالقرآن يقول: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾[2] ومعنى ذلك أنه لا تعددية دينية على مستوى الجزاء الأخروي والقبول الإلهي ومثل ذلك في مجال التعددية المذهبية.

روايات في وحدانية الحق:

رواياتنا تقول أنكم يا شيعة أهل البيت على حق والبقية على باطل حتى لو صاموا وصلوا دون أن يدخلوا البيوت من أبوابها.

أليس القرآن يقول: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوابِها﴾[3] أقرأ لكم بعض الروايات الجميلة:

الرواية الأولى: تقول: إن موسى بن عمران مرَّ برجل رافعاً يديه للسماء يدعو فانطلق موسى في حاجته وغاب عنه سبعة أيام ثمّ رحل إليه وهو رافع يديه يدعو ويتضرع ويسأل حاجته فأوحى الله عز وجل إليه:

---

(١) الممتحنة: ٨.

(٢) آل عمران: ٨٥.

(٣) البقرة: ١٨٩.

يا موسى لو دعاني حتّى يسقط لسانه ما استجبت له حتى يأتيني من الباب الذي أمرته به.[(١)]

الرواية الثانية: عن أبي حمزة الثمالي قال:

قال لنا عليّ بن الحسين زين العابدين: «أي البقاع أفضل؟».

قلت: الله ورسول وابن رسوله أعلم.

قال: «إن أفضل البقاع ما بين الركن والمقام (الركن هو ركن الحجر الأسود، والمقام هو مقام إبراهيم عليه السلام) ولو أن رجلاً عمّر ما عمّر نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يصوم النهار ويقوم الليل ثمّ لقي الله بغير ولايتنا لم ينفعه ذلك شيئاً».[(٢)]

إن لدينا أكثر من سبعين رواية وكثير منها صحيحة السند تقول ان الأعمال لا تُقبَل على مستوى الجزاء الأخروي إلا بولاية أهل البيت عليهم السلام.

الرواية الثالثة:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إلزموا مودّتنا أهل البيت فإنه من لقي الله يوم القيامة وهو يودّنا دخَلَ الجنة بشفاعتنا، والذي نفسي بيده لا ينفع عبد عمله إلا بمعرفة حقنا».[(٣)]

الرواية الرابعة:

عن الإمام الصادق عليه السلام: «إن أوّل ما يُسأل عنه العبد إذا وقف بين يدي الله جلّ جلاله عن الصلوات المفروضات وعن الزكاة المفروضة وعن الصيام المفروض وعن الحج المفروض وعن ولايتنا أهل البيت، فإن أقرَّ بولايتنا ثمّ

---

(١) قصص الأنبياء: ٣٤٧.

(٢) من لا يحضره الفقيه ٢: ٢٤٥/ ٢٣١٣.

(٣) أمالي الطوسي: ١٨٧/ ٣١٤ - ١٦.

مات عليها قُبلت منه صلاته وصومه وزكاته وحجه وإن لم يُقر بولايتنا بين يدي الله جلّ جلاله لم يقبل الله عزّ وجلّ منه شيئاً من أعماله».[(١)]

هذه الروايات يرويها العلامة المجلسي في كتاب الإمامة من كتاب بحار الأنوار في باب «لا يقبل عمل الأعمال إلا بالولاية».[(٢)] وهناك عشرات الروايات الصحيحة المعتبرة.

وهذا في الحقيقة يعطينا فكرة أننا لا نقبل بالتعددية المذهبية على مستوى الحق رغم اننا نقبل بها على مستوى التعايش حتى مع باقي الأديان، ولذلك فإن باقي الأديان هي حرَّة في المجتمع الإسلامي.

آيات قرآنيّة في التعددية:

هناك آيات قرآنية قد يتصور البعض دلالتها على التعددية الدينية حتّى على مستوى القبول والجزاء في الآخرة، بمعنى أن المسلم يدخل الجنّة واليهودي والنصراني أيضاً يدخل للجنة.

الآية الثانية والستون من سورة البقرة قد يستشهد بها البعض على قبول الإسلام بالتعددية الدينية على مستوى الجزاء الأخروي أي لا يوجد فرق بين مسلم أو نصراني كلهم على حق، أنظروا للآية تقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.[(٣)]

قد يقول قائل إنها تدل على أن اليهودي حينما يؤمن بالله واليوم الآخر ويعمل صالحاً يدخل الجنّة، والنصراني كذلك، هذه الآية وقف عندها

(١) بحار الأنوار ٢٧: ١٦٧/ ح

(٢) بحار الأنوار ٨: ٣٦٩.

(٣) البقرة: ٦٢.

المفسرون لأن من الثوابت عندنا في الشريعة الإسلامية أنه يوم القيامة لا يُقبل إلا الإسلام لقوله تعالى ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[1] **هذا ثابت في البديهة والضرورة الإسلامية إذن ما نصنع بهذه الآية؟**

هناك عدة تفاسير ذكرها المفسرون للتخلص من ظهور الآية في التعددية.

التفسير الأول لابن عباس كان يقول هذه الآية منسوخة بآية أخرى وهي قوله ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾.[2]

التفسير الثاني لهذه الآية الكريمة ان المقصود منها هو الإيمان الحقيقي الذي يعني الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، وهنا توجد جملة مقدّرة هي (الإيمان برسوله) فالإيمان الحقيقي بالله يستبطن الإيمان برسول الله ﷺ ومن غير الممكن أن يكون الإنسان مؤمناً بالله إيماناً حقيقياً ثمّ لا يؤمن برسوله. لكن هذا التفسير هو تأويل للآية وخلاف الظاهر منها ونحن غير مضطرين لهذا التأويل.

التفسير الثالث: ربما يكون هو أقرب التفاسير وهو البقاء على ظهور الآية في قبول الأديان كلها حينما لم يثبت لديهم بالحجة الشرعية رسالة النبي ﷺ وحقانية الإسلام.

هؤلاء حينما يكونون موضوعيين صادقين فإن الله يقبل منهم دينهم مهما كان، وهذا هو قانون القاصر والمقصر الذي يشير إليه الفقهاء، بمعنى أن ذلك الذي لم يثبت عنده حقانية الإسلام أو التشيع من دون أن يكون لديه تقصير أو إهمال أو عناد فإن الله تبارك وتعالى يعفو عنه يوم القيامة.

---

(١) آل عمران: ٨٥.

(٢) السابق.

هـذا هـو قـانون الفـرق بـين القاصـر والمقصـر، فقهاؤنـا يـذكرون أننـا نـؤمن بقـانون أن القاصـر معـذور، والمقصـر غيـر معـذور، فقهاؤنـا يقولـون هنـاك فـرق بـين القاصـر والمقصّـر، وكـأن الآيـة تقـول إن الـذين هـادوا والنصـارى والصـائبين مـن كـان مـنهم إنسـاناً صـالحاً ولـيس لديـه تقصـير فـي طلـب الحقيقـة ومعرفتهـا فـإن الله تعالى يقبل منه صلاحه ويؤجره على إيمانه بالله وعمله الصالح.

كرامة الزهراء عليها السلام:

ونخـتم الحـديث ونحـن فـي أجـواء ولادة الزهـراء عليها السلام.[1] عـن كرامـة للزهراء عليها السلام في نشأتها وتكوّنها.

وهي أن رسول الله صلى الله عليه وآله كما ثبت بروايات متواترة من الفريقين وبعض هذه الروايات ترويها عائشة. أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يُكثِر من تقبيل فاطمة وكان يقبّل يديها أحياناً وكان يقبّل صدرها أحياناً. بحيث أن عائشة استغربت.

وقالت: يا رسول الله تفعل بفاطمة ما لا تفعله بغيرها! ما هذا الاعجاب بفاطمة؟

قـال: «يـا عائشـة إنـي أشـم فيهـا رائحـة الجنّـة كلمـا اشـتقت إلـى الجنّـة شـممتها وقبلتهـا وذلـك إنـي يـوم عُـرج بـيّ إلـى السـماء نـاولني جبرائيـل مـن تفـاح الجنـة فأكلتهـا فكانـت مـاءاً فـي صـلبي فلمـا هبطـت إلـى الـدنيا وقاربـت خديجـة كانت منها فاطمة».[2]

فهـذه الروايـة مُتفـق عليهـا، يعنـي هنـاك عشـرات المصـادر لهـذه الروايـة (إن

---

(1) بتاريخ عشرين من شهر جمادي الثاني.

(٢) أنظر كذلك: ذخائر العقبى: ٣٦؛ علل الشرائع ١: ١٨٤؛ نوادر المعجزات: ٩٩؛ دلائل الإمامة: ١٤٨؛ عيون المعجزات: ٥٠؛ الطرائف: ١١١؛ المحتضر: ١٣٦؛ مدينة المعاجز ٢: ٤١٥؛ البحار ٨: ١٥١، ١٨٩، ج ١٨: ٣٥١، ج ٣٧: ٦٥، ج ٤٣: ٦؛ تفسير فرات: ٢١١، ٢١٦؛ مجمع البيان: ٣٧؛ أعلام الورى ١: ٢٩٦؛ ينابيع المودة ٢: ١٣٢.

الزهراء هي تفاحة من تفاحات الجنّة) حيث أصبحت ماءاً في صُلب رسول الله ثمّ في رحم خديجة ثمّ كانت فاطمة.

قد يقول قائل: إن هذا أقرب للأسطورة وإلى الخرافة منه إلى الحقيقة، ما معنى أن الزهراء تفاحة الجنّة؟

الجواب: هذا حقيقة وليس أسطورة وليس فيه أية مشكلة علمية، ألسنا نعتقد أن مريم كانت تأكل من طعام الجنة؟ ﴿كُلَّما دَخَلَ عَلَيْها زَكَرِيَّا الْمِحْرابَ وَجَدَ عِنْدَها رِزْقاً قالَ يا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هذا قالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾(١) أليس هذا من طعام الجنة؟ لا توجد مشكلة أن ينزل طعام إلى الأرض من الجَنّة، أو يصعد رسول الله ﷺ إلى الجنّة ويأكل من طعامها. فضلاً عما إذا كان الإنسان هو الذي قد عَرج إلى عالم الآخرة فالمسألة تكون أيسر، إلاّ أن يُنكر أحد معراجَ رسول الله إلى السماء ولا أعتقد أن أحداً من المسلمين يُنكر المعراج ولا توجد فيه مشكلة علمية.

ما هي المشكلة العلمية في أن الزهراء عليها السلام تشكّلت نطفتها من هذه التفاحة سوى أن القضية غير مألوفة؟ لكن القرآن الكريم يتحدث عن خلق عيسى ويقول: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى مَرْيَمَ﴾(٢) وإذا كانت كلمته ألقاها إلى مريم فكان عيسى فما هي المشكلة أن تفاحة الجنة تصير فاطمة؟

القرآن يتحدّث عن عيسى ومريم يقول: ﴿فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا﴾(٣) هل يقول قائل هذه أسطورة؟

هذا هو القرآن الكريم ونحن نؤمن به، وكل الأديان تؤمن أن عيسى بن مريم هو نفخة من روح الله، المشكلة أن هناك قضايا علمية مألوفة وقضايا علمية غير مألوفة، اليوم العلم يتطور ويصنع الإنسان في أنبوبة بدلاً من رحم

---

(١) آل عمران: ٣٩.
(٢) النساء: ١٧١.
(٣) الأنبياء: ٩١.

الأم، اليوم تطور العلم بحيث يأخذون النطفة والبويضة في أنبوبة وبعد ثمانية أشهر تصبح ولداً، وحيث أصبح هذا الأمر شيئاً عادياً محسوساً إذن لا توجد فيه مشكلة رغم أنه كان غريباً في الحقيقة وغير مألوفاً، لكن عندما رأيناه على أرض الواقع أصبح مقبولاً، كذلك عملية الاستنساخ الحيواني حينما كان يقال أنه يأتي يوم يكون هناك استنساخ للحيوان وللإنسان لم يكن أحد يقبل ذلك لكنه اليوم أضحى حقيقة مقبولة ومشهودة.

هذه هي قصة تكوّن فاطمة من تفاحة الجنّة، لا توجد فيها مشكلة علميّة سوى أنها غير مألوفة.

* * *

المحاضرة الخامسة والثلاثون:

النظرية الإسلاميّة في الحق

الوحدة والتعدديّة

«والحق معكم وفيكم وإليكم وأنتم أهله ومعدنه».

اليوم لدينا حديثان: حديث فلسفي وحديث سياسي، كلُ ذلك في سياق البحث عن قوله في الزيارة: «والحق معكم وفيكم وإليكم...».

اليوم في الساحة الثقافيّة والحضارية المعاصرة يوجد بحثان مهمان:

البحث الأوّل: الحق هل هو واحد أو متعدّد؟

البحث الثاني: التعددية الدينية أم الاحاديّة الدينيّة.

والإسلام له رأي في كلا المحورين من البحث، وهذا يحتاج إلى عرض وتبسيط واستدلال بمقدار ما يتضمن من بحوث علمية، لكن نحن في هذا المجلس نعطي خلاصة الأفكار بشواهد وتبسيط للموضوع.

البحث الأوّل: الحق واحد أو متعدّد؟

ننطلق من الفقرة التي قرأناها «والحق معكم وفيكم وإليكم وأنتم أهله ومعدنه» ما هي النظرية الإسلامية في الحق؟

مفهوم الحق:

الحق مفهوم قد نقول أنه واضح بديهي، الحق في مقابل الباطل، قد نعبر عنه بلون آخر فنقول الصحيح في مقابل الخطأ، دون أن ندخل في تعريفه الفلسفي، الحق هو مفهوم مرتكز وفطري ينطلق إليه الإنسان ويبحث عنه، وكل الناس يبحثون عن الحق في أصالة فطرتهم.

لاحظوا يوجد مصالح ومفاسد وكل شخص يبحث عن مصلحته لكن الفطرة الإنسانية مطبوعة ذاتياً للبحث عمّا هو حق.

أحياناً قد ترى شيئاً أو عملاً فيه مصلحتك الشخصيّة لكنك قد لا تقدم

عليه لأنه خلاف الحق وضميرك لا يقبل منك هذا العمل، لاحظوا هذه مسألة أخرى غير المصلحة والمنفعة، لا يوجد أحد في العالم سواء كان مؤمناً أو غير مؤمن، كافراً أو غير كافر حينما يقيّم السرقة فطرياً يعتبرها عملاً جديراً وجيداً، نعم قد يقدم عليها لكنه يرى في عمق وجدانه انها ليست حقّه ولا شريفة وربما يحاول أن يبررها ولكنه يدري في وجدانه أنها قضية قذرة.

الغصب والعدوان وظلم الآخرين لا أحد يقبله عالمياً، العالم كله يسمي ذلك باطلاً.

إذن الحق مفهوم مرتكز في فطرة الإنسان وهو يبحث عنه ذاتياً، قبل أن تأتي قضية الدين.

الإنسان ذاتياً يبحث عن الحق، ليس يبحث عنه فقط في مجال القيم الأخلاقية بل يبحث عن الحق علمياً أيضاً.

العلماء في الطب والهندسة وغيره لا يبحثون فقط عما يحقق لهم مصالح بل يبحثون عما هي الحقيقة الكونية، سواءاً في مجال القيم الأخلاقية أو في مجال الحقائق العلمية أو في مجال المبادئ الفلسفية.

الإنسان يبحث عن الحق، كل الناس حينما يتساءلون أن هذا الكون له خالق أم ليس له خالق؟ عالم الآخرة والملائكة وعالم ما بعد الموت هل هو حق؟ هذه القضايا نجد أن الإنسان مدفوع نحوها، وقد تشغله مشاغل تبعده عن الخوض فيها لكن الإنسان دائماً مدفوع فطرياً للبحث عنها.

الإنسان مدفوع لأن يبحث عما هو حق في القضايا المبدئية الفلسفية الكونية، وهكذا الإنسان يبحث عما هو الحق والشرعيّة، حيث في كل العالم يوجد قانون والعالم كله ينادي بضرورة تحكيم القانون في البلاد الإسلاميّة وغير الإسلامية، إن فكرة تطبيق القانون هي فكرة تطبيق أحكام تشريعية حقة، نعم انك قد تبحث عن مصلحتك الشخصية لكنك دائماً تحاول أن تسبغ عليها

ثـوب القـانون والشـرعيّة. ولهـذا فقـد أصـبح القـانون لـه قدسـية خاصـة فـي كـل العالم.

كـل العـالم يـدعو إلـى تطبيـق القـانون وكـل الشـعوب لـديها قـانون باسـتثناء الـدكتاتوريات والفراعنـة وسـلاطين الاسـتبداد هـؤلاء لـيس لـديهم قـانون أمثـال صدام والإرهابيين والبعثيين فهؤلاء ليس لديهم قانون.

كـل العـالم يخضـع إلـى قـانون حتـى العـالم الكـافر أيضـاً يقـدس القـانون لكـن الـدول التـي عاشـت تحـت ظـل الاسـتبداد عرفـوا أن هـؤلاء المسـتبدين لا يلتزمـون بـأي قـانون، القـانون هـو مصـلحتهم الشخصـية، شـعوبنا اعتـادت علـى سلاطين ليس لديهم أي قانون، لكن القانون في العالم هو شيء مقدس.

مجالات الحق:

هنـاك عـدة مجـالات يجـب تحكـيم المقيـاس فيهـا لتشـخيص مـا هـو الحـق في مقابل ما هو الباطل.

١ _ المبادئ الفلسفية.

٢ _ القيم الأخلاقية.

٣ _ الأحكام التشريعية.

٤ _ المواقف السياسية والاجتماعية.

هـذه أربعـة مجـالات يختلـف فيهـا اتجـاه الحـق عـن اتجـاه الباطـل الأمـر الذي يجعلنا بحاجة إلى مقياس للتعرف على ما هو الاتجاه الصحيح.

يوجد هناك مجال آخر للاختلاف لكنه ليس مجالاً للحق والباطل بل هو مجال الذوقيات والأمور النسبية التي لا يوجد فيها حق وباطل، مثلاً هناك شخص يحب اللون الأصفر وآخر يحب اللون الأخضر هذه قضايا نسميها ذوقيات وكلاهما حق، فأنت لا تستطيع أن تقول على أحدهما حق والآخر باطل.

مجالات الحق والباطل أربعة، الأفكار، والقيم الأخلاقية، والأحكام التشريعية، والمواقف السياسية والاجتماعية أما ما عدا ذلك مثل القضايا الذوقية أو النسبية فهي خارجة عن دائرة الحق والباطل.

النظرية الإسلاميّة في الحق:

النظرية الإسلاميّة تؤمن بـ (وحدة الحق) وتعددية الاجتهاد وتوجد اليوم نظرية معاصرة تؤمن بها الليبرالية الغربية اسمها (تعددية الحق) يعني لا يوجد هناك حق واحد بل ان كل ما يعجبك هو حق فكل المجالات هي مثل القضايا النسبية كلها حق، اليوم الليبرالية الحديثة هكذا تقول.

وحدة الحق:

الإسلام والأديان الأخرى وفلسفات الحق تقول أن هناك وحدة حق وتعددية اجتهاد.

مثلاً في القضايا الفَلَكية فإن الواقع الخارجي لا يخلو امّا ان الأرض تدور حول الشمس أو الشمس تدور حول الأرض هذه قضايا خارجية والحق فيها لا يمكن أن يتعدد ويصبح اثنين، وهكذا مثلاً الشمس هي مركز المجموعة الشمسيّة وهذه الكواكب تابعة لها أو أن مركز المجموعة الشمسية هو الأرض، على أرض الواقع فإن الحق واحد، إذا ثبت أن الشمس هي مركز المجموعة الشمسية إذن تكون نظرية مركزية الأرض باطلة وإذا ثبت أن الأرض ثابتة والشمس تدور حولها إذن فإن النظرية الأخرى باطلة، هكذا في الرياضيات والفيزياء والكيمياء وفي الجغرافية وحركة الرياح وفي الحقائق الكونية الكبرى مثل وجود الخالق أو عدم وجود الخالق فإن الحق واحد في الجميع لا يتعدد، النظرية الدينية تؤمن أن الحق واحد لا يتعدد وما عداه باطل، الهدى في معرفة الحقيقة وفي مقابله ضلال وجهل، فهناك هدى وهناك

ضلال ﴿مَنِ اهْتَدى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها﴾[1] أمّا أن يكون الجميع على هدى رغم اختلاف اعتقاداتهم فهذا مرفوض.

تعددية الاجتهاد:

لكن إلى جانب وحدة الحق يوجد شيء آخر يكمّل النظرية هو (تعددية الاجتهاد) مثلاً في الفقه يوجد لدينا مراجع دين وكل شخص يقلّد أحد المراجع، الحكم الشرعي واحد وهو ما عند الله وذاك هو الذي يمثل الحق، لكن يوجد عدة مجتهدين أنت حر في أن تقلّد أحد هؤلاء المجتهدين بحسب المقاييس الشرعية، هذا نسمّيه تعددية الاجتهاد، وهكذا في القضايا الطبية والفلسفية والجغرافية والهندسية، وهذه نقطة هي من روائع مدرسة الإسلام ومدرسة أهل البيت ان لا يغلق الطريق على الحركة العلمية للإنسان، بل يقول أيها الإنسان ابحث عن الحق وقد تختلفون في النظريات لكن طالما كان العمل كلّه في اتجاه اكتشاف الحق فهو مقبول حتّى إذا كان خطأ. ولهذا فإن أهل البيت عليهم السلام لم يُغلقوا باب الاجتهاد في معرفة الحقيقة الفقهيّة وغيرها، وقد أصبح هذا أحد نقاط الفرق بين الشيعة وبين أهل السنة.

أهل السنّة قالوا هناك أربعة مذاهب ولا يوجد بعدها مذهب شرعي وهي المذهب الحنفي والمالكي والحنبلي والشافعي وهي مذاهب وُلدت منذ القرن الثالث والرابع الهجري ولا يوجد عندهم مجتهد آخر ومرجع تقليد جديد، أمّا أهل البيت فقد قالوا رغم أن الحق واحد لكن أيها الناس أنتم اذهبوا واجتهدوا وإقرأوا القرآن وابحثوا وادرسوا واعملوا على اكتشاف الحقيقة، الحقيقة ليست حكراً على مجتهد واحد، وهكذا في كل المجالات العلمية الأخرى لكن طبعاً بشرطها وشروطها، ليس الاجتهاد على أساس قضايا

---

(١) يونس: ١٠٨.

مزاجية وإنما الاجتهاد بحثاً عن الحق، الطبيب من حقه أن يجتهد لكنك غير مستعد للاعتماد على طبيب يعتمد على مزاجياته الخاصة وهكذا في المجالات الأخرى، الاجتهاد مطلوب ولكن باتجاه اكتشاف الحق وعلى اساس موازين علميّة.

ولهذا فإن أمير المؤمنين عليه السلام يقول:

«يا كميل الناس ثلاثة عالم رباني ومتعلّم على سبيل نجاة _ يعني يبحث عن الحق حتّى ينجو _ وهمَج رعاع».[1] هؤلاء الهمج لا يبحثون عن الحق بل يبحثون عن المكاسب والمنافع وتحت تأثير الرأي الجمعي والانفعال النفسي.

توجد كلمة رائعة للإمام أمير المؤمنين عليه السلام يقول فيها: «قوام الدين بأربعة عالم مستعمل لعلمه، وجاهل لا يستنكف ان يتعلم، وجواد لا يبخل بمعروفه، وفقير لا يبيع آخرته بدنياه»[2] المجتمع السعيد يحتاج إلى غني لا يبخل بماله، وكذلك إلى فقير لا يبيع آخرته بدنياه وجاهل لكن يبحث عن الحقيقة، وعالم يبذل علمه للآخرين.

إذن النظرية الإسلاميّة تقول وحدة الحق وتعددية الاجتهاد ليس على أساس ذوقي ولكن على أساس علمي.

نموذج الاجتهاد النفعي:

بنو إسرائيل لما عبروا البحر رأوا في ذلك الجانب قوماً يعبدون الأصنام فانقلبوا على نبيّهم، ليس لديهم موضوعية في الطرح ولا أسس علمية وإنما أمزجة، قالوا اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، هم آمنوا بالله تعالى لكن لما عبروا البحر ورأوا القوم وأصبحت عندهم تعددية سياسية وفكرية، قالوا: ﴿اجْعَل لنا

---

(١) الخصال: ١٨٦/ ٢٥٧.

(٢) وفي الرواية نسخة أخرى تقول: «قوام الدنيا بأربع»، نهج البلاغة: الكلمات القصار/ رقم ٣٧٢.

إلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ﴾[١] لكن القضية هنا لم تكن من منطلقات علميّة بل أصبحت ذوقية وليست قضية علمية موضوعية ﴿وَجاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلى أَصْنامٍ لَهُمْ قالُوا يا مُوسَى اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هؤُلاءِ مُتَبَّرٌ ما هُمْ فِيهِ (يعني هالك) وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾.[٢]

ولهذا فإن الإمام أمير المؤمنين بعد معارك صفين والجمل حين قال له رأس الجالوت (وهو المرجع الديني عند اليهود): أنتم ما مضى على وفاة نبيكم ثلاثين سنة حتى أصبح بعضكم يضرب وجه الآخر بالسيف. فأجابه أمير المؤمنين وهو قوي البديهة وواضح الرؤية قال: «وأما أنتم فلم تجف أقدامكم من ماء البحر حتى قلتم اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة».[٣]

البحث الثاني: التعددية الدينية:

أنتقل إلى بحث معاصر هو (التعددية الدينية).

هناك عدة معاني للتعددية الدينية.

المعنى الأوّل: أن الديانات كلها صحيحة وكلها حق رغم الاختلاف بينها. هذه النظرية من وجهة نظر الإسلام باطلة، فقد قلنا أنه توجد وحدة حق ولا يمكن اعتبار كل الأفكار والمعتقدات الدينية المتضادة حق.

المعنى الثاني: أن الناس أحرار في اختيار الدين، رغم انه يوجد حق وباطل، لكن الناس أحرار ولا يوجد تكليف من الله عليهم، كل واحد يعمل بما يريد ويختار ما يريد كما هي القضايا الذوقية.

هذه النظرية أيضاً خطأ من وجهة نظر الإسلام.

---

(١) الأعراف: ١٢٨.

(٢) الأعراف: ١٢٨ و١٢٩.

(٣) مناقب آل أبي طالب ١: ٣٢٤.

النظريــة الإســلاميّة تقــول رغــم ان النــاس أحــرار فــي اختيــار ديــنهم ومعتقداتهم ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[(١)] لكن هم مكلفون باختيار ما هو الحق.

مـثلاً أنـت حـر فـي أن تـذهب إلـى هـذا الطبيـب أو أن تـذهب إلـى ذاك الطبيـب، لكـن علميـاً أنـت مكلّـف أن تـذهب للطبيـب العـالِم ولا تـذهب إلـى الطبيـب الخرافـي، هـذا هـو تكليفـك، رغـم انـك حـرٌّ لكـن العقـل يقـول لـك: اذهـب إلى ذاك الطبيب الصادق المخلص ولا تذهب إلى الطبيب الكذّاب المخادع.

الإسـلام يقـول النـاس أحـرار فـي أن يختـاروا مـا يريـدون، ولكـن إذا تركـوا الحق فذلك هو الضلال والخطأ والخسران.

القرآن الكريم يقول: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾.[(٢)]

﴿مَن اهْتَدى فلنَفسه ومَنْ ضَلَّ فإنَّما يَضِلُّ عَلَيْها﴾.[(٣)]

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾.[(٤)]

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾.[(٥)]

صـحيح أن هنـاك حريـة دينيـة لكـن الإسـلام يقـول إلـى جانـب الحريـة فـي المعتقد هناك إلزام عقلي باختيار ما هو الحق والصواب عبر الأدلة العلميّة.

هــذه هــي خلاصــة النظريــة الإســلامية فــي مســألة التعدديّــة الدينيــة والمذهبية.

---

(١) البقرة: ٢٥٦.

(٢) البقرة: ٢٥٣.

(٣) يونس: ١٠٨.

(٤) البينة: ٦ و٧.

(٥) البلد: ١٧ - ١٩.

نحن في داخل الإطار الإسلامي.

أوّلاً: يوجد فينا شيعة وسنة، فيوجد حق وباطل، الحق هو التشيع وهو مذهب أهل البيت وما عداه باطل.

ثانياً هل توجد حرية مذهبية؟

نعم، مذهب أهل البيت يقول هناك فرصة للبحث، دعوا هذا الشاب يبحث ليكتشف الحقيقة هُوَ مكلّف بأن يبحث عن الحقيقة، ونظرية أهل البيت تقول إن الحقيقة واحدة وهذه الحقيقة الواحدة من ربحها فقد ربح الجنة ومن لم يؤمن بها فقد خَسِرَ الجنّة.

الشيخ المجلسي في كتابه بحار الأنوار يذكر روايات صحيحة السَنَد تقول إن من مات على غير ولاية أمير المؤمنين فمصيره بئس المصير، حيث لا تقبل أعماله ولا يدخل الجنّة.

أذكر أنني مع أستاذنا الشهيد السيد محمّد باقر الصدر رضوان الله عليه كان يستعرض هذه الروايات التي يذكرها الشيخ الحر العاملي في كتاب وسائل الشيعة في باب العبادات وشرط قبول العبادة، حيث تذكر مجموعة من الروايات أن الولاية هي أحد شروط قبول العبادة.

الشهيد الصدر كان يستعرض هذه الروايات ويقول هذه روايات صحيحة في أن من لم يؤمن بولاية أهل البيت هو بمثابة من لم يؤمن برسول الله وهو بمثابة من لا يؤمن بالقرآن الكريم.

نحن نقول عن الذي لا يؤمن بالقرآن الكريم أن أعماله غير مقبولة.

لدينا مجموعة روايات في شروط قبول الأعمال وأن الولاية هي أهم تلك الشروط.

لكن علماءنا يذكرون الفرق بين القاصر والمقصّر، فلعل شباباً في

أندونوسيا أو في الصين لا يعرفون عليّاً والحسن والحسين وربما لا يكون لهم ذنب لأن ظروفهم لا تسمح لهم باكتشاف الحقيقة.

يذكر أحد مشايخنا المبلغين انه ذهب إلى قرية في الصين تُسمى صن صان يقول عندما بحثت في تاريخ هذه القرية وسبب تسميتها بهذا الاسم رأيت أن هذه القرية اسمها بالأصل مأخوذ من حسين حسين، حيث كان يوجد شيعة في هذه المدينة وهؤلاء كانت لهم مراسم حسينية يرددون فيها اسم حسين حسين، وبمرور السنين أصبحت هذه القرية اسمها صن صان.

إن موضع الشاهد هنا أنه من ممكن في قرية من القرى في أفريقيا أو في الهند لا يعرفون من هو جعفر بن محمّد الصادق ولا موسى الكاظم ولكن ذلك بدون تقصير حيث لم يذهب لهم عالم ديني يشرح لهم الحقيقة، هؤلاء يسمّون قاصرين وليسوا مقصّرين أي غير متعمدين، إذن يوجد فرق بين القاصر والمقصر وفقهاؤنا يرون أن المقصّر هو الذي يعاقَب ويحاسَب أما ذاك القاصر الذي لم يجحد بحقيقة عرفها، وإنما ضاعت عليه الحقيقة فإن الله تعالى يرحم هؤلاء.

ولهذا فإن الروايات التي قرأت بعضها عليكم تقول عن الإمام عليّ عليه السلام: «إن للجنّة ثمانية أبواب، باب يدخل منه النبيون والصديقون، وباب يدخل منه الشهداء والصالحون، وخمسة أبواب يدخل منها شيعتنا ومحبونا...، وباب يدخل منه سائر المسلمين»[1] إذن سائر المسلمين يدخلون الجنة لكن بشرط أن يكونوا غير معاندين ولا معادين للحقيقة كما هم أعداء أهل البيت وأعداء الشيعة «والباب الثامن يدخل منها سائر المسلمين ممن لم يكن في قلبه مقدار ذرَّة من بغضنا أهل البيت».

أهل البيت يقولون أن الحق الذي هو واحد يحتاج إلى مقياس.

(١) الخصال: ٤٠٨.

هـل تسـتطيع أن تقـول ان كـل النـاس هـم مقيـاس الحـق؟ وإذا كـان النـاس مختلفين فهل يعني ذلك تعدد الحق؟

كلا، القرآن الكريم يقول إن الأنبياء والأولياء المعصومين هم مقياس الحق.

﴿كانَ النّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ﴾.[1]

وكذلك «عليّ مع الحق والحق مع علي يدور معه حيث ما دار» هذا هو مقياس الحق، إذا أردت الحق يجب أن تمشي وراء المقياس، أي يوجد هناك مصباح يجب أن تمشي وراءه، صحيح أن العرف الاجتماعي يقول، أنت حرٌّ في أن تدخل هذه الغابة لكن يجب أن تدخلها مع مصباح، الأنبياء دورهم دور المصباح الذي يضيء الطريق ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾[2] هذه هي نظرية الدين في مسألة الحق والتعددية الدينية والمذهبية.

رواياتنا هكذا تقول إن أهل البيت هم الصراط المستقيم.

أهل البيت عليهم السلام هم صراط الحق:

المفضّل يقول سألت أبا عبد الله الصادق عليه السلام عن الصراط فقال: «هو الطريق إلى معرفة الله وهما صراطان صراط في الدنيا وصراط في الآخرة أما الصراط في الدنيا هو الإمام المفترض الطاعة»[3] هذا هو الصراط وكل من يتّبع هذا الصراط ينجو والذي لا يتبعه يهلك.

والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(١) البقرة: ٢١٣.

(٢) الأحزاب: ٤٥.

(٣) معاني الأخبار: ٣٢/ ١.

المحاضرة السادسة والثلاثون:

ميراث النبوة

«وميراث النبوة عندكم».

حديثنا اليوم عن هذا المقطع من الزيارة الجامعة الكبيرة وهو قوله: «وميراث النبوة عندكم» هذا المعنى يتكرر في موردين من الزيارة الجامعة الكبيرة هنا يقول «وميراث النبوة عندكم» وقبل ذلك في مقطع آخر هكذا قال «وورثة الأنبياء» حديثنا عن الميراث أن النبوة هل هي ميراث أم هي استحقاق؟

وما معنى الميراث؟ وما هي أصول التوارث؟

حديثنا عن هذا الاتجاه وكيف كان أهل البيت هم أصحاب ميراث الأنبياء؟

الإرث: معناه في اللغة التركة التي يتركها الإنسان بعد أن يموت.

الوراثة: تعني عملية الانتقال من الشخص الميت إلى الوارث هذا يسمى وراثة.

أنواع التركة:

التركة وهي الشيء الذي يورث على عدة أنحاء وصور وأنواع.

مرة تكون تركة مالية، وأحياناً تركة أخلاقية كما تنتقل صفات الأب إلى الابن وأحياناً في الصفات البدنية، ولهذا يقول العلماء في الجانب الأخلاقي إن الصفات الوراثية هي أكثر تأثيراً في الطفل من الفعاليات التربوية، أي ان الإنسان يخضع في أخلاقيته وسلوكه إلى عاملين، أما عامل وراثي وأما عامل تربوي، كالمدرسة والأم والأب والمحيط الاجتماعي والكتُب فهذه تضفي عليه أخلاقية خاصة، لكن بالحقيقة فإن الصفات الوراثية التي يأخذها من الأب والجد والخال هذه أكثر أثراً في سلوكيات الولد.

ولهذا عندنا حديث شريف عن الإمام الصادق عليه السلام يقول: «الخُلُق خُلُقان أحدهما نيّة والآخر سجيّة».

قيل: فأيهما أفضل؟

قال عليه السلام: «خُلُق النيّة»[(١)] أي ان هناك نوعين من الأخلاق أحدهما الأخلاق الوراثية، كما إذا كان أبوه شجاعاً وهو أيضاً ورث الشجاعة منه، أو كان أبوه كريماً هو أيضاً ورث الكرم منه، هذه قضية أخذها بالوراثة وبدون جهد، هذه يسميها الإمام عليه السلام أخلاق سجيّة أي ان طبيعته النفسيّة مبنية على ذلك، لكن يوجد نوع ثان من الأخلاق وهي أخلاق رويّة، أي ان الإنسان هو يخلّق نفسه ويربّي نفسه عليها، هو لم يرث هذه الأخلاق لكن يحاول أن يتعلّم ويتأقلم ويهذّب نفسه، يعاشر الصالحين والكرماء حتى يكون من الصالحين والكرماء، هذه يسميها الإمام أخلاق روية، أي يتروّى ويتربى عليها، فلما سُئل الإمام عليه السلام أيهما أفضل الأخلاق السجيّة أو الأخلاق الرويّة؟ قال عليه السلام: الأخلاق الروية لأن هذه الأخلاق فيها جهد وتعب.

وعلى كل حال ولنعد إلى أصل البحث فنقول إن التركة التي تنتقل من الأب إلى الابن، مرة تكون تركة مالية كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيارَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ﴾،[(٢)] ومرةً تكون تركة أخلاقية معنوية.

وأحيانا تكون التركة التي تنتقل بالتوارث هي عبارة عن موقع سياسي مثلاً مَلِك يموت فيكون ابنه مكانه، هذا هو التوارث على أساس القوة والغلبة أو الأسرة والقبيلة، وليس على أساس الانتخابات ولا على أساس لياقة وأهلية.

وهناك توارث في المقامات والمواقع الدينية أي (ب) يأخذ من (أ) لكن لا يأخذ أموالاً ولا مُلكاً وإنما يأخذ العلم والكمال والمقامات الإنسانية العالية، هنا القرآن الكريم يقول: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا﴾[(٣)] الكتاب هو عبارة عن العلوم الإلهية التي يتوارثها الأنبياء.

---

(١) تحف العقول: ٣٧٣.

(٢) الأحزاب: ٢٧.

(٣) فاطر: ٣٢.

لـدينا ميـراث آخـر وهـو ميـراث الآخـرة والجنـة، هـذا ميـراث لـيس بمعنـى أن (أ) مـات وورثـه (ب)، بـل ميـراث بمعنـى الأخـذ والاسـتحقاق ﴿تِلْـكَ الْجَنَّـةُ الَّتِـي نُـورِثُ مِـنْ عِبَادِنَـا مَـنْ كَـانَ تَقِيًّـا﴾،[1] هنـا ﴿نُـورِثُ مِـنْ عِبَادِنَـا﴾ لـيس بمعنـى أن الجنـة يأخـذها الابـن مـن أبيـه، بـل ان الله تبـارك وتعـالى أعطـاهم هـذه العطيـة وهـي تسـمى ميـراث باعتبـار أنهـا تكـون فـي عاقبـة أمـرهم انتقـال مـن مالـك حقيقـي هـو الله إلى مالك مجازي هو الإنسان.

والسـؤال الآن أن هـذا الانتقـال الـوراثي سـواء فـي الأمـوال والأخـلاق والصـفات أو فـي المقامـات الإنسـانية أو مقامـات الملـك أو فـي الآخـرة والجنـة، هـذا الانتقـال الـوراثي بكـل معانيـه ومجالاتـه السـابقة مـا هـي أسـبابه وعواملـه؟ ومـا هي واسطة الانتقال؟

وسائط التوارث:

توجد مجموعة وسائط لانتقال التركة.

الواسـطة الأولـى: هـي الجينـات الوراثيـة، فـالعلم اكتشـف أن صـفات النخلـة والشـجرة تنتقـل إلـى بـاقي الأشـجار والنخيـل وصـفات الأب تنتقـل إلـى أبنائـه عبـر الجينـات الوراثيـة، هنـاك كائنـات مجهريـة لا تُـرى بـالعين تنتقـل مـن أصـلاب الرجـال إلـى أرحـام الأمهـات، فـي تلـك الكائنـات المجهريـة، مكتـوب فيهـا الشـكل والأخـلاق واللـون فـي تلـك الخليـة المجهريـة التـي لا تـرى بـالعين، كـل وجـودك الآن كـان موجـوداً فـي مخلـوق صـغير يحتـاج مليـون مـرة أن نكبـره بالمكروسكوب حتّى نراه.

الواسطة الثانيـة: هـي عبـارة عـن القـوة والغلبـة، مـثلاً الحكـم العباسـي أخـذ المُلـك مـن الحكـم الأمـوي بـالقوة ولـيس عـن طريـق الوراثـة، هـؤلاء يتوارثـون

(١) مريم: ٦٣.

الحكم والمُلك، من خلال الانقلاب العسكري والغلبة العسكرية إذن فالقوة والغلبة هي أحد الوسائط في وراثة الملك.

الواسطة الثالثة: التقدير والاصطفاء الإلهي، يعني أن الله تعالى يجعل (ب) وريثاً لـ (أ) ليس على أساس الغلبة وإنما على أساس التقدير الإلهي الشرعي، يقول القرآن: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ﴾ **أي هذه وراثة على أساس التقدير والاستحقاق والاصطفاء الإلهي** ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ وَقالَ يا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾.[1]

وهكذا يقول القرآن إن المقامات الكمالية في الإنسان تنتقل عبر إرادة الله ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْراهِيمَ وَآلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ﴾[2] **هذا اصطفاء إلهي** ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا﴾.[3]

ميراث النبوة:

من المناسب أن أقف عند قوله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ﴾،[4] **حيث توجد وراثة مُلك لكن عبر الاصطفاء الإلهي.**

هذا الأمر فيه بحث تاريخي وسياسي مهم جداً نتناوله اليوم بشكل موجز، وهو عبارة عن ظاهرة تاريخية ورؤية دينية.

وخلاصة هذه الرؤية الدينية للتاريخ أن النبوات مما قبل داود وسليمان كما تقول الروايات كان المُلك السياسي في بيت والنبوة الإلهيّة في بيت آخر، ودور النبي هو عبارة عن الارشاد والوعظ وليس عبارة عن الحاكميّة السياسيّة.

---

(١) النمل: ١٦.

(٢) آل عمران: ٣٣ و٣٤.

(٣) فاطر: ٣٢.

(٤) النمل: ١٦.

لكن حينما جاءت مرحلة سليمان وداود شهدنا تقدماً آخر، وهو عبارة عن اتحاد المرجعية الدينية والمرجعية السياسية لأول مرة في بيت واحد وشخص واحد فأصبح الحاكم هو النبي والنبي هو الحاكم.

أمّا ما قبل ذلك فنجد يوسف مثلاً قال للملك: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ﴾[1] أي اجعلني وزيراً لك، فيما يبقى الحاكم السياسي وهو الملك شخص آخر غير النبي. وكذلك موسى وهارون حيث قال الله تعالى لهما: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[2] فإن كل ما طلبه موسى وهارون من فرعون هو التسامح مع بني إسرائيل وعدم استرقاقهم. لم يقولا له تنحّ عن الملك والحكم، وإنما قالوا: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ﴾[3] أي ارشدوه إلى أن يمارس ممارسة تعتمد الحرية والكرامة الإنسانية فيما يبقى هو المَلِك، فكان المُلك في بيت والنبوة في بيت آخر، هذا كان في عهد بني اسرائيل، ولكن نتيجة التكامل الاجتماعي تغيرت الإرادة الإلهية حيث أن الله تعالى شاء منذ مرحلة سليمان وداوود أن تتوحد المرجعية الدينية والسياسية حتى وصلنا إلى نبينا محمّد ﷺ حيث كان هو النبي وهو القائد العسكري السياسي.

وحدة النبوة والمُلك:

القرآن الكريم يشير إلى هذا الموضوع في آيات عديدة نقرأ منها قوله:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنا

(١) يوسف: ٥٥.
(٢) طه: ٤٣ و٤٤.
(٣) طه: ٤٧.

﴿مَلِكاً﴾[1] لم يقولوا له أنتَ كن ملكاً علينا، لكن نريد ان يكون علينا قائداً ﴿نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[2] هذا النبي أشار لهم ان واقعكم الأخلاقي لا يسمح لكم أن تؤسسوا دولة ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾[3] فأنتم تحملون ادعاءات عريضة بدون تطبيق، وإذا جدَّ الجد فليس لديكم قدرة ان تمسكوا بالحكم الديني.

على كل حال فإن الله تبارك وتعالى قد استجاب لهم، فيسّر لبني اسرائيل ملكاً من بعد موسى اسمه طالوت، النبي موجود لكن القائد العسكري أيضاً موجود، وكان النبي داوود هو جندي في جيش طالوت في أرض مصر وبلاد الشامات، لكن داوود الذي هو الآن جندي لَمَعَ نجمُه وبرز اسمه بسرعة، ويبدو أنه كان مقاتلاً من الطراز الأوّل، ويجيد القنص بشكل كبير، لقد كان المعسكر الآخر بقيادة جالوت.

طالوت قال لجنوده مَن الذي يقوى على جالوت؟

فقال له داوود: أيها الملك أنا أقتل جالوت، فأخذ داوود خمس أحجار وضعهنّ في مخلاته _ أي مخزن الأحجار _ ثمّ تقدم إلى الخطوط العسكرية المتقدمة، وقال: أريد منكم فقط أن تروني أين جالوت؟

فلما أرشدوه عليه اقترب منه جداً، فسدد له حصاةً وقعت في جبينه فخرّ صريعاً، وانهزم عسكره وبرز يومئذ داوود وأصبح يُشار إليه بالبنان باعتباره هو القائد الحقيقي وليس طالوت، ولما توفي طالوت أصبح القائد العسكري داوود، فاجتمعت القيادة العسكرية والقيادة الدينية لأوّل مرة في تاريخ الأنبياء وبذلك انتقلنا إلى مرحلة جديدة على خلاف المرحلة السابقة.

---

(١) البقرة: ٢٤٦.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

هذا بحث في غاية الأهمية، اليوم نحن نحتك به احتكاكاً حقيقياً.

هناك ادعاء يقول إن الدين يتضاد مع السياسة وأن المرجع الديني يجب أن يبتعد عن السياسة، لكن نحن نعتقد أن هذا ادعاء كاذب، الأنبياء أتحدت فيهم المرجعية الدينية والمرجعية السياسية، داوود وسليمان هم الذين بدءوا هذه المرحلة.

خصائص حكومة داود:

لقد كانت مجموعة خصائص لحكومة داوود وسليمان.

الخصوصية الأولى: إقامة الحكومة الدينية:

إن أوّل من أقام الحكومة الدينية هو النبي داوود عليه السلام وبعده سليمان عليه السلام، وهذا يدل على أن الدين قادر على أن يؤسس مجتمعاً مدنياً، وأنه قادر على أن يدير العملية السياسية فلقد اثبتت حكومة داوود وسليمان قدرة الدين على إدارة العملية السياسية في قمة مستوياتها، لقد ضرب الله تعالى لنا مثلاً على أن الأنبياء والعلماء ومراجع الدين يملكون القدرة على إدارة العملية السياسية، بل لديهم القدرة على إقامة أعظم حكم في العالم ولعل ذلك هو أجمل تفسير لقول سليمان عليه السلام: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾[1] أي أن الملك الذي كان عند داوود وسليمان لا يوجد مثله في العالم إلى يوم يبعثون.

الخصوصية الثانية: مكافحة الفساد الإداري:

نصل إلى الخصوصية الثانية في حكومة داود وسليمان وهي مكافحة الفساد الإداري حيث أن القرآن الكريم فيه إلفات جميل إلى ذلك.

هناك سؤال حقيقي في أن الأنبياء والعلماء ومراجع الدين هل لديهم قدرة على مكافحة الفساد الإداري أم ليس لديهم قدرة لطبيعة روح التسامح والمحبّة والحنان الذي يحملوه؟

---

(١) ص: ٣٥.

مكافحة الفساد الإدراي:

القرآن الكريم يضرب لنا نموذجاً من سليمان في مكافحة الفساد الإداري.

في القرآن الكريم يوجد قصتان عن سليمان واحدة مع الهدهد وأخرى مع شياطين الجن، فكما تعرفون ان الله تعالى سخّر الطير لسليمان بحيث أن جنود سليمان كانوا من الإنس والجن والشياطين والطيور والجبال والرياح، وكان الهدهد يعمل كمخابرات عند سليمان، وقد أرسله في مهمة معينة فتأخر الهدهد، فقال سليمان: ﴿مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾،[1] **لم يقل سليمان «العفو أقرب للتقوى» فالمهمة هنا هي مهمة قانونية، وعمل إداري وحقوق الناس، وحين يتخلف أحد عن ذلك فإنه يحتاج إلى عقوبة، هنا ليس موطن الرحمة وإنما هو موطن العقاب.**

هناك سجون كانت لدى سليمان، يقول الله تبارك وتعالى في قصة سليمان: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ﴾[2] **هم مقيدون بالسلاسل والحديد في سجون سليمان، هذا هو مكافحة الفساد الإداري مما يدلّل على أن الحكم الديني قادر على بناء المجتمع المتحرك والنشط والفاعل، الذي يستبطن القانون والعقوبات وليس مجرد مواعظ وأخلاقيات.**

الخصوصية الأولى في حكومة داوود وسليمان هي تأسيس الحكومة الدينية، والخصوصية الثانية هي تسخير الجبال والطير والريح والقدرة الإدارية والحزم والانضباط القانوني لدى داود وسليمان، يقول تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ

---

(١) النمل: ٢٠ و٢١.

(٢) ص: ٣٦ - ٣٨.

داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنّا فاعِلِينَ﴾[1] وأيضاً يقول تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ غُدُوُّها شَهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ﴾.[2]

أُسطورة بساط الريح:

هذا الحديث تناولناه في محاضرات سابقة، لكن توجد هناك أسطورة اسمها بساط الريح وربما يكون مصدر هذه الأسطورة هو بساط سليمان.

فالقرآن الكريم يقول: ﴿وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ غُدُوُّها شَهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ﴾ **أي أن الرياح كان سليمان يقول لها أَمض يميناً وامطري في تلك البلاد، فهي تسير مسافة شهر وتسقي الناس، وهكذا يقول لها امضي يساراً، لقد كانت ميزة سليمان ان الريح تجري بأمر الله أوّلاً وثانياً تجري بأمر سليمان بإذن الله تعالى.**

هنا جاءت أساطير واسرائيليات تقول إن سليمان كان عنده بساط وهذا البساط له ألف ركن وعلى كل ركن ألف بيت، أي ان هذا البساط كان يتسع إلى مليون بيت، بعض الباحثين[3] جاء وناقش ذلك وقال إن هذا البساط بهذا الوصف المذكور يجب أن تزيد سعته على مائة كيلومتراً وهذا خيال وأسطورة، وإذا افترضنا أن كل بيت في هذا البساط متكون من شخصين إذن هذه المدينة القائمة على هذا البساط تتكون من مليونين شخص، وإذا كان عدد جنود سليمان على هذا البساط فقط مليونين، إذن فإن عدد الناس الذين حكمهم سليمان ما بين أطفال ونساء وما شاكل ذلك تقريباً سيزيد على عشر ملايين، ويومئذ أرض فلسطين لا تكفيهم، ويومئذ أين ينزل هذا البساط فإن فلسطين لا يوجد بها مساحة كيلومتر واحد مسطح فكلها مرتفعات وتلال

(١) الأنبياء: ٧٩.

(٢) سبأ: ١٢.

(3) أنظر قصص الأنبياء/ النجار: قصة سليمان.

وهضاب، ولذا فإن القصة لا تعدو أن تكون خيالاً وأسطورة. لذا فإن القرآن الكريم لا يذكرها، وإنما القرآن يقول الرياح تجري بأمره رخاء حيث أصاب. هذه واحدة من خصوصيات حكم سليمان وداوود.

الخصوصية الثالثة: معرفة منطق الطير:

قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا﴾(١) **لقد كان يفهم لغة الحيوانات.**

اليوم يحاول العلم وبجهود كبيرة وتجارب طائلة تطول عشرات السنين لمعرفة لغة الحيتان والطيور والذئاب، وبالفعل فهذه الحيوانات في كل حالة لديها صوتٌ معين، فعند الخوف تستخدم نبرات معينة وكذلك عند الفرح والهجوم وفي كل حالة لها نبرة خاصة، اليوم العلم يثبت ذلك، لكن القرآن الكريم بشكل مفصّل يقول إن الحيوانات لديها حديث ومنطق وسليمان كان يعرف منطق الطير والنمل.

دعاء للشباب:

وبهذا الصدد أريد أن أذكر لكم هذا الدعاء لكي يحفظه الشباب والشابات وهو إن سليمان لما سمع هذه النملة وفهم ما تقول قال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾(٢) **هذه الآية وبنفس هذا المضمون ومع اختلاف يسير في العبارات جاءت في موضع آخر من القرآن الكريم، فهذه الآية على لسان سليمان جاءت في سورة النمل وجاءت على لسان الصالحين في موضع آخر من القرآن الكريم حيث تقول:** ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ

---

(١) النمل: ١٨ و١٩.

(٢) النمل: ١٩.

كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[(١)] **اني آمل من الشباب أن يحفظوا هذا الدعاء ويقرؤوه في قنوتهم في الصلوات.**

نتيجة البر بالوالدين:

الشاب حينما يكون بهذا الشكل من الدعاء لوالديه ولذريته يقول الله تعالى: ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا﴾[(٢)] **حيث يتحدث القرآن عن ثلاث نتائج يعطيها الله تعالى للإنسان البار بوالديه.**

إن البر بالوالدين هو قضية أخلاقية لكن انظروا نتيجتها العظيمة.

النتيجة الأولى: ﴿نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا﴾.

أي نتقبل العمل الجيد فقط وأما والرديء فإن الله تعالى يتركه ويحذفه من سجل أعمالهم.

النتيجة الثانية: ﴿وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئاتِهِمْ﴾.

النتيجة الثالثة: ﴿فِي أَصْحابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ﴾.

هذا الدعاء القرآني عظيم وله مثل هذه النتائج والمفروض أن أولادنا يحفظون هذا الدعاء ويقرؤوه في القنوت والسجود ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.[(٣)]

نطوي هذه الخصائص في حكومة داوود وسليمان ونرجع إلى أهل البيت عليهم السلام.

---

(١) الأحقاف: ١٥.

(٢) الأحقاف: ١٦.

(٣) الأحقاف: ١٥.

النبوة هل هي وراثيّة؟

نحن ذكرنا أن أهل البيت عليهم السلام عندهم ميراث النبوة، «وميراث النبوة عندكم»، يوجد هنا سؤال هل أن النبوة وراثية؟

الجواب كلاّ، فالنبوة عبارة عن استحقاق ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾.(١)

فليس كل ابن أصبح نبياً والدليل نفس قصة داوود وسليمان فإن داوود قام ابنه آبشالوم بانقلاب عسكري عليه، حيث كان لديه ولدان أحدهم اسمه سليمان والآخر آبشالوم.

قصة آبشالوم:

آبشالوم كان ولداً فاسداً لداوود قام بانقلاب عسكري على داوود، وبالفعل سحب السلطان من داوود، ولكن سليمان وهو الابن الصالح جمّع قوات عسكرية وأسقط آبشالوم وقتله، وأصبح سليمان وريث داوود، إذن فهذه الوراثة تجري وفق استحقاق وإلاّ فإن آبشالوم هو أيضاً ابن داوود.

هكذا أيضاً موسى وهارون فإنهم أخوة والمفروض أن لا يوجد توارث بين الاخوة لأن التوارث هو بين الأب والأولاد لكن الله تبارك وتعالى هو الذي يصطفي لرسالاته من يشاء ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾.(٢)

مع الأسف الشديد فقد قرأت في بعض الكتابات أن هناك من يقول: ما معنى «وميراث النبوة عندكم»!؟ عجبا هل أن النبوة توارثية؟ إذن هذه النصوص كاذبة ومفتعلة من وجهة نظر هؤلاء البسطاء الغافلين.

نعم، النبوة ليست توارثية بل هي على أساس استحقاق والله تبارك

---

(١) فاطر: ٣٢.

(٢) الأنعام: ١٢٤.

وتعالى يورثها من يشاء من عباده، حسب الاستحقاق وليس حسب التناسل الجسمي. فإذا قلنا «ميراث النبوة عندكم» فإن هذا ينسجم مع القرآن الكريم الذي يقول: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾.[1]

ومن ناحية ثانية فإن النص هكذا يقول: «وميراث النبوة عندكم» ولم يقل النبوة عندكم، فالعلوم والخصال النبوية هي الموجودة عند أهل البيت عليهم السلام **.**

فعليّ عليه السلام **ليس نبياً والحسن والحسين ليسوا أنبياء بل أخلاق النبي وعلم النبي عند أهل البيت** عليهم السلام**، فالميراث إنما هو بهذا المعنى وليس بمعنى النبوة حتى يقول قائل أنتم تدّعون النبوة للأئمة الأطهار، العبارة تقول: «وميراث النبوة عندكم» أين ميراث النبوة؟ هل هو عند يزيد بن معاوية الذي يقول:**

لعبت هاشم بالمُلك فلا ... خبرٌ جاء ولا وحي نزل؟

أو عند الحسين عليه السلام **الذي يقرأ القرآن ورأسه على رأس رمح طويل يطاف به في البلدان؟**

لقد كان رأس الحسين وهو قطيع على الرمح يقرأ قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾،[2] **الروايات تقول إن العقيلة زينب التفتت إلى الرأس وخاطبته قائلةً:**

يا هلالاً لما استتمّ كمالا ... غاله خسفه فأبدى غروبا

ما توهّمت يا شقيق ... كان هذا مقدّراً مكتوبا

إنّا لله وإنّا إليه راجعون

* * *

---

(١) فاطر: ٣٢.

(٢) الكهف: ٩.

المحاضرة السابعة والثلاثون:

عودة الخلائق يوم القيامة

«وإياب الخلق إليكم وحسابهم عليكم».

حديثنا في هذه الليلة عن هذا المقطع «واياب الخلق إليكم وحسابهم عليكم».

المعنــى اللغــوي إن عــودة النــاس إلــى أهــل البيــت وحســاب النــاس علــى أهل البيت.

مسيرة البدء والعودة:

الإياب بمعنى العودة ومعنى هذا أن لدينا مسيرتين مسيرة بدء، ومسيرة عودة.

القرآن يقول: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ إذن يوجد بدء وعودة.

القرآن الكريم يذكر هذا المعنى ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾[1] وهي تؤكد ان عودة الخلائق إلى الله وحسابهم على الله تعالى، وحينئذ سيبرز ههنا اشكال وهو ان القرآن الكريم يذكر أن عودة الخلق إلى الله وحساب الخلق على الله تعالى، بينما هنا في الزيارة الجامعة تذكر أن عودة وحساب الخلق إلى أهل البيت، هكذا يقول تعالى في سورة الغاشية: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ * إِلَّا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ * إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾،[2] بينما الزيارة الجامعة تقول: «وإياب الخلق إليكم وحسابهم عليكم» فهل هذا يتناقض مع ما جاء في القرآن الكريم؟

لدينا مسيرة بدء ومسيرة عودة.

نحــن الآن فــي هــذه الحيــاة الــدنيا، فــي مســيرة العــودة إلــى الله تعــالى يعنــي منـذ أن يُخلـق الإنسـان فـي هـذه الـدنيا هـو فـي الحقيقـة لا يبـدأ رحلـة البـدء وإنمـا يبـدأ رحلـة العـودة، أي حينمـا يُخلـق فـي الـدنيا يبـدأ بـالعودة إلـى الله تعـالى ولهـذا

(1) الغاشية: ٢٥ و٢٦.

(2) الغاشية: ٢١ - ٢٦.

فـإن القـرآن الكـريم هكـذا يقـول: ﴿اقْتَـرَبَ للنَّـاس حسـابُهُمْ وَهُـمْ فـي غَفْلَـة مُعْرِضُـونَ﴾[1] كـل شـخص مـنكم حينمـا يكبـر يومـاً يكـون قـد قطـع يومـاً فـي مسـيرة العودة واقترب من الله تعالى بمقدار ما قطع من هذه المسافة الزمنية.

العودة إلى أهل البيت عليهم السلام:

ما معنى إياب الخلق إلى أهل البيت وحساب الخلق على أهل البيت وكيف ينسجم هذا مع القرآن الكريم؟

هناك معنيان وكلا المعنيين صحيح:

المعنى الأوّل: ان إياب الخلق إلى أهل البيت يعني في الدنيا حينما تشتد الخطوب بالناس، الخطوب الثقافية والمحن السياسية والمشاكل الاجتماعية الفردية أو الجماعية، يلوذون بأهل البيت عليهم السلام.

ولهذا فإن عمر بن الخطاب كان كلما تشتد عليه المشاكل يأتي إلى أمير المؤمنين ثمّ يقول: (لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن)، كذلك كان أبو بكر، كانت هناك صراعات ثقافية، اليهود والنصارى والروم كان عندهم هجوم ثقافي، المسلمون كانوا يلوذون بعليّ عليه السلام من الهجمات الثقافية التي يقوم بها الروم عبر رُسُلهم من النصارى واليهود، وهكذا في زمن الإمام الصادق عليه السلام حينما انتشر مذهب الدهريين أي الملحدين، كان الناس يلوذون بالإمام الصادق والإمام الباقر، وحينئذ كان الإمام يجد لهم الحل.

فالمعنى الأوّل لإياب الخلق إليكم، أي في الدنيا يلوذون بأهل البيت وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

لُذ ان دهتك الرزايا	والدهر عيشك نكّد

---

(1) الأنبياء: ١.

بكـــــاظم الغـــــيظ موســــــى وبـــــــــالجواد محمّـــــــــــــد

والآخر يقول مخاطباً أمير المؤمنين:

بقبــــرك لــــذنا والقبــــور كثيــــرة ولكــنَّ مــن يحمــي الجــوار قليــل

المعنى الثاني: إن إياب الخلق وحسابهم في يوم القيامة على أهل البيت أي يوم يقف رسول الله ﷺ وأهل البيت ويعرض الناس للحساب، فإن الذي يقف على الصراط والحوض وعلى باب الجنّة وعلى باب النار هم أهل البيت، هذا هو معنى أن إياب الخلق بعد الموت إلى أهل البيت، هذا المعنى أيضاً معنى صحيح، والقرآن والنصوص الدينية كثيرة في هذا الشأن بما لا يقبل الشك.

منها النص المتفق عليه لدى الشيعة والسنة: «عليّ قسيم النار والجنّة»[(١)] هذا الحديث لا يوجد شيعي ولا سني ولا ناصبي لا يؤمن به فهو متفق عليه بقول رسول الله ﷺ، وقسيم الجنة والنار هو ترجمة أخرى لـ«أن إياب الخلق إليكم» فإذا كان عليّ عليه السلام قسيم النار والجنّة فمعناه ان المحاسب الذي يميّز بين أهل الجنة والنار هو الإمام عليّ عليه السلام.

القرآن الكريم يقول: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾.[(٢)] الرسول يكون شاهداً على الناس، الرسول يعني سيد أهل بيت النبوة، له موقع الشهادة على الناس في الدنيا وموقع الشفاعة في يوم القيامة.

قال رسول الله ﷺ أيضاً في الحديث المتفق عليه لدى الشيعة والسنة: «ادّخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمّتي».[(٣)] إذن يوم القيامة يكون الفيصل

---

(1) أنظر: أمالي الصدوق: ٨٣/ مجلس ٨/ ح ٤/٤٩.

(2) البقرة: ١٤٣.

(3) توحيد/ الصدوق: ٤٠٧.

بين الجنّة والنار هو رسول الله، من يشفع له يذهب إلى الجنّة ومن لا يشفع له يذهب إلى النار، فهذا ترجمة أخرى لـ «أن إياب الخلق إليكم».

الحديث الشريف للإمام الصادق عليه السلام: «إذا كان يوم القيامة وجمع الأولين والآخرين لفصل الخطاب ودُعي رسول الله صلى الله عليه وآله ودُعي أمير المؤمنين عليه السلام فيكسى رسول الله حلة خضراء تضيء ما بين المشرق والمغرب ويُكسى عليّ مثلها، ثمّ يُدعى بنا فَيَدَع إلينا حساب الناس، فنحن والله نُدخل أهل الجنّة الجنّة وأهل النار، النار».[1]

وعن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير قوله تعالى في سورة الغاشية: ﴿إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ﴾ «إذا كان يوم القيامة وكّلنا الله بحساب شيعتنا ما كان لله سألناه ان يهبه لنا فهو لهم، وما كان لنا فهو لهم».[2] يعني ان الإمام الباقر يقول ذنوب الشيعة ما كان بين الله وبينه نطلب من الله ان يغفرها لهم، وما كان بينهم وبيننا نحن أيضاً نغفره لهم.

الإمام الصادق عليه السلام يقول: «كل أمّة يحاسبها إمام زمانها ويعرف الأئمّة أوليائهم وأعدائهم بسيماهم»[3] أي يعرفون أوليائهم وأعدائهم من وجوههم وهو قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الأَعْرافِ رِجالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيماهُمْ﴾[4] حيث توجد يوم القيامة منطقة مرتفعة مشرفة على الجنّة والنار تسمى الأعراف وهناك رجال وهم الأئمّة يعرفون كلاً بسيماهم فيعطون أوليائهم كتابهم بيمينهم فيؤمر بهم إلى الجنّة بغير حساب، ويعطون أعدائهم كتابهم بشمالهم فيؤمر بهم إلى جهنم بغير حساب.

هذه هي الفكرة ان حساب الخلائق يوم القيامة على رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل البيت.

---

(1) أنظر: بحار الأنوار ٧: ٣٣٧.

(2) البحار ٢٤: ٢٦٧.

(3) البحار ٨: ٣٣٩.

(4) الأعراف: ٤٦.

ما هو الجواب على التضاد بين هذه الفكرة وبين التصريح القرآني الذي يقول ﴿إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ﴾ أي ان حسابهم على الله تعالى؟

نظرية الوسائط:

الجواب واضح من خلال نظرية تُسمى نظرية الوسائط، والتي تعني أن الله تعالى هو خالق البشر، لكن من خلال وسائط، أنت أليس خلقك الله تعالى بواسطة أمّك وأبيك؟ فلو قال قائل أن أمي وأبي هما اللذان أولداني فإن هذا صحيح، وأيضاً لو قال إن الله تعالى هو الذي خلقني فهذا أيضاً صحيح. الله تعالى في الخلق يعتمد الوسائط والأسباب.

الموت كذلك أيضاً، القرآن الكريم يقول: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها﴾[1] لكن إلى جانب ذلك توجد آية أخرى تقول: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾[2] فهنا يقول الملائكة تتوفى الناس وتلك الآية تقول ان الله هو الذي يتوفى الأنفس فهل هذا تناقض؟

هذا في الحقيقة ليس تناقضاً قرآنياً إنما هو نظرية الوسائط بمعنى أن الله تعالى هو السبب الأكبر وسبب الأسباب وهؤلاء وسائط.

وهكذا مثلاً نظرية الحساب فإن القرآن يقول: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ﴾ أي على الله تعالى، لكن هناك آية أخرى تقول: ﴿اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾[3] فهنا لا يوجد تناقض الحساب على الله تعالى لكن الله تعالى جعل وسائط للحساب أيضاً وهم منكر ونكير في القبر، أو نفس الإنسان يحاسب نفسه يوم القيامة فنظرية الوسائط تحل هذه المشكلة، فالخلائق يوم القيامة الله تعالى يحاسبهم من خلال وبواسطة رسول الله ﷺ أو الأئمّة الأطهار عليهم السلام.

---

(1) الزمر: ٤٢.
(2) النحل: ٢٨.
(3) الإسراء: ١٤.

مشاهد القيامة:

هذا الموضوع يفتح لنا باباً قرآنياً جميلاً عن بعض مشاهد يوم القيامة، فلننتقل إلى مشاهد يوم القيامة ونرى القرآن ينقل مجموعة مشاهد من يوم القيامة.

المشهد الأوّل:

القرآن الكريم يسمي يوم القيامة بيوم الجمع أي الاجتماع الأعظم البشري الكوني هو أضخم اجتماع، في هذا الاجتماع، يوجد اجتماع في جهنم واجتماع في الجنّة القرآن يقول: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ﴾[(١)] أي يقال لكل شخص: من هو إمامك اذهب معه، الناس يوم القيامة كلٌّ منهم يمشي وراء أمامه.

المشهد الثاني:

لقاءات أهل جهنم رغم شدة العذاب يقول القرآن: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْ لا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَ نَحْنُ صَدَدْناكُمْ عَنِ الْهُدى بَعْدَ إِذْ جاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ﴾.[(٢)]

المشهد الثالث:

﴿وَقالُوا ما لَنا لا نَرى رِجالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرارِ﴾[(٣)] أهل جهنم يقولون كان معنا في الدنيا ناس كنا نحسبهم من الأشرار لكنهم الآن غير موجودين معنا في جهنم ﴿أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصارُ﴾[(٤)] أي هل كنّا على باطل حينما كنّا نسخر منهم، أم هم اليوم معنا في جهنم لكننا لا نراهم. ﴿إِنَّ ذلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾[(٥)] القرآن يقول هكذا يتخاصم أهل النار بين

(1) الإسراء: ٧١.
(2) سبأ: ٣١ و٣٢.
(3) ص: ٦٢.
(4) ص: ٦٣.
(5) ص: ٦٤.

المؤمنون في الجنّة يتفرجون عليهم، يقول هؤلاء الظلمة لأهل الجنّة: ﴿انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾(1) **يقولون انظروا إلينا حتّى نأخذ من نوركم، المؤمنون يقولون:** ﴿ارْجِعُوا وَراءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً﴾(2) **هذه بعض مشاهد يوم القيامة.**

المشهد الرابع:

من جملة تلك المشاهد مشهد في الجنّة، المؤمن حينما يدخل الجنة يقول: ﴿إِنِّي كانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَدِينُونَ * قالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ * فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَواءِ الْجَحِيمِ﴾.

هذا مشهد من مشاهد أهل الجنّة ﴿قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَدِينُونَ * قالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ * فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَواءِ الْجَحِيمِ * قالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ﴾(3) **أي أوشكتَ أن تجرني معك** ﴿وَلَوْ لا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾(4) **أي لكنت في جهنم مُحضراً.**

إذن يوم القيامة هو يوم الجمع وكل أناس يدعون بإمامهم وإذا كان كذلك، فسوف يُدعى شيعة أهل البيت بامامهم وهم الأئمّة الأطهار عليهم السلام وحينئذ من الطبيعي ان يكون «إياب الخلق إليكم وحسابهم عليكم» هذا ثابت بالبرهان والتصديق القرآني.

ضمان الجنّة:

رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «من يضمن لي خمساً أضمن له على الله الجنّة».

قيل: يا رسول الله ما هي؟

---

(1) الحديد: ١٣.

(2) السابق.

(3) الصافات: ٥١ - ٥٦.

(4) الصافات: ٥٧.

قــال ﷺ: «النصــيحة لله، والنصــيحة لرســوله، والنصــيحة لكتــاب الله، والنصيحة لدين الله، والنصيحة لجماعة المسلمين».[1]

فالـدين هـو النصـيحة، وإذا كـان الإنسـان ناصـحاً فـي حياتـه فـإن رسـول الله يضــمن لــه الجنّــة، ربمــا لا يكــون كثيــر الأعمــال العباديــة لكــن يكــون مخلصــاً ونصوحاً لشعبه ولدينه ووطنه ولقرآنه.

اذكر لكم قصة:

موسـى كـان مـرةً واقفـاً علـى سـاحل البحـر ربمـا هـو البحـر الأحمـر وربمـا هـو النيـل، لأن موسى كـان فـي مصـر وهـي مطلّـة علـى البحـر الأحمـر، كمـا ان نهـر النيـل يمـر مـن وسـطها. فجـاء صـياد كـافر بـالله، فرمـى شـبكة الصـيد وسـحبها فـإذا هـي مملـوءة أسـماك، فلـم يشـكر الله تعـالى وأخـذ السـمك وذهـب، وهنـا تعجـب موسـى! هـذا ملحـد مشـرك وهـو بـأوّل رميـة أخـرج الشـبكة مملـوءة بالسـمك، ثـمّ جاء مؤمن فقيـر رمـى شـبكة الصيد لـم يحصـل علـى شـيء، رماهـا ثانيـة لـم يحصـل على شيء، رماها مرة ثالثة فخرجت له سمكة صغيرة فأخذها وقال الحمد لله.

موســى قــال: إلهــي ذاك المشــرك الملحــد اصــطاد بــأوّل رميــة مجموعــة أســماك، وهــذا المــؤمن المصــلي الشــكور كلمــا يرميهــا لا يخــرج لــه شــيء ثــمّ حصل على سمكة صغيرة وقال: الحمد لله، إلهي هل هذه هي العدالة؟

هــذا ســؤال علــى ســبيل الاســتفهام ولــيس علــى ســبيل الاســتنكار، مــا هــي فلسفتك وحكمتك في هذا الأمر؟

فقـال الله تعـالى: يـا موسـى انظـر عـن يمينـك مـاذا تـرى؟ فنظـر وإذا جنّـات تجـري مـن تحتهـا الأنهـار، قـال الله: يـا موسـى هـذا أعددتـه لـذلك المـؤمن الفقيـر، أنظـر عـن شـمالك مـاذا تـرى؟ وإذا جهـنم والنيـران، قـال: يـا موسـى هـذا أعددتـه

(1) الخصال: ٢٩٤.

للكافر، واعلم انه لا تلك الأسماك التي حصل عليها الكافر تفيده وتخلّصه من جهنم، ولا تلك السمكة الصغيرة والفقر في الدنيا يضر هذا المؤمن وهذه الجنّة هي عاقبته ونتيجته.

فقال موسى: يا ربي حق لمن عرفك ان يرضى بما صنعت![١]

أهمية الغضب لله تعالى:

في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام يقول: «ان الله اهبط ملكين من الملائكة إلى أهل قرية ليهلكهم، فإذا رجل قائم في الليل يتعبد، فرجع أحدهما إلى ربه يعاوده، فأوحى الله إليهما ان أهلكوه معهم، ان هذا لم يتمعّر وجهه غضباً لي».[٢]

نصيحة الشيعة:

الآن انتقل معكم إلى تقييم وضع شيعة أهل البيت عليهم السلام في العراق، ان شيعة العراق نصحوا لله ولكتاب الله ولدين الله وهذه هي مواقفهم في بناء العراق وحقيق بهم ان ينالوا الجنّة بشفاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته الأطهار عليهم السلام.

شبهتان:

هناك شبهتان، كنت في زيارة لأحد الشخصيات المحترمة من العلماء الأجلاء الكبار، فذكر شبهتين على لسان الناس في تقييم الواقع المعاصر.

الشبهة الأولى: شبهة اليأس من الانتصار:

كما قال هذا الرجل: (ان عمر لا يعطيها لعليّ) فأنتم لا تصدقوا ان الجماعة يعطوها لكم، فهذا تعبكم ليس به فائدة والعراق يبقى بيد السنّة ولا يعطوه للشيعة أبداً.

---

(1) أنظر كتاب المؤمن: ١٩.

(2) أنظر: الكافي ٥: ٥٨/ ٨.

الشبهة الثانية: فقد الثقة بالناس:

يقول هذا الرجل: ان شيعة العراق لا تثقوا به كثيراً فإنهم في يوم من الأيام سوف يتركوكم وحدكم وتكونوا مثل مسلم بن عقيل.

واقع الشيعة في العراق:

جواب هاتين الشبهتين:

أوّلاً: اننا نعمل بالتكليف الإلهي.

الإمام عليّ كان يعرف الواقع السياسي والإمام الحسن والحسين كانا يعرفان كل الواقع السياسي. الواقع غير خفي عليهم وهم ليسوا أضعف من غيرهم في التقييم، لكن رأوا أن تكليفهم نصرة دين الله والانتصار للشعوب المظلومة، الإنتصار لشيعة العراق الذين كتبوا للحسين رسائل، الحسين يقول يجب ان انتصر لهم وإلاّ فإنهم يوم القيامة يحتجون عليّ، هؤلاء الناس الآن في العراق إذا لم نقف معهم فإنهم يوم القيامة يحتجون علينا، وأما مقولة ان عمر لا يعطيها إلى عليّ فهذا أوّلاً ليس تكليفنا فهو بيد الله تعالى، الحسين يُقتل أو لا يقتل، والإمام علي ينجح أو لا ينجح أصلاً هذا ليس تكليف الأنبياء والأئمة ولا واحد من الأنبياء عمل على هذا الأساس. الواجب بالنسبة لنا هو أداء التكليف، رحمة الله على السيد الحكيم كان يقول: ثقفّوا الناس على قضية أداء التكليف.

ثانياً: الثقة بالله تعالى.

الله تعالى هو الذي وعد عباده بالنصر ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾[1] ليس اعتماداً على قوانا الشخصية والشعبية والمالية، وإنما بالاعتماد على الثقة بالله تعالى، وإذا كان الله هو ثقتنا وهو ناصرنا إذن علينا ان نتقدم، الفهم السياسي

(1) محمّد: ٧.

فـي الإسـلام لا يسـمح باليـأس ولا بـالقراءة السياسـية المتشـائمة، الفهـم السياسـي واقعي، الإسلام يريد عمل ورجال وشعوب.

أمّـا الشـعب العراقـي فـإذا كنّـا نحمـل نظـرة سـوداء عـن الشـعب العراقـي، إذن أهـل البيـت لمـاذا أتـوا إلـى العـراق، وكـان علـيهم ان يـذهبوا إلـى مكـان آخـر؟ لماذا أهل البيت لم يجدوا ملجأ إلاّ العراق؟ ولم يجدوا شيعة إلاّ العراق؟

لقـد كـان هـذا الشـعب هـو المفضّـل عنـد أهـل البيـت عليهم السلام علـى شـعوب الأخرى لا نصرة لها ولا ولاء لها.

عنـدما نقـرأ التـاريخ نجـد مـع الأسـف ان القـراءة الموجـودة الآن هـي القـراءة الأمويـة التـي تكـرس وتثقّـف علـى ان الشـعب العراقـي هـو شـعب متمـرد وفوضـوي وشـعب خـائن، هـذه هـي القـراءة الأمويـة، بينمـا قـراءة أهـل البيـت عليهم السلام علـى عكـس ذلـك، عنـدما يكـون الحـديث عـن أهـل العـراق فإنـه يعنـي الحـديث عـن شـيعة أميـر المـؤمنين فـي كـل الروايـات ولعلنـا سـنعود إلـى هـذا الموضـوع فـي محاضرات أخرى بإذن الله تعالى.

لقـد مثّـل أصـحاب الحسـين فـي كـربلاء نموذجـاً رائعـاً للوفـاء لأهـل البيـت عليهم السلام حتّى قال فيهم الحسين: «اني لا أعلم أصحاباً خير من أصحابي».

والحمد لله رب العالمين

* * *

المحاضرة الثامنة والثلاثون:

بحث في الإرادة الإلهيّة

«وعزائمه فيكم».

حديثنا اليوم عن الإرادة الإلهية ولكن هذا الحديث يجب أن يرتبط أيضاً بالإمام الجواد عليه السلام حيث نعيش في هذا اليوم بين مولدين بين ولادة الإمام الجواد عليه السلام وولادة الإمام عليّ عليه السلام ولهذا رأيت أن أتحدث عن الإمام الجواد وأؤجل الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام.

محور الحديث اليوم قوله: «وعزائمه فيكم» نحن فسَّرنا وشرحنا جُمل سابقة من الزيارة الجامعة «وإياب الخلق إليكم، وحسابهم عليكم، وأمره إليكم» اليوم حديثنا عن هذا المقطع «وعزائمه فيكم» يعني عزائم الله موجودة في أهل البيت عليهم السلام.

ما معنى عزائم الله؟

وكيف هي موجودة في أهل البيت؟

هذا ما نريد الحديث عنه اليوم.

المعنى اللغوي لكلمة عزائم:

العزائم: جمع عزيمة وعزم.

العزم: بمعنى الإرادة الراسخة، تقول هذا الأمر يحتاج إلى عزم يعني إلى إرادة ثابتة قوية لا تتغير.

ومنه قوله تعالى ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾.[1]

يوجد أنبياء يصفهم القرآن الكريم بأنهم أهل عزم أي عندهم إرادة عُليا قوية وهم خمسة من الأنبياء (نبينا محمّد صلى الله عليه وآله ثمّ عيسى ثمّ موسى ثمّ

(١) الأحقاف: ٣٥.

إبراهيم ثمّ نوح عليه السلام) هؤلاء أولوا العزم حيث أن نبوّتهم أصبحت نبوة عالمية لأنهم يمتلكون مثل هذا العزم، وفي نفس الوقت فإن القرآن الكريم يقول عن آدم عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾،(١) آدم نبي من الأنبياء وإنسان كامل لكن قدرة هذا الإنسان الكامل أقل من قدرة الأنبياء أولي العزم، إن الأنبياء يتفاضلون ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾،(٢) كلهم معصومون لكن ليس جميعهم في رتبة واحدة.

آدم بما أنه أوّل هؤلاء الأنبياء كانت قدرته في الإمساك بالقرارات الإلهية أضعف من بعض الأنبياء فالآية ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ تواجه سؤالاً عريضاً كيف يجتمع ذلك مع قولنا بعصمة الأنبياء؟ كيف يقول القرآن: ﴿فَنَسِيَ﴾؟ وكيف يقول: ﴿لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾؟ هل هذا يتقاطع مع العصمة أم لا؟ هل ارتكب آدم معصية أم قام بعملية نسيان تكويني حسب قدراته البشرية؟

هذا بحث نؤجله وقد مضى بعضه في محاضرات سابقة، إن محل الشاهد في الآية هو العزم والعزيمة حيث بعض الأنبياء هم أولوا العزم.

لاحظوا نبينا صلى الله عليه وآله فإن أوّل ما نقرأ في السلام عليه: «السلام على رسول الله، السلام على محمّد بن عبد الله، أمين الله على وحيه، وعزائم أمره» إن رسول الله صلى الله عليه وآله يتحمّل الأمانة على الوحي، والوحي عبارة عن القرارات التشريعية.

وكذلك الأمانة على عزائم أمر الله تعالى وهي عبارة عن القرارات الإلهية التكوينية الكبرى.

رسول الله صلى الله عليه وآله هو أمين الله على القرارات التشريعية كما هو أمين الله على العزائم الإلهية التكوينية ولهذا نقرأ في الدعاء في تعقيبات الصلاة: «اللهم إني أسألك موجباتِ رحمتك وعزائم مغفرتك» نحن نريد الرحمة الإلهية

---

(١) طه: ١١٥.

(٢) الإسراء: ٥٥.

ونريد التطابق مع القرارات الإلهية الراسخة، نريد تلك القرارات أن تكون لنا وبنفعنا ونحن متطابقون معها.

بحث في الإرادة الإلهية:

الإرادة الإلهية على مستويين:

عندنا إرادة إلهية ثابتة لا تتغير.

وإرادة إلهية متغيرة.

وبعبارة أخرى عندنا قرارات إلهية كونية ثابتة لا تتغير، وعندنا قرارات إلهية قابلة للتغيير حسب تغيير شروطها الموضوعية.

قرارات ثابتة:

مثلاً قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1] هذا قرار إلهي لا يتغير، هنا القرآن الكريم والأئمة يقولون إن هذه قرارات ثابتة لا تتغير يعني أن الله تعالى أخبر بها وإذا تغيّرت يكون ذلك كذباً تعالى الله عنه.

ومثال آخر قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[2] فهل من الممكن أن الله تعالى يخذل رُسُله ويطردهم؟ لا يمكن لأن نصرهم هو قرار ثابت.

وهكذا قرار تقسيم الناس إلى الجنّة والنار كما في قوله تعالى: ﴿امْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾[3] ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾[4] هذه الجنّة أما النار ففي قوله: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ

---

(١) الحجر: ٤٣.

(٢) غافر: ٥١.

(٣) يس: ٥٩.

(٤) ق: ٣١.

كَانَتْ مِرْصاداً﴾[١] فهل ممكن أن يقول قائل إن هذا القرار اتخذه الله تعالى لكن لعله بعد ألف سنة أو ألفين سنة فإن الله تعالى يبدل هذا القرار هل هذا يصح؟ هذا لا يصح لأن هذه حسب النص القرآني قرارات ثابتة غير قابلة للتغيير تنبثق من إرادة ثابتة إلهية.

قرارات متحركة:

يوجد نموذج ثاني نسميه قرارات إلهية متغيرة تنبثق عن إرادة متغيرة.

مثلاً أنت بالأمس فقير ولكن الله تعالى رزقك فأصبحت غنياً، أو كنت مريضاً واليوم عافاك الله تعالى، هذا بقرار إلهي لكن هذا القرار متغير حسب إرادة الإنسان مثل ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾[٢] ﴿اذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾.

هذا القرار متحرك حسب فعلك أنت ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعاؤُكُمْ﴾،[٣] الرزق قرار إلهي متحرك والأجل كذلك والعافية كذلك والنصر كذلك وهكذا غيرها.

صلة الرحم تطيل العمر، إذن الأجل هو قرار متغير.

نعرف من ذلك أن الإرادة الإلهية ليست ثابتة دائماً، أحياناً هي ثابتة نسميها عزائم أمره وهي الإرادات الراسخة الثابتة.

يوجد لدينا في القرآن سِوَر العزائم وهي أربع سور وهي عبارة عن السِوَر التي يجب فيها السجود ولهذا سميت عزائم إشارة إلى أن السجود فيها واجب وعزيمة. وتلك السور هي: (العَلَق، فصّلت، السَجدة، النجم).

كل هذا الحديث كان في الحقيقة مقدمة حتى تصل إلى كيف أن الأئمة الأطهار كانت عزائم الله تعالى موجودة فيهم.

---

(١) النبأ: ٢١.

(٢) محمّد: ٧.

(٣) الفرقان: ٧٧.

دلالات «وعزائمه فيكم»:

هناك مجموعة تفاسير لكن الشيء الواضح والمقبول والذي يتسق مع هذا النص، هو أن الإرادة الإلهية الراسخة موجودة في أهل البيت عليهم السلام.

الله تعالى خلق هذا الكون لأهداف ولغايات، هذه الغايات والأهداف تجسَّدت في أهل البيت.

مثلاً كلية الفقه في النجف الأشرف أنشئت لتخريج طلاب العلوم الدينية الذي يجمعون بين العلوم الحديثة والقديمة، هذه الكلية خرجَّت أوّل طبقة من تلاميذها مثل الشيخ أحمد الوائلي رحمة الله عليه.

تستطيع أن تقول إن أهداف كلية الفقه تلخصت وتبلورت في الشيخ أحمد الوائلي، أي أن تلك العزائم أي الأهداف الراسخة التي أسس المؤسسون كلية الفقه لأجلها موجودة في الطبقة الأولى من خريجي كلية الفقه.

وهكذا تقول إن عزائم الحوزة العلمية وأهداف الحوزة متجسدة ومتبلورة ومتلخصة في المرجعية الدينية، في المرجع الأعلى يعني أنه يجسد كل الأهداف.

الأهداف الإلهية من خلق هذا الكون الذي لم يخلقه الله تعالى عبثاً، ﴿ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[1] هذا الهدف تجده قد تلخص وتبلور في الأئمة والأنبياء، هذا هو التفسير المقبول والواضح جداً الذي يمكن أن نقدمه لهذا النص في الزيارة الجامعة، مثال ذلك الإمام الجواد عليه السلام.

وقفة مع الإمام الجواد عليه السلام:

عُمَر بن الفرج وهو أحد المتعصبين ضد أهل البيت وقد جعله المتوكل العباسي والياً على مكّة والمدينة وقام بحصار كبير على أهل البيت عليهم السلام وعلى العلويين، ومنع الناس من أن يصلوهم ومنعهم من أن يسألوا الناس

(١) الذاريات: ٥٦.

ومنعهم من الكسب والعمل والتجارة، بحيث تقول الرواية إن العلويات أصبحن لا يملكن إلا قميصاً واحداً يتناقلنه في الصلاة ثم يجلسون بدون قميص، نتيجة هذا الحصار الشديد، وهذه صورة من صورة الاستبداد الذي نال أهل البيت عليهم السلام أيام الحكم العباسي.(١)

يذكر المؤرخون أن عمر بن الفرج قبل أن يصبح والياً على مكّة والمدينة وحين كان في بغداد وكان الإمام الجواد صغير السن وعمره أقل من عشر سنوات. قال للإمام الجواد: يا أبا جعفر الشيعة يقولون أنك تعلم وزن هذا الماء (ماء دجلة)!؟ فقال له الإمام: أترى إن الله تعالى لو أراد أن يجعل علم هذا الماء عند بعوضه، أترى أن الله قادر على ذلك أو عاجز؟

قال له: بل هو قادر.

فقال له الإمام عليه السلام: إذا كان الله تعالى قادراً أن يعطي علم وزن هذا الماء لبعوضة، فأنا أكرم على الله من بعوضة.(٢)

أنظروا كم هو جواب رائع.

في قصة أخرى للإمام الجواد عليه السلام على عهد المأمون العباسي وكما تعرفون فإن المأمون العباسي كان لديه خياران في مواجهة أهل البيت، خيار الاحتواء وخيار الاستئصال والقمع، المتوكل العباسي قام بعملية القمع والقتل، ولكن المأمون قام بسياسية الاحتواء وتطويق أهل البيت عليهم السلام دون عداء ظاهر.

جمع المأمون الوزراء والعلماء عندما أراد أن يزوّج الإمام الجواد من ابنته (أم الفضل) وهو صغير السن. لكن شخصيته قد ذاع صيتها في البلاد، بحيث أن المأمون كان يفتخر أن يعطي ابنته للإمام.

---

(١) مقاتل الطالبين: ٣٩٦.

(٢) عيون المعجزات: ١١٣.

وحينما جمع العلماء والحكماء ومن ضِمنهم قاضي القضاة يحيى بن أكثم حتّى يضعوا مجموعة مسائل للإمام الجواد لعله يُفحم ولا يعرف الجواب.

الإمام الجواد انتصر عليهم في هذه المعركة الثقافية، وبعد أن أجاب على أسئلة يحيى بن أكثم قال له: يا يحيى بن أكثم سألتني مسائل وأنا أجبتك عليها، والآن تسمح لي أن أسألك؟

قال: سل يا بن رسول الله فإن علمت أجبتك وإن لم أعلم تعلّمت منك.

قال: فقال له أبو جعفر عليه السلام: «يا أبا محمّد ما تقول في رجل حرمت عليه امرأة بالفداة وحلت له ارتفاع النهار وحرمت عليه نصف النهار، ثمّ حلت له الظهر، ثمّ حرمت عليه العصر، ثمّ حلت له المغرب، ثمّ حرمت عليه نصف الليل، ثمّ حلت له الفجر، ثمّ حرمت عليه ارتفاع النهار، ثمّ حلت له نصف النهار؟» فبقي يحيى والفقهاء بلسا خرسا.[١]

ثمان حالات خلال أربع وعشرين ساعة، يحيى بن أكثم عندما سمع السؤال المعقد بهذا الشكل قال: لا والله لا أهتدي إلى جواب ذلك سبيلاً أبداً، لاحظوا قدرة الإمام واستيعابه للفكر الديني والفقه بأي مستوى، قال له: يا بن رسول أنت أوضح لي هذا المشكل.

قال الإمام عليه السلام: «رجل نظر إلى مملوكة لا تحل له، اشتراها فحلت له، ثمّ اعتقها فحرمت عليه، ثمّ تزوجها فحلت له، فظاهر منها فحرمت عليه، فكفر الظهار فحلت له، ثمّ طلقها تطليقة فحرمت عليه ثمّ راجعها فحلت له، فارتد عن الإسلام فحرمت عليه، فتاب ورجع إلى الإسلام فحلت له بالنكاح الأوّل».[٢]

ان محل الشاهد في هذه القصة ان المأمون والجماعة حين رأوا هذا التسطير الفقهي العجيب وهذا الإبداع العلمي والروعة في هضم الفكر الإسلامي، قال: ويحكم

(١) تحف العقول: ٤٥٤.

(٢) تحف العقول: ٤٥٤.

أما علمتم أن أهل هذا البيت ليسوا خلقا من هذا الخَلق أما علمتم أن رسول الله ﷺ بايع الحسن والحسين عليهما السلام وهما صبيين...[(١)]

هذا هو معنى «وعزائمه فيكم»، ان الله تعالى قراراته الكبرى موجودة فيهم.

لماذا تكون النبوة والإمامة في صبي؟

هنا يوجد سؤال:

لماذا يجعل الله تعالى النبوة عند صبي في المهد أحياناً والإمامة عند صبي عمره أقل من عشر سنوات؟

هناك ثلاثة أجوبة:

الجواب الأوّل: الله تعالى يريد أن يمتحن الناس، ليرى من منهم يصدّق ومَن يكذب، فهو امتحان عسير. وهذه سنّة الله تعالى أن يمتحن العباد.

الجواب الثاني: أن هذا زيادة لقوة الحجة، أي قوة الاستدلال وليس لامتحان العباد بل للمزيد من تقديم البرهان القوة لإرشاد الناس إلى إرادة الله تعالى.

مثال ذلك إن الله تعالى لم يعط بلاغة القرآن إلى المتنبي أو أبي العلاء المعري وإنما أعطى بلاغة القرآن إلى رجل أمي لا يقرأ ولا يكتب ولا هو بشاعر، فكيف جاءكم بالقرآن، هذا دليل على الإعجاز، هذا يسمى قوة البرهان.

وهكذا عيسى عليه السلام حينما تكلّم مع الناس وهو في المهد ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا﴾.[(٢)] **هذا إعجاز وقوة برهان يكشف عن الارتباط بقوة غير عادية ولهذا فقد أذعنوا له.**

---

(١) تحف العقول: ٤٥٣.

(٢) مريم: ٣٠ - ٣٢.

الإمـام الجـواد عنـدما يكـون بهـذا العمـر لكـن يمتلـك هـذه القـوة مـن المعلومات، هذا في الحقيقة تعبير عن أن الله تعالى يريد أن يعطينا دليلاً قوياً.

الجـواب الثالـث: إن المسـألة مسـألة لياقـات، بمعنـى إن النبـوة والإمامـة وهكـذا المرجعيـة الدينيّـة وسـائر المقامـات الدينيـة هـي فـي الحقيقـة لياقـات وليست توزيعاً اعتباطياً من قِبَل الله تعالى.

الأنبيـاء أصـبحوا أنبيـاء للياقـات وكفـاءات خاصـة كانـت موجـودة لـديهم وغيـر موجـودة فـي غيـرهم وكـذلك الأئمّـة، إذا كـان هـذا الصـبي عنـده مثـل هـذه اللياقـة وإذا كـان عيسـى ويحيـى عنـدهم مثـل هـذا اللياقـة وحسـب الخِلقـة الإلهيـة وغيـر موجـودة عنـد غيـرهم، هـذه اللياقـة هـي التـي تسـحب النبـوة والإمامـة لهـا، فإنما يجعل الله تعالى النبوة والإمامة في طفل صغير على أساس اللياقات.

ولهذا لاحظوا عليّ بن جعفر وهم عم الإمام الرضا أي يكون عم الإمام الجواد ـ عمّ الأب ـ كان شيخاً كبيراً يوماً ما وفي جمع من الناس وهم جلوس وهذا الشيخ الكبير جالس دخل الإمام الجواد إلى المجلس تقول الرواية فقام إليه هذا الشيخ الكبير بدون نعل يركض نحوه وقبّل يده وبقي واقفاً.

فقال له الإمام الجواد: اجلس يا عمّ.

قال الشيخ: كيف أجلس وأنت قائم؟

فلمـا رجـع علـيّ بـن جعفـر إلـى البيـت، قـال لـه أصـحابه: يـا علـيّ بـن جعفـر يـا شيخنا ماذا صنعت بنفسك وأنت رجل كبير تتعامل مع صبي مثل هذا العمل؟

فقـال: اسـكتوا إذا كـان الله لـم يؤهّـل هـذه الشـيبة وأهّـل هـذا الطفـل أنكـر فضله؟ نعوذ بالله مما تقولون بل أنا عبد له![1]

لاحظـوا أن المسـألة هـي مسـألة لياقـات أن الله أهّـل هـذا الفتـى ولـم يؤهّـل هذا الشيخ الكبير.

---

(١) أنظر: عمدة الطالب: ٢٤١.

تقـول روايـة أخـرى إن الإمـام الجـواد أجـاب عـن ثلاثـين ألـف سـؤال فـي مجلـس واحـد[1] وهنـا يـأتي علماؤنـا ويعطـون عـدة تفاسـير لكيفيـة الاجابـة علـى ثلاثين ألف مسألة في مجلس واحد.

التفسـير الأوّل: إن القضـية علـى سـبيل المبالغـة فهـي ليسـت ثلاثـين ألـف بل ربما مائة مسألة.

التفسـير الثـاني: أنـه أجـاب علـى كبريـات المسـائل التـي تنحـلّ منهـا فـروع فتكون ثلاثين ألف مسألة.

ومهمـا يكـن فإنـه بمثـل هـذا الشـكل كانـت منزلـة الإمـام الجـواد عليه السلام، وكانت سياسة المأمون احتواء الإمام الجواد.

لاحظـوا كيـف أعطـى ولايـة العهـد للإمـام الرضـا حتّـى يحتويـه، والإمـام الرضـا بعـد أن استشـهد بالسـم، أراد المـأمون مـرةً أخـرى احتـواء الإمـام الجـواد، فـزوّج ابنتـه أم الفضـل للإمـام الجـواد لكـن جـاء بعـد المـأمون المعتصـم ثـمّ المتوكـل وهـؤلاء قـاموا بسياسـة القمـع وبخاصـةً المتوكـل العباسـي، فبعـد أن مـات المـأمون وأصـبحت الخلافـة للمعتصـم العباسـي كلّـف أم الفضـل زوجـة الإمـام الجـواد أن تـدس السـم، فدسته لـه واستشـهد الإمـام ودفـن فـي مقـابر قـريش، وهـو المكـان المـدفون فيـه الإمـام الكـاظم والجـواد عليهما السلام، هـي مقـابر قـريش فـي الحقيقة لكن برز فيها نور الإمامين الجوادين عليهما السلام.

والحمد لله رب العالمين

* * *

(1) البحار ٥٠: ٩٣.

المحاضرة التاسعة والثلاثون:

الحساب الإلهي

مفهومه وحقيقته وعلاقته بأهل البيت عليهم السلام

«وإن إياب الخلق إليكم وحسابهم عليكم».

اليوم حديثنا عن الحساب الإلهي ومفهومه.

لماذا الحساب الإلهي؟

صور من الحساب الإلهي.

وأخيراً كيف يكون أهل البيت عليهم السلام هم أصحاب الحساب يوم القيامة؟

النص من الزيارة يقول: «وإياب الخلق إليكم وحسابهم عليكم» بما يعني أن حساب الخلائق يوم القيامة بعهدة الأنبياء والأئمّة الأطهار عليهم السلام.

إذن اليوم عندنا أربعة بحوث:

البحث الأوّل: مفهوم الحساب وحقيقته:

الحساب مفهوم قرآني ومعتقد إسلامي وضرورة من ضرورات الدين أي كما نعتقد بيوم القيامة والجنّة والنار كذلك من جملة الأشياء والمعاني والحقائق التي نعتقد بها أنه يوجد يوم القيامة حساب بالإضافة إلى الميزان والصراط والشفاعة وتطاير الكتب، أي من جملة الحقائق في يوم المعاد حقيقة الحساب، والقرآن الكريم يفترض هذا المفهوم من البديهيات الدينية التي لا تقبل الجدل والمناقشة ولهذا سمي يوم القيامة بيوم الحساب.

القرآن الكريم يقول: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾.[1]

القرآن يصف الناس يوم القيامة أولئك الذين يدخلون الجنّة، وأولئك الذين يدخلون النار أن هؤلاء كانوا في الدنيا بعضهم يصدق بيوم الحساب

(1) الأنبياء: ١.

وبعضهم يكذب بيوم الحساب. قال: ﴿ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسابِيَهْ﴾[1] **هذا الذي يؤمر به إلى الجنّة يقول: الحمد لله اني كنت أعتقد بيوم الحساب واستعد له:** ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسابِيَهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ﴾.[2]

وهكذا نجد القرآن الكريم يؤكد في عشرات بل مئات الآيات على حقيقة الحساب حيث يقول مثلاً: ﴿وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً * اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾،[3] **وهكذا نجد أن أحد صفات الله تبارك وتعالى أنه سريع الحساب.**

إذن هذه حقيقة قرآنية ولهذا نقرأ في الدعاء على لسان الأنبياء ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ﴾.[4]

أيضاً القرآن الكريم يقول: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾[5] **لا حظوا إذن أن يوم القيامة ليس فقط هو يوم الجزاء، فهناك جزاء وهناك حساب، مفهوم الجزاء هو أن الإنسان يأخذ نتيجة أعماله لكن القرآن يصعد بنا إلى مفهوم ثان هو عبارة عن حساب، أي يوجد هناك سؤال وجواب** ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ﴾.[6]

حقيقة الحساب:

ما هو دافع الحساب وحقيقته؟ أي كيف يكون الحساب؟

هناك تفسيران للحساب:

التفسير الأوّل: التفسير الحقيقي.

---

(1) الحاقة: ٢٠.

(2) الحاقة: ٢٠ و٢١.

(3) الإسراء: ١٣ و١٤.

(4) إبراهيم ٤١.

(5) البقرة: ٢٨٤.

(6) الصافات: ٢٤.

التفسير الثاني: التفسير المجازي.

في القرآن الكريم مجموعة مفاهيم وكلمات إما نحملها على معناها الحقيقي أو نحملها على التأويل والمعنى المجازي ومن جملة تلك المفاهيم هو مفهوم الحساب، الحساب في معناه الحقيقي هو سؤال وجواب ومحاسبة، وهذا المعنى الحقيقي للحساب هو الذي يجب أن نحمل الآيات القرآنية عليه.

هناك آيات في القرآن الكريم تدعم المعنى الحقيقي للحساب مثل قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ﴾ وهكذا قوله ﷺ في الرواية الثابتة: «إذا كان يوم القيامة لم تزل قدما عبد حتّى يسأل عن أربع، عن عمره فيمَ أفناه وعن شبابه فيمَ أبلاه وعما اكتسبه من أين اكتسبه وفيمَ أنفقه وعن حبنا أهل البيت»[١] والروايات تقول: «ان أوّل ما يسأل عنه العبد حبنا أهل البيت»[٢] أي عن الارتباط بالنبوة والرسالات الإلهية قبل أن تسأل عن الأعمال التفصيلية كالصلاة والصيام.

التفسير الحقيقي للحساب يقول: أن هناك سؤال وجواب بالنحو الذي نفهم ونمارسه اليوم في عالم الدنيا، بقطع النظر عن الأشغال التطبيقية له.

التفسير المجازي يقول: أن القضية هي حساب لكن ليس بالضرورة أن يكون بمعنى وجود سؤال وجواب وإنما الحساب هنا يعني النتيجة الطبيعية لأعمال الإنسان والتي هي عبارة عن عملية محاسبة طبيعية أي كمن يستعمل دواء لرفع الحمى فترتفع عنه الحمى، يوم القيامة قسم يدخلون الجنّة وقسم يدخلون النار وهذا الأمر على أساس حساب وموازين كما يقول القرآن أي ليس هناك فوضى وإنما هي محاسبة علمية، طبعاً هذا التفسير ليس بالضرورة أن يكون مقبولاً لكن ذكرته كتفسير من التفاسير ويمكن أن تكون بعض الآيات القرآنية تشير إليه مثلاً قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ أي أن هناك عملية التحاق طبيعي للأعمال

(1) تحف العقول: ٥٦.
(2) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٦٧.

بالإنسان فكل شخص أعماله مربوطة في عنقه، «الصوم جُنّة من النار»[1] و«الصلاة قربان كل تقي»[2] أي أن كل عمل نتيجة ملتصقة بالإنسان يوم القيامة ﴿وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ في عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً﴾[3] **وكذلك قوله تعالى:** ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[4] **وهكذا من جملة الآيات التي تشير إلى هذا النمط من الحساب حينما يقول القرآن الكريم:** ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ﴾[5] **أي هي عملية أو نتيجة طبيعية بدون الحاجة إلى أن تتكلم فالأيدي والأرجل ستشهد يوم القيامة، وهكذا قوله:** ﴿وَقالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا قالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾،[6] **كذلك قوله تعالى:** ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَها فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمى عَلَيْها فِي نارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوى بِها جِباهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هذا ما كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾[7] **حيث كانت العُملة النقدية يومئذ عبارة عن مسكوكات ذهبية أوفضية فيحمى عليها وتذاب في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم، أما الآن فهل ان هذه الآية بالضبط تقصد هذا المعنى أن هناك دراهم ودنانير تذاب يوم القيامة؟**

ربما الإنسان ليس لديه ذهب وفضة، بل لديه دينار أو دولار أو أملاك عينيّة، فكيف نفهم الآية وما هو المقصود منها؟

يقول التفسير المجازي للحاسب أن المقصود منها هو أن ما تجمعه أيها

---

(1) فقه الرضا: ٢٠٤.

(2) نهج البلاغة ٤: ٣٤/ ١٣٦.

(3) الإسراء: ١٣.

(4) مدثر: ٣٨.

(5) يس: ٦٥.

(6) فصلت: ٢١.

(7) توبة: ٣٥.

الإنسـان ثـمّ لا تنفقـه فـي سـبيل الله سـوف يتحـول إلـى وبـال عليـك يـوم القيامـة وسوف تعذب به في نار جهنم.

كنـت أقـرأ فـي التقـارير الخبريـة ان هنـاك مليـوني إنسـان سـنوياً يمـوت عنـد الـولادة فـي الشـعوب الناميـة وذلـك نتيجـة سـوء التغذيـة و(١٠) مليـون إنسـان سـنوياً يمـوت عنـد عمـر خمـس سـنين نتيجـة سـوء التغذيـة هـذا فـي جانـب، فـي جانـب آخـر لـدينا فـي العـراق كمـا تقـول التقـارير أن هنـاك خمسـة ملايـين إنسـان هـم تحـت خـط الفقـر، إلـى جانـب ذلـك هنـاك خبـر يقـول أن شـمال الإمـارات فـي رأس الخيمـة هنـاك مسـاع لافتتـاح محطـة فضـاء أي مطـار لمركبـة فضـائية وهـذا المشـروع بكلفـة (٢٦٥) مليـون يـورو تقـوم بـه شـركة سـبيس أدفنيشـر حيـث تقـوم الشـركة بإعـداد المحطـة ومركبـة فضـائية للمتـرفين تتسـع إلـى خمسـة أشـخاص وتصـعد بهـم إلـى بعـد مائـة كيلـو متـراً عـن سـطح الأرض لكـي يشـاهد القمـر والنجـوم والأرض مـن هـذا الارتفـاع وهـذه المركبـة الفضـائية تتسـع لخمسـة أشـخاص، تصـوروا أن خمسـة أشـخاص مـا لا يقـل عـن مئـة ألـف دولار فـي المـرة الواحـدة لكـي يسـددوا نفقـات كلفـة المحطـة وهـي (٢٦٥) مليـون يـورو، تصـوروا مـدى الـربح فـي رحلـة فضـائية ترفيهيـة وشـعوب العـالم تـئن فقـراً وجوعـاً، هـذا التقريـر الـذي قرأتـه لكـم عـن الفقـر فـي العـراق طبعـاً هـو نتيجـة الحـروب، وإلا فـالعراق بلـد غنـي، نتيجـة الحـروب والإرهـاب وتفـرج العـالم العربـي علـى العـراقيين، فـي العـراق خمسـة ملايـين تحـت خـط الفقـر وهنـاك محطـة فضـاء تبنـى في رأس الخيمة.

القـرآن حينمـا يقـول: ﴿الَّـذِينَ يَكْنِـزُونَ الـذَّهَبَ وَالْفِضَّـةَ وَلا يُنْفِقُونَهَـا فِـي سَـبِيلِ اللَّـهِ﴾ أي لا ينفقونهـا علـى هـذه الشـعوب المحتاجـة والفقيـرة، طبعـاً نحـن لسـنا بصـدد نقـد الترفيـه ونقـد الإمـارات لكـن نحـن بصـدد بيـان ان الإسـلام يـدعوا إلـى

توازن وعدالة معيشية أن من غير الممكن أن شعباً متخماً هكذا وشعباً يموت نتيجة سوء التغذية هذا تفاوت طبقي وهذا من ﴿الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾، نعم من حقك أن تصرف أموالك ويكون ذلك حلالاً في حالة إذا لم يكن إلى جانبك محتاجون أما إذا كان إلى جانبك بيوت من صفائح معدنية ومن خوص النخيل في نفس الإمارات والكويت وأبو ظبي وفي نفس الوقت فإن هناك شركة تقوم ببناء محطة لركاب الفضاء المترفين فإن هذا أمرٌ مرفوض.

الشاهد في الأمر أن هناك تفسير يقول أن الحساب يوم القيامة هو حساب بالمعنى المجازي يعني كلٌ يأخذ استحقاقه وليس بالضرورة وجود حساب وكتاب، وعلى كلِ الأحوال نحن نبقى مع الظاهر القرآني الذي يقول هناك حساب وسؤال ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ﴾ وهو التفسير الحقيقي بدل التفسير المجازي.

البحث الثاني: لماذا الحساب؟

السؤال يقول أليس الله يعلم بواقع الإنسان فلماذا يحاسبه؟ ولماذا لا يوزع الناس إلى الجنّة وإلى النار بدون حساب، بل بواقع العلم الإلهي باستحقاقهاهم.

الجواب أن الحساب هو لاظهار العدالة الإلهية وإقامة الحجة على الناس ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ و﴿تُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ﴾ الله تبارك وتعالى عادل ويريد أن يُظهر عدالته للخلائق يوم القيامة حتّى لا يبقى مجال للاعتراض.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً﴾[1] وفي آية أخرى: ﴿وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾[2] ونقيراً بمعنى النقرة الصغيرة جداً في نواة التمر وفتيلاً هو الخيط الصغير المفتول الموجود في نواة التمر أيضاً، الله يوم القيامة يريد أن يظهر عدالته من خلال

(1) النساء: ١٢٤.
(2) النساء: ٤٩.

الحساب والكتاب فحين يقول العبد: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾[١] **إذن هناك اعتراض من قبل العباد يوم القيامة وهذا الاعتراض بحاجة إلى جواب، الحساب ليس لأجل معرفة الحقيقة، بل من أجل كشف الحقيقة للناس، وإثبات العدالة الإلهيّة.**

البحث الثالث: صورٌ من الحساب الإلهي:

في هذا البحث نريد أن نستعرض بعض المشاهد والصور والحقائق المرتبطة بالحساب.

الإمام الصادق عليه السلام يقول: «ثلاثة لا يُحاسب عليها المؤمن، طعامٌ يأكله وثوب يلبسه وزوجة صالحة تعاونه»[٢] الله تعالى يدعوا إلى الزهد والأنبياء وأئمّتنا عليهم السلام لم يأكلوا كباقي الناس، لكن الله تعالى لم يُحرم أن تأكل من أطيب الطعام ولا يحاسب على ذلك فمن المستحب أن تأكل أنت وعيالك من الطيبات وأن تدعو الضيف وتمد له مائدة جيدة فالله تعالى كريم، وكذلك الثوب الجيد والجديد لا يحاسبك عليه، كذلك فإن الله لا يحاسب من يتزوج من الرجال والنساء.

حديث آخر عن الرسول صلى الله عليه وآله يقول: «أوّل ما يُسأل عنه العبد حبنا أهل البيت».

وفي حديث آخر بيان كيف يكون الحساب يسيراً وكيف يكون عسيراً كما يقول القرآن الكريم مرة: ﴿وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً﴾[٣] **ومرة:** ﴿يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً﴾[٤] **الرواية تقول: «حسن خُلُقك يُخفّف الله حسابك».**[٥]

(1) طه: ١٢٥ و١٢٦.
(2) مستدرك الوسائل ١٤: ١٧٢/ ح ١٦٤٥/١٦.
(3) الفرقان: ٢٦.
(4) الانشقاق: ٨.
(5) ميزان الحكمة ١: ٦٢٢.

وحديث آخر يقول: «إن صلة الرحم تهون الحساب يوم القيامة».[١]

وحديث آخر عن رسول الله ﷺ يقول: «ثلاثة من كن فيه حاسبه الله حساباً يسيراً وأدخله الجنّة برحمته».

قالوا: وما هي يا رسول الله؟

قال: «تعطي من حرمك وتصل من قطعك وتعفوا عمن ظلمك».[٢]

البحث الرابع: كيف يكون الأئمّة عليهم السلام أصحاب الحساب يوم القيامة؟

الزيارة تقول: «وإياب الخلق إليكم وحسابهم عليكم» أي في يوم القيامة يكون الحساب بعهدة أهل البيت عليهم السلام، فهم الذين يحاسبون الناس!

كيف نفهم ذلك؟

الجواب: هناك نوعان من الحساب مباشر وغير مباشر.

الحساب المباشر يوم القيامة هو من قبل الله تبارك وتعالى مباشرة كما في حساب الله لأنبيائه، الله مثلاً يقول يوم القيامة: ﴿يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾[٣] فالسؤال هنا مباشرة من عند الله تعالى.

وهكذا عندنا رواية تقول: «من ظَلَم عباد الله كان الله خَصْمُه يوم القيامة»[٤] أي أن الله يحاسبه مباشرة.

لكن يوجد يوم القيامة حساب غير مباشر وهو الذي يتولاه الأنبياء والأئمّة عليهم السلام وهذا المعنى موجود في القرآن الكريم حيث يقول تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً﴾[٥] والروايات

---

(1) الدعوات: ١٢٦/ ح ٣١٢.

(2) البحار ٧: ٩٦.

(3) المائدة: ١١٦.

(4) نهج البلاغة ٣: ٨٥/ ٥٣ كتابه عليه السلام لمالك الأشتر.

(5) النساء: ٤١.

تقول أن الأئمّة الأطهار هم الشهداء، وهكذا في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ﴾[1] **الروايات تقول أن الأئمّة الأطهار والإمام عليّ** عليه السلام **هو الذي يقف على الأعراف يوم القيامة ويشهد على هؤلاء.**

صاحب تفسير المنار[2] **العلامة رشيد رضا وهو من مفسري أهل السنة وكتابه في التفسير يشار إليه وهو تلميذ الشيخ محمّد عبدة من أئمّة الأزهر، في موضوع:** ﴿وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ﴾ **وحيث تقول الروايات الشيعية أن عليّاً** عليه السلام **هو الذي يقف على الأعراف يوم القيامة، وهو الذي يؤذن في الناس في قوله تعالى:** ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[3] **يأتي صاحب تفسير المنار يقول: لماذا لا نقبل هذه الروايات الشيعيّة؟ فكثير من رواة الشيعة هم عدول، وعليّ** عليه السلام **ليس قليلاً بشأنه أن يقف على الأعراف يوم القيامة ويكون شاهداً على أهل الجنّة وعلى أهل النار، ويكون هو المؤذن بالناس حيث تقول الروايات الشيعية أن عليّاً هو ذلك المؤذن.**

الرواية تقول أن الإمام عليّ عليه السلام **هو المؤذن ويقول: «ألا لعنة الله على الذين كذبوا بولايتي واستخفوا بحقي»**[4] **عليّ** عليه السلام **يقول: «أنا المؤذن في الدنيا والآخرة»**[5] **ففي الدنيا كما جاء في سورة براءة:** ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ **يوم بعث رسول الله** صلى الله عليه وآله **أبابكر ليقرأ سورة البراءة ثمّ سحبه وأرسل عليّاً** عليه السلام **لقراءة سورة البراءة، فعليّ هو المؤذن الذي أعلن البراءة الإلهية من**

---

(1) الأعراف: ٦.

(2) أنظر في ذلك ما نقله العلامة الطباطبائي عن صاحب المنار في تفسير الآية: ﴿وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾.

(3) الأعراف: ٤٤.

(4) البحار ٨: ٣٣١.

(5) معاني الأخبار: ٥٩.

المشركين، ﴿وَأَذانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾[1] **هذا أذان الدنيا وهناك أذان يوم القيامة** ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾ **عليّ** عليه السلام **كما في الروايات يقول: «أنا المؤذن يوم القيامة».**

الرواية أيضاً عن الإمام الصادق عليه السلام **في تفسير قوله:** ﴿وَعَلَى الْأَعْرافِ رِجالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيماهُمْ﴾ **قال: «نحن أصحاب الأعراف فمن عرفنا فمآله إلى الجنّة ومن أنكرنا فمآله إلى النار».**[٢]

وأنا أقرأ لكم رواية جميلة في هذا المجال تشرح كيف أن الأئمّة الأطهار هم الشهداء يوم القيامة على الخلائق؟

الرواية هي واحدة من الروايات التي يجمعها مؤلف تفسير البرهان عن الشيخ الكليني وغيره ممن جمعوا أحاديث أهل البيت عليهم السلام **وهي عن الإمام الباقر** عليه السلام **قال: «يا جابر إذا كان يوم القيامة بعث الله** عزّ وجلّ **الأولين والآخرين لفصل الخطاب، دُعي أمير المؤمنين** عليه السلام **فيكسى رسول الله حُلةً خضراء تضيء ما بين المشرق والمغرب ويُكسى عليّ مثلها ثمّ يصعدان ثمّ يُدعى بنا فيدفع إلينا حساب الناس فنحن والله ندخل أهل الجنّة الجنّة وأهل النار النار ثمّ يُدعى بالنبيين فيقامون صفيف عند عرش الله** عزّ وجلّ **حتّى يفرغ من حساب الناس فإذا دخل أهل الجنّة الجنّة وأهل النار النار بعث الله عليّاً ويغلق على أهل الجنّة إذا دخلوا فيها أبواباً لأن أبواب الجنّة إليه وأبواب النار إليه».**[٣]

وفي رواية أخرى، قال صلى الله عليه وآله **: «إذا كان يوم القيامة ولّينا حساب شيعتنا فمن كانت مظلمته فيما بينه وبين الله حكّمنا فيها فأجابنا ومن كانت مظلمته**

---

(1) التوبة: ٣.

(2) تفسير الميزان ٨: ١٤٤.

(3) أنظر: الكافي ٨: ١٥٩.

فيما بينه وبين الناس استوهبناها فوهبت لنا ومن كانت مظلمته فيما بينه وبيننا كنا أحق من عفا وصفح». [(١)]

طبعاً سوف تسألون كيف أن أهل البيت يحاسبون الخلائق حيث أن هذا الحساب يستغرق وقتاً طويلاً؟ وهذا سؤال علمي قد يتطور إلى سؤال آخر هو كيف انهم يحضرون في قبرنا؟ ففي ساعة واحدة قد يموت ألف إنسان فهل ان الإمام عليّ عليه السلام يحضرهم كلهم في ساعة واحدة؟ كيف يستطيع ذلك؟

هذه أسئلة لا يصعب عليكم الجواب عنها لأن عالم الآخرة هو غير عالم الدنيا، وأن قوانين وقدرات وامكانات عالم الآخرة وعالم الأرواح غير عالم الدنيا، اليوم في الدنيا العلوم تطورت حتّى أن جهاز الحاسوب له القدرة على حساب مليون عملية رياضية في الثانية الواحدة هذا في الدنيا فكيف إذا أردنا أن نقيس عالم الآخرة وهو أعظم من عالم الدنيا؟ إذن ليس عجيباً أن يقف النبي ويحاسب ملايين الخلق في ساعة واحدة وكذلك الإمام عليّ عليه السلام. وليس عجيباً أيضاً أن الأئمّة عليهم السلام يحضرون الناس ساعة موتهم وفي قبرهم.

شفاعة أهل البيت عليهم السلام:

«وإياب الخلق إليكم وحسابهم عليكم» ولهذا فإن الرواية تقول: ان الزهراء عليها السلام يوم القيامة تقف على باب جهنم فيؤتى بمحب مذنب قد أُمر به إلى النار فتقرأ الزهراء في جبينه مكتوب هذا محب أي موالي فتقول إلهي سميتني فاطمة وفطمتني وشيعتي على النار وهذا واحد من شيعتي يؤمر به إلى النار فيأمر الله تبارك وتعالى به إلى الجنّة».

وطبعاً مثل هذه الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «ادَّخرت شفاعتي

(1) مسند الرضا: ١٥٧.

لأهل الكبائر من أمّتي».[1] ومثلها عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه يقف يوم القيامة على الصراط ويأخذ بيد شيعته، الرواية تقول: «ان الزهراء عليها السلام تلتقط شيعتها يوم المحشر كما يلتقط الطير الحب الجيد من الحب الرديء»[2] منزلة الزهراء يوم القيامة هي منزلة عظيمة وهذه المنزلة استحقتها الزهراء بظلامتها في الدنيا وهي بنت رسول الله صلى الله عليه وآله الوحيدة التي كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «فاطمة روحي التي بين جَنبَيْ، فاطمة بضعة مني من آذاها فقد آذاني ومن غضبها فقد أغضبني».[3]

لما دنت منها الوفاة قالت: يا عليّ لي إليك وصية.

قال: قولي يا بنت رسول الله.

قالت: إذا أنا متُّ فغسلني وكفّني ببقية حنوط أبي رسول الله ثمّ شيعني ليلاً إذا نامت العيون ولا تدع أحداً من هؤلاء الذين ظلموني يشهد جنازتي.

إنا لله وإنا اليه راجعون

* * *

(1) الكافي للحلبي: ٤٦٩.

(2) أنظر: البحار ٨: ٥٢.

(3) أنظر: اعتقادات المفيد: ١٠٥.

المحاضرة الأربعون:

الولاية التشريعية والولاية التكوينيّة

لأهل البيت عليهم السلام

«وأمره إليكم».

اليوم حديثنا في موضوع عقائدي مهم تحت عنوان الولاية التشريعية والولاية التكوينية لأهل البيت عليهم السلام، هذا الموضوع ننطلق فيه من هذا المقطع للزيارة «وأمره إليكم» الذي يعني أن أمر الله موكول ومفوّض إلى الأئمّة الأطهار عليهم السلام.

ما معنى أن أمر الله تعالى مُفَوَّض وموكول إلى أهل البيت؟

هذا يأتي في سياق عدة جمل جاءت في هذه الزيارة مثل قوله: «والمظهرين لأمر الله ونهيه» وفي قوله في الزيارة: «وبأمره تعملون».

حديثنا هذا اليوم إذن عن أمر الله وارتباطه بأهل البيت ماذا يعني ذلك؟

أنحاء الولاية:

عندنا ثلاث ولايات:

الولاية الأولى: هي الولاية التشريعية.

الولاية الثانية: هي الولاية السياسية.

الولاية الثالثة: هي الولاية التكوينية.

الولاية لغوياً وفي مصطلح اليوم تُسمى السلطة، فسيكون حديثنا عن سلطة أهل البيت حيث أن هناك ثلاث سلطات تشريعية وسياسية وتكوينية.

الولاية التشريعية:

السلطة التشريعية تعني أن الله تبارك وتعالى وهو المشرّع الأوّل أعطى أمر التشريع للأنبياء والأئمّة عليهم السلام فنحن نعرف الحلال والحرام من لسان الأنبياء والأئمّة الأطهار، إذن السلطة التشريعية هي للأنبياء والأئمّة، لأن الأمر

بمعنى القرار التشريعي ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾(١) هذا أمر تشريعي. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾(٢) يأمر هنا يعني أمراً تشريعياً يعني أفعل، هذه السلطة للأنبياء والأئمّة.

لكن يجب ان نعرف أن النبي لا يُشرّع من عنده والأئمّة كذلك بل الله هو المشرّع، يعني إذا سألونا من هو المشرع للدين، نقول الله هو المشرّع لذا يقول القرآن: ﴿أَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾(٣) يعني الذي يُحلل ويحرّم هو الله تعالى أمّا دور النبي هو أن ينقل الأحكام الإلهية أما السلطة التشريعية بالأصل فهي لله تعالى، لكن بما أننا لا يوجد لدينا صلة مباشرة بالله ونحن لا نسمع كلام الله تعالى بل النبي هو الوسيط الذي فُوِّضت إليه السلطة التشريعية فما يقوله النبي يقوله الله تعالى. هذا معنى السلطة التشريعية.

السؤال أن أهل البيت عليهم السلام لهم السلطة التشريعية أم لا؟

الجواب: نعم، لهم سلطة تشريعية، يعني هذا التشريع الذي ينقله رسول الله إلينا، نحن بعد رسول الله نأخذه من أمير المؤمنين الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله: «أنا مدينة العلم وعليّ بابها» وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «علّمني رسول الله ألف باب يُفتح لي من كل باب ألف باب».

وهكذا حتّى نصل إلى الإمام الباقر والإمام الصادق وباقي الأئمّة الاثني عشر عليهم السلام فالسلطة التشريعية إذن موكولة إلى الأئمّة الأطهار بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ولا يشرّعون من أنفسهم إنما المشرع هو الله تعالى كما جاء في الحديث الشريف: «حديثي حديث أبي وحديث أبي حديث جدي، وحديث جدي حديث الحسين وحديث الحسين حديث الحسن وحديث الحسن

---

(١) الأعراف: ٢٩.
(٢) النحل: ٩٠.
(٣) البقرة: ٢٧٥.

حديث أمير المؤمنين عليه السلام وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وحديث رسول الله صلى الله عليه وآله هو قول الله عز وجل».[1]

الولاية السياسيّة:

نتنقل إلى السلطة السياسية وماذا تعني؟

القرآن الكريم يقول: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ﴾[2] هنا أطيعوا ليس في المجالات التشريعية التي هي أحكام إلهية، وإنما في القرارات السياسية بمعنى إذا قال النبي حاربوا وجب ان تحاربوا وإذا قال سالموا وجب ان تسالموا.

القائد السياسي في البلاد هو رسول الله صلى الله عليه وآله وبعد رسول الله هم الأئمّة الأطهار عليهم السلام، هذا هو معنى ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ﴾ هذا حديث عن السلطة السياسية.

الولاية التكوينية:

لكن ما يهمنا الحديث عنه اليوم هو عن السلطة التكوينية، وما يسمّى بالولاية التكوينية، أهل البيت هل لهم سلطة تكوينية أم لا؟

ما معنى السلطة التكوينية؟

معناها أن أمور الكون وليس أمور الشريعة فحسب وليس أمور المجتمع السياسية فحسب وإنما أمور الكون موكولة إلى الأئمة فهم يتصرّفون في الشؤون الكونية ، كما أن عيسى يُبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، فكذلك الأئمّة عليهم السلام لهم سلطة تكوينية تتصرّف في الأمور التكوينية.

---

(١) الكافي ١: ٥٣/ ١٤.

(٢) النساء: ٥٩.

أهل البيت هل لهم سلطة تكوينية؟

قد يقول قائل: إن هذا النص الذي قرأناه في الزيارة الجامعة أعني قوله عليه السلام: «وأمره إليكم» يعني أن أمر الله في القضاء والقدر وفي الأمر التكويني الوارد في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[1] هذا الأمر التكويني موكول لأهل البيت وهذا هو محل البحث اليوم.

والحقيقة أن هذا بحث عميق ولكنه مهم حيث يجب أن نعرف طبيعة فهمنا لأهل البيت عليهم السلام وموقعهم في الوجود، الفهم الصحيح ما هو؟

مستويات الولاية التكوينية:

هناك مستويات للسلطة التكوينية:

المستوى الأوّل: هو عبارة عن التصرف بأمور الكون بأذن من الله تعالى، وتجاوزاً لقوانين الطبيعة، مثلاً المريض يذهب إلى الطبيب فيعطيه دواءً فيشفى، وهذا تصرّف في أمور الكون وفي أمور البدن، لكن ما هو الفرق بين تصرف هذا الطبيب وتصرف عيسى بن مريم؟ الفرق هو أن عيسى يأتي إليه شخصٌ أعمى فيمسح على عينيه فيتعافى، ما الفرق بين الطبيب وعيسى؟ وهل هناك فرق؟ نعم يوجد فرق.

الفرق أن الطبيب يعمل وفق القوانين الطبيعية أما عيسى فهو يعمل ليس وفق القوانين الطبيعية وإنما يتعدى تلك القوانين، فمثلاً الطبيب يجري عملية للمريض فيتعافى، هذه قوانين طبيعية أما عيسى عليه السلام فهو لا يقوم بعملية جراحية وإنما يمسح على عينيه ويقرأ له دعاءً فيتعافى.

فرسول الله صلى الله عليه وآله لما جاءوا بعليّ عليه السلام في معركة خيبر وكان أرمداً لا يُبصر، رسول الله أخذ من لعاب فمه ومسحَ به على عين الإمام علي فتعافى. هذه ليست قوانين

---

(١) يس: ٨٢.

طبيعية. كذلك يوسف عليه السلام **قال:** ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هذا فَأَلْقُوهُ عَلى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً﴾[١] **فجاؤوا بالقميص وهم ما زالوا خارج الدار قال يعقوب:** ﴿إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْ لا أَنْ تُفَنِّدُونِ * قالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ * فَلَمَّا أَنْ جاءَ الْبَشِيرُ أَلْقاهُ عَلى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً﴾،[٢] **فهذا خارج عن فعل القوانين الطبيعية، وإنما هذا تصرّف في الأمور الكونية وهو الذي نسميه سلطة تكوينية أو ولاية تكوينية والذي يعني:**

أوّلاً: هو تصرف بدون قوانين الطبيعة وإنما عبور وتجاوز لقوانين الطبيعية.

ثانياً: هو بإذن الله ﴿أُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[٣] **فبدون إذن الله فإن عيسى لا يستطيع أن يفعل شيئاً بل الله تعالى هو القادر على أن يحي الموتى وإنما عيسى مجرد وسيط.**

هذا هو المستوى الأوّل من السلطة التكوينية.

السؤال: إن هذا المستوى الأوّل هل موجود عند نبينا صلى الله عليه وآله **والأئمّة الأطهار؟ وما هو الدليل عليه؟**

الجواب: نعم هو موجود لأنه في الحقيقة هو فعل الله تعالى وإظهار لكرامة هذا العبد الولي، الله يظهر كرامته ويجري الخير والبركة على يده وهذا قد يجري لكثير من الأولياء أو الصالحين، يدعو الله تبارك وتعالى فيشفى المريض هذا بإذن الله تعالى، هذا نسميه سلطة تكوينية مشروطة بإرادة الله تعالى فعيسى عليه السلام **والأنبياء والأئمّة لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً بدون إرادة الله، بدليل أن النبي** صلى الله عليه وآله **يقول:** ﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرًّا﴾[٤] **الأنبياء قُتلوا ومرضوا لماذا لم يَدفعوا عن أنفسهم مرضاً؟ أيوب كان مريضاً**

---

(١) يوسف: ٩٣.

(٢) يوسف: ٩٤ - ٩٦.

(٣) آل عمران: ٤٩.

(٤) الأعراف: ١٨٨.

أربعين سنة، لماذا لم يدفع عن نفسه المرض لو كان قادراً على كل شيء ولو كان لديه سلطة تكوينية مطلقة؟ الإمام موسى بن جعفر كان سجيناً أربعة عشر سنة في السجون العباسية لماذا لم يخرج من السجن؟ الجواب: إن تلك الولاية مشروطة بإذن الله تعالى وليست مطلقة.

قصة السيد مهدي الحكيم في باكستان:

رحمة الله على الشهيد السيد السعيد محمّد مهدي الحكيم كانت أوّل هجرة له من العراق إلى الباكستان وفي الباكستان الناس لهم اعتقاد كبير بالعلماء والسادة والمراجع وهذا ابن مرجع، يقول السيد في تلك السنة أصابهم الجدب وفي موسم الزراعة لم يكن يوجد لديهم مطر، جاء جمع من الشيعة وقالوا سيدنا ادعُ لنا الله حتّى ينزل المطر، قلت في نفسي: يا إلهي أنا أعرف حالي وشأني لكن هؤلاء مؤمنين ويفترضون ان لنا منزلة عندك، بجاه الأئمّة ولخاطر رسول الله أنزل عليهم المطر، يقول السيد نزل المطر بشكل غزير ولعدة أيام، فجاءوا إليّ وقالوا سيدنا أدعُ الله أن يَقطع المطر!! يقول على كل حال قبلت وتوسلت بالله، إلهي أنت أكرمتنا بالأولى فأكرمنا بالثانية وأوقف المطر، يقول السيد انقطع المطر.

محل الشاهد في ذلك أن السلطة التكوينية تعني التصرف في الأمور الكونية لكن بإذن الله تعالى.

رسول الله يقول: ﴿قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ ما يُوحى إِلَيَّ﴾.(١)

وفي آية آخرى ﴿ قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً ﴾.(٢)

والآية هكذا تقول: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيانَ مُرْساها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي لا

(١) الأنعام: ٥٠.

(٢) الأعراف: ١٨٨.

يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ * قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرًّا إِلاَّ ما شاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَما مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1] **السلطة التكوينية المشروطة بإذن الله تعالى موجودة في الأنبياء والأئمّة ومعجزات الأنبياء وكرامات الأئمّة هي من هذا القبيل.**

كرامة الإمام الهادي عليه السلام:

الإمام الهادي عليه السلام ونحن نعيش في ذكرى شهادة الإمام الهادي لديه عدة معاجز هي من باب السلطة التكوينية المشروطة.

الرواة يذكرون قصة العسكر وهي أن المتوكل العباسي كان جباراً في زمانه كان له تسعون ألف فارس، بَلَغه أن الإمام عليّ الهادي له أنصار وأتباع وربما يقوم بثورة ضد الخلافة العباسيّة، فاستدعاه من المدينة المنوّرة إلى سامراء، ووضعه تحت المراقبة المشددة، يومئذٍ أراد المتوكل أن يظهر قوته وجنوده أمام الإمام الهادي عليه السلام فأعطى قراراً ملكياً أن كل واحد من هؤلاء الفرسان يملأ مِخلاته (المخلاة هي الجراب الذي يوضع فيه علف الدابة ويعلّق في رقبتها حتّى تأكل من عنده) رملاً وتراباً ويأتي ويضعه في مكان محدّد. فأصبح تَلاً كبيراً من الرمل سمي يومئذ تل المخلاة هذا هو تل صناعي طبعاً، المتوكل العباسي طلب من الإمام الهادي أن يَصعد معه على التل، ودعا الجيش أن يقوم باصطفاف عسكري، فاصطف تسعون ألف فارس، والمتوكل مبتهج ومسرورا فقال للإمام الهادي أرأيت عسكري؟

الإمام الهادي عليه السلام قال له: أتريد أن أريك عسكري؟

قال: وهل لديك عسكر؟

---

(١) الأعراف: ١٨٧ و١٨٨.

قال أنظر إلى أعلى ماذا ترى؟

الرواية تقول: أن المتوكل العباسي نظر إلى السماء وإذا هي مليئة بملائكة مدججين مسلحين من شرق السماء إلى غربها.

قال له الإمام: هذا عسكري!! لكن يا متوكل نحن لا ننافسك في الدنيا، نحن مشتغلون في أمر الآخرة فلا يشغلك شيء مما تظن.

الأئمّة عليهم السلام في مرحلة من المراحل لم يجدوا من المصلحة أن يقوموا بتحرك سياسي مضاد وإنما كان تخطيطهم شيئاً آخر، رغم انهم في الحقيقة لديهم سلطة تكوينية مشروطة بإذن الله تعالى.

قصة الساحر الهندي:

في قصة ثانية للإمام الهادي عليه السلام تقول إن المتوكل العباسي كان عنده ساحر هندي، قال له المتوكل سيدخل علينا شخص أريد أن تعمل عملاً حتّى نهزأ به، وكانت هناك مائدة ممدودة فيها طعام وأرغفة خبز، دخل الإمام الهادي فقال له المتوكل ألا تأكل؟ الإمام الهادي مدَّ يدَه على الرغيف فقام الساحر الهندي بعمل سحري فطار الرغيف. ضحك المتوكل وضحك الجالسون، ولكن الإمام مدَّ يده على رغيف خبز آخر فطارت أيضاً وضحكوا.

الإمام الهادي عليه السلام لما رأى المجلس بهذا الشكل، التفت إلى صورة أسد كانت مرسومة على الجدار قال: أيها الأسد افترس هذا الساحر، وإذا بالأسد يتحول من صورة على الجدار إلى أسد حقيقي افترس هذا الساحر، وهنا المتوكل العباسي انهار وأصبح يتوسل بالإمام الهادي أن يرجعه، قال له: لا يرجع.[١]

هذه القصة لا أتحدث عن صحة سندها أو عدم الصحة، إنما أتحدث عن الفكرة وهي أن الأئمّة لديهم سلطة تكوينية مشروطة، فإذا كان قميص يوسف وهو

---

(١) الثاقب في المناقب: ٥٥٥/ ٤٩٧ - ١٥.

قطعة قماش يجعل يعقوب بصيراً بعد سنوات، إذا كان ذاك ممكناً إذن هذا أيضاً ممكن، هذه إرادة الله تعالى إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، هذا نسميه سلطة تكوينية مشروطة (ولاية تكوينية) وهذا هو المستوى الأوّل للولاية.

وهناك مستوى ثاني للسلطة التكوينية.

المستوى الثاني: هي السلطة التكوينية غير المشروطة، بمعنى أن الله تعالى فوَّض أمور الكون، كل الكون من شروق الشمس غياب الشمس، وهطول المطر، والزلازل، والحياة والموت وجميع هذه الأمور فوَّضها إلى الأئمّة الأطهار عليهم السلام والأنبياء قبلهم.

طبعاً هذه النظرية نحن ذكرناها للدراسة والنقد وليس للقبول بها.

فهناك سؤال: هل الأئمّة الأطهار عليهم السلام لهم مثل هذه السلطة التكوينية؟

هل صحيح أن الله تبارك وتعالى فوَّضَ أمور الكون إلى الأئمّة عليهم السلام وتركها لهم؟

أو أن الأئمّة عليهم السلام لديهم سلطة تكوينية مشروطة وليس لديهم سلطة تكوينية مطلقة؟ هذا هو بحث الولاية التكوينية.

توجد لدينا روايات قد يقول البعض أن هذه الروايات ظاهرة في أن الأئمّة عليهم السلام لهم سلطة تكوينية مطلقة وأنهم يتصرفون بأمور الكون مطلقاً وأن الله تعالى ترك لهم أمور الكون مطلقاً، أي أن الشمس إذا أشرقت فهي بأمر الإمام عليه السلام وإذا غربت فهي بأمره كذلك إذا مطرت بأمر الأمام عليه السلام هذه هي الولاية التكوينية المطلقة.

في دعاء شهر رجب يقول: «إني آملكم وسائلكم فيما إليكم التفويض وعليكم التعويض فبكم يُجبر المَهيض ويُشفى المريض وما تزداد الأرحام وما تغيض» أي أن المرأة لا تكون حاملاً إلا بأمر الأئمّة الأطهار عليهم السلام هذا ما نقرؤه في دعاء رجب وهذا معناه سلطة تكوينية مطلقة.

وهكذا نقرأ في زيارة الجامعة أيضاً «بكم بدأ الله وبكم يختم وبكم يُنزّل الغَيث وبكم يُمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه» يعني أن النظام الكوني كله قائم بأمر أهل البيت عليهم السلام ولولا أهل البيت لاختلّ نظام الكون كله.

هل هذا يعني سلطة تكوينية مطلقة؟

الجواب أن الأئمّة الأطهار وكذلك الأنبياء كما في القرآن الكريم لهم سلطة تكوينية مشروطة ومحدودة، النصوص القرآنية تؤكد أن الأنبياء والأئمة تعاملوا وتحركوا وفق السنن الكونية وخضعوا لتلك السنن الكونية إلا ما شاء الله تعالى، نعم قد تكون هناك معجزة لكن بإذن الله، القرآن الكريم يفيد في كثير من النصوص أن النبي صلى الله عليه وآله يخضع للقوانين الكونية، وكذلك في الحركة الاجتماعية فإن النبي في الحروب كان يخضع خضوعاً لقوانين كونية. في عملية التغيير ولا ينتصر بالملائكة، وإذا كان ثمة انتصار بالملائكة فهي حالة إعجازية وحالة نادرة. هذا هو بحث الولاية التكوينية، إذن كيف نفسّر قوله: «بِكم يُجبر المَهيض ويَشفى المريض...».

الجواب: له تفسيران تفسير حرفي، وتفسير أدبي.

التفسير الأدبي يعني ببركاتهم يرحم الله تعالى العباد ويشفي المريض وينزّل الغيث من السماء، فهم واسطة في الفيض الإلهي.

التفسير الحرفي: يعني أن الله تعالى فوّض الأمور لهم، فالمرأة تحمل، والسماء تمطر، والمريض يشفى كل ذلك بفعل الإمام، هذا المعنى من الولاية لا نملك دليلاً عليه بل أن ولاية الأئمّة، إنما هي ولاية تكوينية مشروطة، الله تبارك وتعالى هو يميت ويحيي، ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[1] ولهذا فإن الزيارة التي تقول: «وأمرُه إليكم» تعني أوّلاً: أمره التشريعي وأنه موكول للأئمّة

(١) الشعراء: ٨٠.

الأطهـار.. وثانيـاً: ﴿أَطِيعُـوا اللَّـهَ وَأَطِيعُـوا الرَّسُـولَ وَأُولِـي الْأَمْـرِ﴾(١) بمعنـى أن الأمـر السياسـي موكـول للأئمّـة الأطهـار، وثالثـاً الأمـر التكـويني المشـروط بـإذن الله تعـالى، ذلـك أيضـاً يكـون بقـدرة الأئمـة عليهم السلام كمـا هـو بقـدرة الأنبيـاء كمـا هـو ممكن أن يتحقق على يد كثير من الأولياء طالما هو بإذن الله تبارك وتعالى.

وهنـاك قـراءة أخـرى لهـذه الزيـارة فـي روايـة الكفعمـي «وأمـره نـازل إلـيكم» يعنـي لـيس أن الله فـوّض لكـم أمـر العبـاد وإنمـا أمـره نـازل إلـيكم، أمـر الله هو التشريع والقرآن والقرارات الإلهية تنزل إليكم.

نحـن الآن فـي ذكـرى شـهادة الإمـام الهـادي عليه السلام كمـا أننـا فـي هـذه الأيـام نعـيش ذكـرى شـهادة شـهيد المحـراب آيـة الله السـيد محمّـد بـاقر الحكـيم قدس سره الـذي يمثـل رمـزاً دينيـاً وسياسـياً للعـراق والعـراقيين منـذ خمـس وعشـرين عامـاً ينـادي أيهـا العراقيـون يجـب أن نتحـرك ونسـقط صـدام، وكـل هـذه السـنين أمضاها بالسراء والضراء لأجل هذا الهدف الكبير.

بدأ هذا الإنسان في حركته غريباً حيث لم يكن معه عشرات الأفراد.

لكـن الأمـل والثقـة بـالله كـان يـدعوه لرفـع تلـك الصـيحات والنـداءات بوضوح.

أروي لكـم قصـة حـدثت بعـد انتفاضـة شـعبان حيـث ذهبنـا معـه إلـى منطقـة رفحـاء فـي السـعودية والتـي كـان يتواجـد فيهـا إخواننـا اللاجئـون العراقيـون حيـث تنبـأ سـماحته بقـرب أجلـه حيـث قـال سـماحته إن الآيـة القرآنيـة فـي سـورة النصـر ﴿وَرَأَيْـتَ النَّـاسَ يَـدْخُلُونَ فِـي دِيـنِ اللَّـهِ أَفْوَاجـاً...﴾(٢) هـذه الآيـة عنـدما نزلـت كانـت عبـارة عـن إيـذان لرسـول الله صلى الله عليه وآله بأنـك سـوف تمـوت حيـث تنبـأ رسـول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) النساء: ٥٩.

(٢) النصر: ٢.

بأن هذه الآية تؤكد له نهاية عمره الشريف، كذلك السيد الحكيم في ذلك المشهد في رفحاء وحيث أصبح هناك وفي انتفاضة شعبان تحول في كل الشارع العراقي الذي أصبح ينادي (الموت لصدام) حيث تنبأ السيد بقرب مماته لأن ذلك التحول في العراق ودخول الناس أفواجاً في عملية التغيير السياسي يعتبر نصراً، لكن شاء الله تبارك وتعالى أن يريه نصراً آخر، لأن ذلك النصر لم يستكمل فالانتفاضة لم تنجح أو لم يستكمل نجاحها.

الآن استكمل النصر بسقوط صدام وأصبح النصر نصراً حقيقياً وأصبح هناك تغيير حقيقي في العراق وبالفعل لم يكن بعد هذا النصر إلا ثلاثة أشهر حتّى استشهد رضوان الله عليه، والحقيقة أن هذه كرامة لهذا الإنسان الصالح، بعد أداء صلاة الجمعة وعند الصحن الشريف وفي أوّل يوم من أيام رجب وفي ذكرى شهادة الإمام الباقر عليه السلام يُقتل هذا الإنسان شهيداً مقطعاً، هذه كرامة لا ينالها إلا الصالحون والأنبياء والأولياء.

إنّا لله وإنّا اليه راجعون

* * *

فهرست الموضوعات

* * *